مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

د. صلاح قبضايا

الساعة ١٤٠٥





الهيئة المصرية العامة للكتاب

الساعة ١٤٠٥

د. صلاح قبضايا



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

الساعة ١٤٠٥

د. صلاح قبضايا

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

إلى شباب مصر الذين لم يعاصروا أحداث يوم مجيد صنعه الآباء ليجنى ثماره الأبناء.. إلى كل أبناء مصر من مواليد الثلث الأخير من القرن العشرين الذين عاصروا النصر دون أن يتجرعوا مرارة الهزيمة.

إليهم نهدى هذه الصفحات مؤكدين أننا لا نعرف اليأس وأن مصر وأبناءها قادرون دائماً على مواجهة التحديات وتحقيق المستحيلات....

المقدمة

ربع قرن من الزمان مضى على معركة العبور التى أطلق الإنسان المصرى شرارتها الأولى فى الساعة ١٤٠٥ ـ الثانية وخمس دقائق من يوم السبت السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وسبقتها ومهدت لها خطة الخداع التى أحاطت بمراحل الإعداد وحشد القوات والانطلاق فى ساعة الصفر.

ووقف العالم مشدوها أمام قدرة الإنسان المصرى على اجتياز المحن وخوض المعارك الصعبة وتحقيق المستحيلات وتجاوز كل عوامل اليأس والإحباط.

وتتضمن هذه الصفحات **ثلاثة أبواب** يتناول **الباب الأول** خطة الخداع وأسرار مراحل الإعداد والحشد ويروى لأول مرة أسراراً لم يكن من الممكن الكشف عنها قبل الآن بعد أن مضى عليها ربع قرن. **والباب الثانى** هو إصدار جديد من كتاب معركة العبور الذى يسجل مراحل عبور قواتنا المسلحة لأصعب مانع مائى عرفته الحروب. وينقل **الباب الثالث** على لسان المقاتلين والأبطال قصتهم مع ساعة العبور .. الساعة ١٤٠٥ من اليوم (ى) يوم السادس من أكتوبر وكيف عبر الأبطال الهزيمة وحققوا النصر وأكدوا قدرة أبناء مصر على اجتياز المستحيل..

صلاح قبضايا

المراسل الحربى فى سيناء ٧٣

والمحرر العسكرى السابق لصحف أخبار اليوم

صلاح قبضايا

* المحرر العسكرى السابق لصحف دار أخبار اليوم.

* المراسل الحربى فى حرب اليمن ومعارك ٦٧ ومعركة العبور ٧٣.

* صاحب أول كتاب صدر فى العالم عن معركة العبور.

* المراسل الحربى لجريدة الشرق الأوسط خلال معارك تحرير الكويت وأصدر عنها أول كتاب «عاصفة الصحراء» وصدر بالعربية والانجليزية والفرنسية.

* رأس تحرير أول صحيفة حزبية معارضة فى مصر عام ٧٧

* تولى رئاسة تحرير العديد من الصحف فى القاهرة وجدة ولندن.

* حاصل على درجة الدكتوراه فى الصحافة من كلية الإعلام جامعة القاهرة.

* قام بتدريس التحرير والإخراج الصحفى فى جامعات مصر والسعودية.

* رئيس تحرير جريدة الأحرار.

الباب الأول

خطة الخداع

عكف الخبـراء والمتـخـصـصـون فى كل المجـالات على دراسـة أدق التفاصيل.. العسكرية والسياسية والطبوغرافية والطبيعية، واتفقوا فى النهاية على أفضل الأيام المناسبة للهجوم ولتكون ساعة الصفر «س» هى ١٤٠٥ أى الساعة الثانية وخمس دقائق من اليوم «ى».

ومع هذه الساعة - ساعة الصفر - انطلقت أسراب الطائرات متجهة نحو أهدافها فى سيناء المحتلة ومن ورائها طلقات أكثر من ألفى مدفع مصرى تمهد الطريق أمام الموجـات الأولى من قوات العبور وهى تعبر مياه القناة وتصنع رؤوس الجسور للكبارى العائمة..

وعند هذه اللحظة.. عند الدقيقة الخامسة بعد الساعة الثانية عصر يوم (ى) السبت السادس من أكتوبر ١٩٧٣ بدأت أحداث يوم مجيد..

الفصل الأول

قبل أن تكتمل الساعة السابعة من مساء الأحد ١٦ يولية ١٩٧٢ بتوقيت القاهرة دقت أجراس أجهزة وكالات الأنباء «التيكرز» داخل قاعات التحرير فى كل صحيفة وإذاعة تليفزيون لتنقل إلى العالم كله - وبجميع اللغات - قرار الحكومة المصرية الاستغناء عن الخبراء السوفيت الذين يعملون داخل وحدات القوات المسلحة المصرية.

واختلفت ردود الأفعال فى كل مكان.. لكن رد الفعل داخل اسرائيل كان يتخذ مسارا آخر. وقدمت البرامج السياسية والاخبارية فى إذاعة وتليفزيون اسرائيل عدة أحاديث وتعليقات وندوات حول هذا الحدث المفاجئ الذى لم يكن هناك من يتوقعه.

وفى القناة الأولى للتليفزيون الاسرائيلى أدارت «راحيل هير تزوج» المذيعة ومعدة البرامج السياسية ندوة طويلة شارك فيها كبار الصحفيين الاسرائيليين وعدد من السياسيين الذين يعارضون الحكومة الاسرائيلية ومنهم أحد قيادات حزب «الرافى» ومعه المعلق السياسى شاريت ايتان.

واختلفت الآراء والتعليقات فى هذه الندوة السياسية. كان بعضهم يرى أن قرار الاستغناء عن الخبراء السوفيت يؤكد اتجاهات مصر نحو التسوية السلمية دون حرب وأنها تعمل على تشجيع الرئيس الأمريكى للقيام بدور أكبر من أجل

التسوية السلمية، واعتبر أحد المحللين أن هذا الاجراء هو نوع من الترضية للعناصر العسكرية فى مصر التى ضجت بالشكوى من السوفيت ولا تجد لوجودهم أى جدوى، وأن هذا التيار يتزايد ويتزعمه وزير الحربية نفسه - الجنرال محمد صادق - الذى لا يخفى عداءه للسوفيت ويشكك فى نواياهم ويجاهر بذلك.

كان هذا هو رأى بعض المحللين.

فى حين كان أحد رؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية يرى أن الاستغناء عن الخبراء السوفيت أصبح أمراً ضروريا لإرضاء بعض الدول العربية التى تقدم المساعدات والقروض لمصر وتخشى من وجود عناصر شيوعية فوق الأرض المصرية.

وفى هذه الندوة قال أحد قادة أحزاب اليمين الاسرائيلى - آلن جولدمان - إنه يرى فى قرار الاستغناء عن الخبراء السوفيت مجرد قرار سياسى دعائى للاستهلاك المحدود وأنه لن ينعكس كثيرا على مجالات التعاون المصرى - السوفيتى، وأن هذا التعاون سيستمر حتى بعد عودة الخبراء السوفيت إلى بلادهم.

وعارض صاحب هذا الرأى باقى المشاركين فى ندوة «راحيل» وما أجمعوا عليه من أن مصر وسائر الدول العربية لا تستطيع خوض حرب جديدة فى مواجهة الخطوط الدفاعية القوية التى أقامتها اسرائيل والتى اشتهرت باسم خط بارليف.. نسبة إلى الجنرال حاييم بارليف صاحب الفكرة والمخطط الأصلى لبناء خط دفاعى ثابت على ضفة القناة الشرقية.

وقال جولدمان إنه لا يجب على زعماء اسرائيل أن يصدقوا ويكرروا الكلمات التى يتشدق بها العسكريون الاسرائيليون الذين لجأوا إلى الراحة والاطمئنان والترهل وبدأوا يبحثون عن تعويض لحياة التقشف التى عاشوها من قبل. ولذلك خصصوا لأنفسهم السيارات الفارهة ودخنوا السيجار الفاخر واتجهوا إلى جمع المقتنيات والقطع الأثرية وغرقوا فى قصص الحب والغرام.

وكان من الواضح أن المتحدث يقصد بهذا الكلام - تحديدا - الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى الذى كان قد انفصل عن زوجته - السيدة روت شوارتس - منذ شهور قليلة ليعيش مع فتاة أخرى وعدها بالزواج، ومعروف عنه هواية جمع الآثار والتنقيب عنها.

وهذا ما دفع المذيعة راحيل إلى التدخل لتوجه الحديث وجهة أخرى وتطرح سؤالا عن إمكانيات العرب العسكرية وهل سيضطر العرب إلى الموافقة على شروط السلام الإسرائيلية.

واندفع المتحدث نفسه ليقاطع الآخرين وليؤكد استحالة بقاء التفوق العسكرى الإسرائيلى إلى الأبد بين مائة مليون عربى مقابل ثلاثة ملايين إسرائيلى. وقابل بسخرية بالغة آراء الذين اعتبروا خروج الخبراء السوفيت بمثابة تأكيد على عدم قدرة العرب على القتال.

ومصداقية هذا الكلام كانت تنعكس فى تلك اللحظة على ما يجرى بسرية تامة على الجانب الآخر من أرض الصراع.. على الجانب الغربى من قناة السويس.

كانت سيارة صغيرة من طراز «فيات» تتجه إلى باب معهد تحليل التربة فى القاهرة وبداخلها الرائد فاروق فى ملابس مدنية متجها إلى مكتب المدير بناء على موعد سبق تحديده منذ ساعات. وكانت بجواره حقيبة جلدية سوداء من حقائب السفر الصغيرة حرص على حملها بنفسه إلى مكتب المدير.

وفوق طاولة الاجتماعات فى مكتب الدكتور حسنى فتح الرائد فاروق الحقيبة بعناية ليخرج منها خمسة أكياس صغيرة من الخيش مليئة بالرمال.

وفى كلمات قليلة واضحة شرح الرائد فاروق المطلوب، وقدم خطابا موجهاً من محافظة البحيرة إلى معهد تحليل التربة تطلب فيه المحافظة إجراء فحص كامل وتحليل لهذه الرمال وتحديد مكوناتها بدقة ومدى تأثرها بالأثقال مع اختلاف كثافتها وأثر المتفجرات عليها.

وكان من الطبيعى أن يثير ذلك حب الاستطلاع لدى الدكتور حسنى، ولم يترك الرائد فاروق الأمر للخيال والاستنتاج وأكد أنه سيشرح سر هذه المهمة أن قوات الدفاع الجوى تستخدم سواتر ترابية من هذه الرمال وتريد أن تدرس مدى تأثرها بنيران الطائرات المعادية وبأنواع الطلقات والقنابل والعمليات التخريبية وأكد المتحدث ثقة القوات المسلحة فى الدكتور حسنى ورجاله وقدرتهم على حفظ هذا السر الخطير...

وكان ذلك أقوى دافع لوحدة أبحاث التربة على التحمس لهذا العمل الوطنى الكبير، ولم يتأخر مدير الوحدة لحظة واحدة وانطلق إلى داخل المعامل ليقوم بتوزيع عينات الرمال على الباحثين ويكلف كلا منهم بتحليل العينة وتحديد مكوناتها تمهيدا للوقوف بدقة على مدى تأثرها بالمواد الكيماوية وبالطلقات والمتفجرات المختلفة مع تغيير درجات كثافتها..

ولم يكن الدكتور حسنى - ولا أحد من رجاله - يعرف أن هذه الأتربة هى عينات من الساتر الترابى الذى أقامته إسرائيل على الضفة الشرقية لقناة السويس أمام نقاطها الحصينة فى خط بارليف لتعوق تقدم قوات مصرية تحاول عبور القناة.

وأيضا.. لم يكن أحد منهم يعرف أن هذه العينات قد عادت بها دوريات الاستطلاع المصرية بعد منتصف ليلة الأمس من شرق القناة وأن عينات أخرى مماثلة تم إرسالها إلى المعامل المركزية للقوات المسلحة وإلى معامل الكلية الفنية العسكرية لتتم فيها نفس عمليات تحديد المكونات وتحليلها ودراسة مدى تأثير النيران والمواد الكيماوية عليها.

وكل من شارك فى ذلك كان يتصور أنه يقوم بتحليل عينات الأتربة التى تستخدمها قوات الدفاع الجوى المصرى فى عمل سواتر ترابية.. ولم يخطر ببال أحدهم أنها جاءت من شرق القناة. وربما كان ذلك هو تصور الرائد فاروق أيضا..

لكن هيئته العمليات كانت وحدها تعرف الحقيقة. وهذا ما دارت المناقشات حوله ضمن عشرات النقاط الأخرى التى تضمنها جدول أعمال فرع التخطيط بهيئة العمليات عند اجتماعها فى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة، وحضرها سبعة ضباط هم أعضاء فرع التخطيط بهيئة العمليات ورتبهم بين مقدم وعميد.

.. وقف اللواء الجمسى أمام خريطة قناة السويس وبدأ فى شرح الموقف كما يبدو طبقاً لآخر استطلاع تم منذ ١٢ ساعة. ولم تكن كل هذه المعلومات جديدة ولكنها كانت تتكامل لتجسد صورة الموقف على الجبهة.

إن عبور الموانع المائية كان دائما أشق العمليات العسكرية وأعقدها وأكثرها فداحة فى الخسائر. وهناك جيوش حاولت عبور الموانع المائية قديما وحديثا ففشلت وأصابتها الكوارث والبعض يرى أن الموانع المائية قلت قيمتها بفضل تطور أسلحة القتال وظهور المركبات والدبابات المائية. لكن قناة السويس مانع فريد يختلف عن باقى الأنهار والمسالك المائية الأخرى لعدة أسباب.

- يتراوح عرض القناة ما بين ١٨٠و ٢٢٠ مترا وطولها يصل إلى ١٧٥ كيلو مترا ويتراوح عمقها ما بين ١٦ و١٨ متراً وينخفض سطح المياه عن حافة الشاطئ بحوالى مترين وبذلك لا يمكن عبور القناة بالمعدات التقليدية لا عوما ولا خوضاً ولا سيراً على القاع.

- يحد القناة شاطئ شديد الانحدار مغطى بستائر أسمنتية وحديدية تمنع نزول وصعود المركبات المائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة، وهى صفة تنفرد بها قناة السويس عن مختلف قنوات وأنهار العالم باستثناء قناة واحدة هى قناة بنما.

- تتعرض القناة لظاهرة المد والجزر فيختلف منسوب المياه تبعا لارتفاعها وانخفاضها عدة مرات فى اليوم الواحد ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر حوالى ٦٠ سنتيمترا فى شمال القناة بينما يزيد هذا الفارق كلما

اتجهنا جنوبا حتى يصل إلى المترين قرب مدينة السويس ولمثل هذه الظاهرة أثرها الكبير على تخطيط العبور والأعمال الفنية الخاصة بإقامة المعديات وإنشاء الكبارى.

- هناك عامل مهم له تأثيره على العبور وهو سرعة التيار واتجاهه لأن القناة تتميز بشدة التيار وسرعته التى تبدأ من ١٨ متراً فى الدقيقة بالقطاع الشمالى وتصل إلى ٩٠ متراً فى الدقيقة فى القطاع الجنوبى وفضلا عن ذلك فإن اتجاه التيار يتغير دوريا كل ست ساعات من الشمال إلى الجنوب والعكس.

ويوجد على الضفة الشرقية للقناة ساتر ترابى من ناتج حفرها وتطهيرها يتراوح ارتفاعه من ستة إلى عشرة أمتار. وقد أوحى هذا الساتر الترابى للعدو أن يستغله فى إقامة خط دفاعى محصن على امتداد القناة، فقام بتعليته حتى وصل فى بعض القطاعات إلى ٢٥ مترا ارتفاعا.

وفى جوف هذا الساتر الترابى الكبير أقام العدو عدة نقاط حصينة بذل فى بنائها جهداً ضخما وأموالا وفيرة واستخلص الخبرات المكتسبة من مسارح الحرب المعاصرة فى علوم التحصينات والموانع وفنونها وطبقها على خط بارليف.

وأراد العدو أن يجعل من المانع المائى الفريد الذى تشكله قناة السويس سداً يحول بين جيش مصر وأرض مصر فى سيناء، فلم يكتف برفع الساتر الترابى رأسيا بل قام بإزاحته غربيا حتى لامس حافة القناة تماما بزاوية ميل تزيد على ٤٥ درجة ليضع أمام المقاتل المصرى مزيداً من العقبات وينمى فى وجدانه شعوراً بالعجز واليأس.

وأقام داخل هذا الساتر وفوق قمته وإلى الخلف منه عدة خطوط دفاعية محصنة تشكل فى مجموعها منطقة دفاعية من أقوى المناطق الدفاعية التى عرفها التاريخ.

وقد أطلق اسم «خط بارليف» على الخط الأول منها والذى تكلف انشاؤه ٢٣٨ مليون دولار أى ما يقرب من نصف تكاليف السد العالى.

ويتكون خط بارليف من ٢٢ موقعاً حصينا تضم ٣١ نقطة قوية تبلغ مساحة كل نقطة منها حوالى ٤٠٠٠متر مربع أو أكثر وهى عبارة عن منشأة هندسية معقدة تتكون من عدة طوابق تغوص فى باطن الأرض وتعلو حتى تصل إلى قمة الساتر الترابى.

ويتكون الطابق الواحد من عدة دشم من الأسمنت المسلح المقوى بالقضبان الحديدية وألواح الصلب ويفصل كل طابق عن الآخر طبقة من القضبان الحديدية والخرسانة المسلحة والأتربة والأحجار ويبلغ سمك هذه الطبقة مترين.

وجهزت كل دشمة بعدة فتحات تمكنها من الاشتباك فى جميع الاتجاهات، فضلا عن دشم أخرى مجهزة لأسلحة المدفعية والدبابات. وتتصل جميع هذه التجهيزات ببعضها البعض عن طريق خنادق مواصلات عميقة مبطنة بألواح الصلب وشكائر الرمل . ووفرت هذه التحصينات والأعمال الهندسية المختلفة وقاية للنقاط القوية ضد القنابل الثقيلة حتى ألف رطل أو أكثر.

ولزيادة مناعة النقاط الحصينة أحاطها العدو بنطاقات كثيفة من الأسلاك الشائكة وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد والتى بلغ عمقها حوالى ٢٠٠ متر بالإضافة إلى الشراك الخداعية التى تغطى ميول الساتر الترابى وقمته كما جهز العدو بعض النقاط بخزانات الوقود ومواد النفط وسائل النابالم وتخرج منها مواسير إلى القناة ليتسرب خلالها الوقود طبقاً لنظرية الأوانى المستطرقة فتغطى سطح القناة وعندما تشتعل هذه السوائل تتحول مياه القناة إلى مسطح هائل من اللهب ترتفع ألسنته الحارقة لحوالى المتر وتزيد درجة حرارته على ٥٠٠ درجة مئوية.

وحرص العدو فى اختيار مواقع هذه النقاط الحصينة على أن تغطى الاتجاهات الصالحة لعبور القناة وتعوق تقدم قوات العبور إلى عمق سيناء. وتتبادل كل النقاط الحصينة فيما بينها المعاونة بالنيران لتخلق بالإضافة إلى السد الترابى وحاجز اللهب المشتعل سداً آخر من نيران الأسلحة المتوسطة

والثقيلة خاصة بعد أن جهز العدو عدة مواقع لدباباته فوق الساتر الترابى بفاصل ١٠٠ متر على طول قناة السويس.

واستطرد اللواء الجمسى قائلا :

.. بذلك نرى أن قناة السويس وخط بارليف ليس مجرد مانع حصين فحسب بل هو مانع فريد ليس له مثيل فى العالم وليس هناك خبرة سابقة فى التاريخ العسكرى لعبور مثله. وهذا ما دفع الجنرال ديفيد اليعازر رئيس أركان الجيش الاسرائيلى إلى أن يقول: إن خط بارليف سيكون مقبرة للجيش المصرى.

وانتهى المؤتمر الذى ترك آثاره السلبية على بعض الضباط لكنه لم يقتل روح التحدى داخلهم، وكان لكلمات اللواء الجمسى أثرها فى تخفيف الآثار النفسية عند الرجال عندما قال لهم إنهم جميعا مكلفون بوضع حلول عملية لمواجهة هذه المعضلات التى تجعل من العبور أمرا مستحيلا. وباختصار مطلوب منا الآن أن نجعل عبور قواتنا المسلحة لهذا المانع المائى والاستيلاء على النقاط الحصينة لخط بارليف أمراً ممكنا ومستطاعا بدلا من أن يظل مستحيلا.

وتم تكليف مجموعات الخداع الاستراتيجى بوضع خطط التعمية والخداع بحيث يرسخ لدى العدو استحالة تفكير مصر فى الحل العسكرى، كما أن أجهزة الدولة الأخرى ستقوم بأعمال المساندة المطلوبة بما فى ذلك شركات المقاولات المدنية.

وتم تلخيص المشاكل الأساسية التى تواجه العبور فى خمس نقاط رئيسية:

أولا: طرق دفع القوات إلى الممر المائى ووسائل عبوره رغم وجود هذه المعوقات على ضفتى القناة بما فى ذلك الساتر الترابى الهائل شرق القناة.

ثانيا: وسائل اخماد النيران فوق سطح مياه القناة أو منع تسربها دون أن يشعر العدو بمحاولات تخريبها.

ثالثا: مفاجأة العدو بعبور المجموعات الأولى من القوات وتأمينها ضد نيران العدو بمدفعيته ودباباته ورشاشاته.

رابعا: كيفية ارتقاء الساتر الترابى الذى يبلغ ارتفاعه عشرين متراً.

خامساً: توفير أسباب نجاح قوات العبور المترجلة فى مواجهة دبابات العدو وعرباته المدرعة.

وأخيرا.. وبعد أن نصل إلى حلول ممكنة وحاسمة لهذه المعضلات يصبح أمام سائر الوحدات المقاتلة التدريب عمليا على الدور الذى تكلف به كل وحدة بصورة تبدو طبيعية ودون أن تلفت نظر العدو أو تقلل من فرصة خداعه وتحقيق المفاجأة الكاملة له.

وانتهى المؤتمر.. لكن مئات الرجال انطلقوا فى دراسة هذه المشاكل الهائلة التى تواجه فكرة العبور.. أو فكرة الحرب من أساسها.. وكان شعارهم هو كلمات مدير العمليات التى أنهى بها اجتماعهم.. «لابد أن نجد الحلول.. ولابد أن ننجح.. ولا بديل عن الحرب».

وهذا ما تردد بعد ذلك فى اجتماع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى مبنى القيادة العامة قبل أن ينتقلوا إلى بيت الرئيس أنور السادات فى الجيزة حيث تولى رئاسة المجلس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة..

الفصل الثاني

..فى بيت السادات

المكان: منزل الرئيس أنور السادات المطل على نيل الجيزة بين كوبرى الجلاء وكوبرى الجامعة..

الزمان: الساعة الثامنة والنصف مساء يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ ويوافق إحدى ليالى شهر رمضان وبالتحديد ١٧ رمضان ١٣٩٢هـ.

كانت الأحداث تبدو كأنها زيارة رمضانية أو دعوة إلى سهرة رمضانية فى بيت الرئيس القائد الأعلى للقوات المسلحة وهذا يؤكده حضور المدعوين بملابسهم المدنية وكان بينهم من يضع ملابس ثقيلة تحوطا لتقلبات الليل بعد أن بدأ شتاء القاهرة مبكراً.

لكن الوقائع كانت تختلف كل الاختلاف عما يبدو فى ظاهر الأمر. لقد كان الحاضرون هم أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ورؤساء الأفرع الرئيسية ولم يكونوا مجرد زوار. وكان الرئيس السادات قد أصدر أمراً صباح اليوم نفسه باستدعائهم جميعاً لعقد اجتماع المجلس الأعلى فى بيته.

ضم الاجتماع الفريق أول محمد صادق (وزير الحربية) والفريق سعد الدين الشاذلى «رئيس أركان حرب القوات المسلحة، واللواء طيار محمد حسنى مبارك «قائد القوات الجوية، واللواء بحرى محمود فهمى «قائد القوات البحرية، واللواء محمد عبدالغنى الجمسى «رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وواحد من أبرز ضباط المدرعات، واللواء محمد محرز «مدير إدارة المخابرات الحربية، واللواء سعيد الماحى «قائد سلاح المدفعية، واللواء عبدالمنعم واصل «قائد الجيش الثالث الميدانى، واللواء على عبد الخبير «رئيس هيئة التدريب، واللواء نوال عامر «رئيس هيئة الامداد والتموين، واللواء سعد مأمون «قائد الجيش الثانى الميدانى».

وتولى اللواء الجمسى تسجيل وقائع الاجتماع الذى انعقد فى الصالون الكبير بالطابق الأرضى من منزل الرئيس.

ساد الصمت بين الجميع وكان البعض يستشعر خطورة هذا الاجتماع رغم أنه يأتى بعد سلسلة متكررة من الاجتماعات المتتالية التى عقدها المجلس الأعلى للقوات المسلحة والمؤتمرات الأخرى التى رأسها وزير الحربية وكان آخرها صباح نفس اليوم عندما اتصل الرئيس بوزير الحربية ودعا إلى اجتماع المجلس الأعلى فى بيته.

وربما كان الصامتون يسترجعون ما دار فى الصباح أثناء «مؤتمر الوزير» أو يعدون الكلمات التى سيشاركون بها فى المناقشات وما أوحى به إليهم وزير الحربية صباحا. لقد كانوا مجتمعين مع رئيس الأركان فى الساعة التاسعة صباحاً وهو المؤتمر المعتاد الذى يعقده رئيس الأركان مرة كل شهر. ولحظتها اتصل به الوزير وطلب عقد اجتماع بكل الحاضرين فى الساعة الثانية عشرة ظهرا يحضره جميع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة. وكان الهدف هو الاستماع لرأى القادة فى الموقف العسكرى قبل الاجتماع مع الرئيس السادات فى الثامنة والنصف مساء.

وفى اجتماع الظهر بمكتب وزير الحربية تكلم الجميع. وتحدث كل عضو من أعضاء المجلس الأعلى عن المتاعب والمشكلات التى مازالت تواجهه.

وأنهى وزير الحربية الاجتماع قائلا:

«كل ما أريده هو أن يقوم كل منكم بإعطاء صورة حقيقية عن الموقف - موقف قواته - أمام الرئيس هذا المساء. إن الرئيس يعتقد أننى أبالغ فى ذكر المشكلات ولذلك فإنه يريد أن يسمعها منكم شخصياً».

وهذا ما حدث بالفعل فى اجتماع الجيزة الذى بدأ فى الساعة التاسعة واستمر حتى منتصف الليل وشهد مناقشات ساخنة كادت تصل إلى حد المشادة فى وجود رئيس الجمهورية. ولم يكن أحد يتوقع أن يفقد بعض الحاضرين من كبار القادة منصبه نتيجة ما تكلم به أمام الرئيس.. كما لم يستشعر أحد أن عجلة الحرب بدأ إعدادها للدوران فى هذا الاجتماع عندما أطل الرئيس على الحاضرين من الباب الذى يفصل بين الحجرة وبين البهو الواسع المواجه للمدخل الرئيسى للبيت.

تقدم الرئيس مبتسماً مرحبا وقد بدت عليه ملامح الإصرار. كان يمسك بالعصا فى يده اليسرى وقد ارتدى بذلة من الصوف الرمادى الداكن. واتجه لاستقباله الفريق أول محمد صادق الذى لم يكن يدرى أن هذا هو آخر اجتماع يحضره مع الرئيس وأنه سيفقد منصبه بعد ساعات ليحل محله أحمد إسماعيل وزيراً للحربية.

صافح الرئيس الفريق أول محمد صادق ليمر على باقى الرجال يصافحهم مرددا اسم كل منهم مسبوقاً بعبارة: أهلا يا فلان..

وجلس الرئيس فى صدر الصالون وقد بدأ حديثه عن سهولة الصوم فى أيام الشتاء وكيف أن النهار القصير جعل الإفطار فى الخامسة والربع وهو موعد يقترب من موعد غداء الضباط الذين يعودون إلى بيوتهم بعد الثالثة عصراً.

وكانت أكواب التمر الهندى وقمر الدين تطوف على الجالسين عندما نظر الرئيس إلى سكرتيره الخاص فوزى عبدالحافظ قائلا: خلاص يا فوزى.

وأغلق فوزى الباب وراءه بعد أن انسحب السفرجى دون أن يحمل معه الأكواب الفارغة.

وتحولت الجلسة إلى اجتماع رسمى للمجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية برئاسة رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس محمد أنور السادات. وقام اللواء محمد عبدالغنى الجمسى بكتابة محضر الاجتماع الذى جاء فى بدايته قول الرئيس السادات باسم الله نبدأ جلسة المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

وتحدث الرئيس فى البداية عن الموقف السياسى العام والعلاقات المصرية ـ السوفيتية قائلاً: نحن الآن أمام امتحان صعب.. أن نكون أو لا نكون.. وقالها الرئيس بالإنجليزية To Be Or not to Be لأن الجميع والعدو والصديق لا يثق بأننا سنقاتل ولذلك فإن الحلول التى تعرض علينا كلها من منطلق أننا لن نحارب.

ورحلاتى إلى الاتحاد السوفيتى فى مارس ٧١ وأكتوبر ٧١ كانت بناء على طلبى لكن رحلتى فى أبريل ٧٢ كانت بناء على طلب القيادة السياسية السوفيتية. وقلت لهم فى أبريل إن القضية لن تتحرك سياسيا إلا إذا أمكن تحريكها عسكريا، وأن إعداد الهند للحرب ضد باكستان استغرق منهم ستة أشهر. ويمكنهم أيضا أن يفعلوا الأمر نفسه مع مصر. وعندما حضر المارشال جريشكو فى مايو أرسلت معه كتابا إلى القيادة السياسية السوفيتية وأخبرتهم بصراحة بأننى لا أقبل بقاء أية وحدات سوفيتية فى مصر ليست تحت القيادة المصرية.

وعندما تدخل الرئيس حافظ الأسد لتحسين العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى وسافر سراً إلى هناك وجد السوفيت على استعداد لتحسين العلاقات. ولذلك سافر عزيز صدقى إلى موسكو ودخل معهم فى مناقشات عنيفة أكدوا بعدها أن سياستهم تجاه مصر لم ولن تتغير على الرغم من قرار إنهاء عمل المستشارين الروس فى مصروقد أخطروا عزيز صدقى بأن علاقتهم معنا والتزامهم بإمدادنا بالسلاح لن يتأثر نتيجة الاتفاق الودى الذى عقد بينهم وبين أمريكا.

لكنهم قالوا أيضا لعزيز صدقى لو كنا فى مثل موقفكم لقاتلنا لتحرير أرضنا حتى لو لم يكن لدينا سوى البنادق. ولذلك فأنا أطالبكم بإعداد خطة هجومية وتحديد مواعيد تنفيذها طبقا لما بين أيدينا من إمكانيات وليس حسب ما يفترض وجوده .

وعلق بعض القادة على حديث الرئيس وتكلموا عن الساتر الترابى الذى أعده العدو بارتفاع ٢٠ مترا وجعله متصلا بحافة القناة. وقال اللواء عبدالمنعم واصل إن ذلك يجعلنا نتوقع خسائر كبيرة، كما أنه يتيح للعدو كشف مواقعنا وكل تحركاتنا.

وتجاهل الرئيس هذا التعليق عندما استطرد مؤكدا أن علينا أن نضع الخطة التى تعتمد على ما يتوافر معنا وليس على المفروض توافره.

لقد قال بعضهم إن إزاحة الساتر الترابى وضرب النقاط الحصينة أمام قواتنا عندما تعبر يتطلب قنبلة ذرية.. وإنه بدون القنبلة الذرية ستتحطم موجات العبور وستدفن تحت الساتر الترابى بين مياه القناة ونقاط خط بارليف.

وربما لا يعرف كثيرون أن هذا الكلام تردد بصورة جدية بين الأخ معمر القذافى والرئيس عبد الناصر - الله يرحمه - وكانوا يقولون إن الحل السلمى هو الممكن الوحيد فى غياب القنبلة الذرية العربية.

والرائد عبدالسلام جلود كان قد جاء إلى مصر فى زيارة سرية واجتمع بالرئيس عبدالناصر - الله يرحمه/ وقال له إن ليبيا تنوى شراء قنبلة ذرية وإنه سيذهب للتفاوض على شراء القنبلة من الصين.

ويومها قال عبد الناصر: إن القنابل الذرية ليست أبداً سلعة معروضة للبيع لكن جلود سافر متنكرا إلى الصين عن طريق باكستان وبجواز سفر غير ليبى واجتمع مع شواين لاى وطلب منه قنبلة ذرية تكتيكية صغيرة مع استعداد ليبيا لدفع ثمنها.

وطبعا شواين لاى فوجئ بالطلب.. ورد بطريقة مهذبة بما يفيد أن الدولة التى تريد قنبلة ذرية يجب أن تصنعها بأيدى أبنائها وأن تعتمد فى ذلك على نفسها.

وأنا أقول لكم بصراحة أن المتوافر لدينا الآن من سلاح ومعدات وتجهيزات هى التى سندخل بها المعركة وعليكم جميعا أن تضعوا خطة هجومية لا تعتمد على شىء آخر سوى ما معنا من سلاح.

وأنا طلبت الاجتماع بكم لأستمع إلى المشاكل والمعوقات ونحاول أن نذللها معاً ونضع الأسلوب المناسب لمواجهتها.

وطبعا القرار الذى أصدرته العام الماضى - منذ سنة بالضبط - فى أكتوبر ١٩٧١ لايزال قائما وهو القرار الخاص بأن أتولى عمل القائد العام للقوات المسلحة بنفسى. ولذلك طلبت من الوزير أن نناقش معا المشكلات القائمة وأن أسمع منكم مباشرة.

لكن قبل ذلك أحب أن أضعكم فى الصورة..

إن اجتماع اليوم سيعقبه اجتماعات أخرى مع الخارجية والداخلية والتموين والإعلام وجهاز المخابرات العامة، وسأبحث مع كل جهة قرار الحرب على كل المسارات بالإضافة إلى بحث المسار السورى والمسار العربى والدولى. وسنحدد موقف الجبهة الداخلية والتموين وخطوات حشد الرأى العام الداخلى بالإضافة إلى المساندة العربية والعالمية.

وعلى المسار العسكرى نجحنا فى التحول إلى الهجوم. وقد تابعت معكم المشروع الهجومى منذ بدايته والمطلوب الآن هو أن يكون واضحا للجميع أن خطة الهجوم لابد أن تستكمل بالأسلوب الذى يتناسب ما بين أيديكم.

وكانت هذه الكلمات تشكل نوعا من الصدمة لبعض القيادات العسكرية التى ضمها هذا الاجتماع.

لقد كان حديث السادات يعنى تحديدا دقيقا لأسلوب التحرك الاستراتيجى.. وربما أجهض ذلك معظم ما كان سيخوض فيه المجتمعون حول المشاكل القائمة والصعوبات التى تواجهها القطاعات المختلفة.

وقد تضمن حديث الرئيس رداً على ما كان يتردد حول استحالة ضرب النقاط الحصينة فى خط بارليف وإزالة الساتر الترابى شرق القناة بدون قنبلة ذرية.

لكن رد الفعل كان سلبيا على البعض - خاصة وزير الحربية الفريق أول محمد صادق - ولم تمض ٤٨ ساعة على هذا الاجتماع حتى صدر قرار بإعفاء محمد صادق وتعيين الفريق أحمد إسماعيل على وزيرا للحربية وإعفاء اللواء بحرى محمود على فهمى قائد القوات البحرية وتعيين اللواء فؤاد ذكرى قائدا للبحرية، كما شملت حركة الاستبعاد كل من أبدى عدم اقتناع بكلام الرئيس وبحتمية الحرب وهم الفريق عبد القادر حسن واللواء على عبد الخبير واللواء محمد محرز مدير إدارة المخابرات الحربية وتعيين اللواء فؤاد نصار بدلا منه.

وقد تم القبض على اللواء على عبد الخبير وبعض الضباط ومنهم عناصر بالمخابرات الحربية يشكلون معا تنظيما سريا يسمى «إنقاذ مصر» ويهدف إلى القيام بانقلاب عسكرى والإطاحة بالرئيس السادات. وكانت الخطة تعتمد على مهاجمة مكان الاحتفال بزفاف كريمة سعد الدين الشاذلى - ناهد - الذى سيحضره الرئيس السادات وكبار قادة وضباط القوات المسلحة يوم ٩ نوفمبر ١٩٧٢ واعتقالهم جميعا.

وقد كشفت التحقيقات عن أن المتآمرين كانوا يتحركون من منطلق وطنى لأنهم كانوا يظنون أن هناك قوى معادية تدفع مصر دفعا إلى الحرب دون استعداد بقصد القضاء تماما على القوات المسلحة المصرية وإجهاض كل محاولة لاسترداد سيناء ونشر الفوضى فى البلاد.

ولم يكن الفريق صادق مشاركا فى المؤامرة لكنه كان يعتقد أن الشيوعيين يهدفون إلى دفع مصر للحرب لتعمّ الفوضى ويسيطروا هم على مقدرات الشعب المصرى.

وشاء القدر أن تتكشف أبعاد المؤامرة من خلال ضابط صغير فى المخابرات الحربية علم بوجود اجتماعات سرية يرأسها اللواء على عبد الخبير وأبلغ بها أحد أقاربه لينقلها إلى الرئيس السادات وتم القبض على هؤلاء الضباط وقدموا إلى المحاكمة العسكرية.

وبهذه التعيينات الجديدة.. وباستبعاد المعارضين لفكرة الحرب بواسطة ما يتوافر من سلاح ومعدات .. بدأ الإعداد لدوران عجلة الحرب على مدى عشرة أشهر كانت تجرى خلالها عمليات تمويه وخداع استراتيجى تمهد لحلقات أخرى من الخداع التكتيكى الذى سبق ساعة الصفر بأسابيع قليلة أو بأيام محدودة.. لتكتمل فى النهاية خيوط الخديعة الكبرى التى صنعت المفاجأة فى أكتوبر ١٩٧٣.

وعلى الجانب الآخر من أرض الصراع كان العدو الإسرائيلى ينظر للأمر من زاوية أخرى تؤكد عدم جدية مصر فى الهجوم. ورسخ ذلك فى وجدان القادة العسكريين هناك.

وهذا ما عبر عنه المشاركون فى الندوات واللقاءات التليفزيونية التى بثها تليفزيون إسرائيل وفى أحاديث السياسيين والعسكريين الإسرائيليين وتصريحاتهم للصحف المحلية والأجنبية.

فقبل أسابيع قليلة من اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى بيت الرئيس السادات تم تسريح ٣٠٠٠٠ (ثلاثين ألف) مجند مصرى وإحالتهم إلى الاحتياط. وكان هذا الإجراء يمثل مفاجأة هائلة خاصة أن جميع المجندين الذين شهدوا أحداث يونيه ٦٧ بقوا فى الخدمة لسنوات طويلة إلى أن تم تسريح الثلاثين ألفا فى يولية ١٩٧٢ ..ورأى الإسرائيليون فى ذلك مؤشرا من مؤشرات اليأس عند المصريين دون أن يتنبهوا إلى أن الجنود المسرحين كانوا من غير حملة المؤهلات ومعظمهم من العاملين فى مواقع غير قتالية وليس منهم من يشارك فى الوحدات الضاربة.

كما تلقفت أجهزة تحليل المعلومات فى إسرائيل النكات التى انتشرت فى مصر عن الضباب الذى يحول دون محاربة إسرائيل.

وقصة الضباب بدأت عندما أعلن الرئيس أنور السادات فى عام ١٩٧١ أن هذا العام ـ أى ١٩٧١ ـ هو عام الحسم وأن القضية سيتم حسمها حربا أو سلما قبل بداية عام ١٩٧٢ .. ورغم ذلك مضت شهور العام دون أن تنجح كل المحاولات والمبادرات السياسية وأصبح الناس يتوقعون الحرب قبل نهاية ديسمبر.

وفى بداية ديسمبر ـ وبالتحديد يوم ٣ ديسمبر ١٩٧١ ـ اندلعت الحرب الهندية ـ الباكستانية وكان السوفييت مشغولون بدعم الهند فى مواجهة باكستان التى كانت تحظى بالتأييد الأمريكى.

ومع بداية يناير ٧٢ تحدث الرئيس السادات ليبرر مضى عام الحسم دون حسم، وقال إن «الضباب» حال دون قيام مصر بالهجوم، وإن نشوب الحرب فى شبه القارة الهندية جعل المسرح العالمى غير متقبل للحرب فى الشرق الأوسط، وأن السوفييت توجهوا بكل ثقلهم نحو تأييد الهند.

وروى قصة «الضباب» مع الرئيس جمال عبد الناصر عندما أمر يوما القوات الجوية بضرب قوات العدو المتمركزة شرق القناة لكن الطائرات واجهت ضبابا كثيفا يحجب الرؤية فعادت إلى قواعدها دون أن تقوم بتنفيذ المهمة. وعاد الرئيس عبدالناصر يصدر أوامره بأن تقوم الطائرات بمهمتها بعد ساعة أو ساعتين لكن الضباب لم ينقشع ولم تتمكن الطائرات من تنفيذ المهمة.

وتكرر ذلك للمرة الثالثة عندما حال الضباب أيضا بين الطائرات وبين قذف مواقع العدو شرق القناة مما اضطر الرئيس عبدالناصر إلى إلغاء الأمر قائلا: «ربنا مش عايزنا نقوم بهذه الضربة».

وبعد أن روى الرئيس السادات هذه القصة أعلن أن الضباب حال دون أن يكون العام ٧١ هو عام الحسم ونشوب الحرب بين الهند وباكستان هو أيضا شكل من أشكال الضباب.

وانطلقت النكات حول الضباب وقصته. وكان من بينها نكتة تقول إن الرئيس أنور السادات أصدر أمرا بأن يكون عام ٧٢ هو امتداد للعام ١٩٧١ وأن يسمى ٧١ بشرطة أو عام ١٩٧١ مكرر.

ورغم ذلك كان تراجع السادات يدعم عمليات الخداع والتمويه الاستراتيجى سواء قصد إلى ذلك أو لم يقصد. وكان من المفيد أن يشعر العدو بعدم جدية مصر فى الحرب بشرط ألا ينعكس ذلك على القادة وعلى القائمين بالتخطيط للعبور.

ولعب قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت نفس الدور لكنه كان دوراً مزدوجاً لأنه وضع القيادات العسكرية أمام مسئولياتها كاملة وضاعف من حماس ضباط العمليات، وفى الوقت نفسه أكد الإحساس لدى العدو بعدم جدية مصر فى الاستعداد للعبور.

وبقدر ما كان قرار تسريح ٣٠ ألف مجند فى يولية ١٩٧٢ مرحلة مهمة من مراحل الإعداد بقدر ما ساعد على خداع العدو ورسوخ مشاعر الاطمئنان والترهل فى وجدانه ووجدان قادته العسكريين والسياسيين على السواء.

والواقع أن الاستغناء عن هذا العدد الكبير من المجندين كان جزءا من تطوير خطة التعبئة العامة فى مصر بعد قرار إيقاف نقل الجنود إلى الاحتياط الذى صدر عام ١٩٦٧ والذى كان له تأثيره على معنويات الأفراد بعد أن مضى عليهم فى التجنيد ما يقرب من ست سنوات، كما أنه يشكل عبئاً مالياً كبيراً دون جدوى لوجود معظمهم خارج التشكيلات المقاتلة وفى مواقع خلفية ضمن أعداد كبيرة مخصصة لحماية العمق وحراسة المنشآت الحيوية.

وكان عدد الأفراد فى القوات المسلحة المصرية قد بلغ مع بداية عام ١٩٧٢ ما يقرب من مليون رجل مع انخفاض القدرة القتالية لنسبة كبيرة منهم وعدم توافر معدات وأسلحة تفى باحتياجات القوات العاملة. وكان نظام الاستدعاء يؤدى أحيانا إلى وجود قوات احتياط مستدعاة يكلف أفرادها بأعمال غير مؤهلين لها وغير مدربين عليها.

وبقدر ما أفادت خطة تطوير التعبئة بقدر ما ساعدت على خداع العدو الذى استراح إلى قرارات تسريح الجنود المصريين ونقلهم إلى الاحتياط.

وفى الوقت نفسه كانت أجهزة التعبئة قد أدخلت نظام الاستدعاء بواسطة الكمبيوتر واستفادت من نظم الاستدعاء المطبقة فى كل من السويد وسويسرا وإسرائيل وهى نظم متطورة للغاية وتعتمد على أجهزة الكمبيوتر.

وشهدت الشهور الأولى من عام ١٩٧٣م الكثير من القرارات والتحركات التى ساهمت فى الخداع الاستراتيجى للعدو ومهدت لعمليات الخداع التكتيكى بعد ذلك.

لقد كان من المعروف أن هناك نقصا فى عدد الطيارين. وبدأت الطلعات التدريبية للطيران تركز على العمل فوق الخطوط المصرية غرب القناة والتظاهر بالاتجاه نحو الدفاع عن المناطق الحيوية وإطالة خطوط طيران العدو من قواعده على قدر الإمكان.

وبدأت مصر فى إقامة مطارات جديدة لم يكن من المقرر لها أن تنتهى قبل عام أو عامين مما يؤكد عدم استعداد المصريين للحرب.

ومن أمثلة ذلك البدء فى إنشاء مطارات فى بطن جبال البحر الأحمر بمعاونة خبراء فى إقامة الأنفاق الجبلية وبدأ بناء مطار النفق الجبلى فى مايو ٧٣ وكان القادة الذين يتجهون لزيارة الجبهة يزورون هذا المشروع مؤكدين على أهمية المطارات الجديدة فى الخطة الهجومية.

وبالطبع بدأت معركة العبور وانتهت قبل أن ينتهى مطار النفق الجبلى. وكانت التحركات المتكررة للوحدات المختلفة تشكل أيضا لغزا للعدو الذى لم يفهم الدافع وراء معظم تلك التحركات. لقد كان سلاح المهندسين يدفع فى النهار بمعدات العبور وبعض الجسور والكبارى فى اتجاه قناة السويس عند مواقع الجيشين الثانى والثالث الميدانيين ثم يعيد سحبها ليلا. وكثيرا ما تحركت كتائب وألوية بالكامل شمالا وجنوبا ومن الغرب إلى الشرق وبالعكس دون أن يكون لذلك سبب مفهوم.

ووقع العدو فى الفخ وظن لعدة مرات أن هناك استعدادات حقيقية للعبور. وأعلن حالة الطوارئ أكثر من مرة ليكتشف أنه تحمل الكثير من الأعباء الإدارية والمالية والعسكرية دون جدوى.

وبدأ يرسخ فى وجدان القيادة المعادية أن هذه التحركات مجرد لعبة مصرية من ألعاب الاستنزاف استنادا إلى اعتماد القوات الإسرائيلية الضاربة على نسبة عالية من أفراد الاحتياط وأن استدعاء الاحتياط يمثل عبئاً مزدوجا على القيادات العسكرية فى إسرائيل وعلى القطاعات المدنية التى يقوم عليها أفراد الاحتياط.

وساعد ذلك على تبرير التحركات العسكرية المصرية قبل أيام من معركة العبور وساهم فى إساءة تفسيرها من قبل القادة الإسرائيليين. لكن الواقع أن هذه التحركات المصرية التى ظلت غامضة فى نظر العدو كانت تمثل حلقة فى سلسلة المشروعات التدريبية للوحدات المختلفة والتى توجتها مناورات خريف ٧٣ التى عرفت بأنها مشروع تدريبى تعبوى والتى أصبحت ظهر يوم السادس من أكتوبر خطة الهجوم «بدر» التى عبر بها أكثر من ٤٠ ألف رجل قناة السويس فى أقل من ست ساعات.

ولعب جواسيس إسرائيل فى مصر دورا مكملاً فى خطة الخداع الاستراتيجى. وكانت جميع التقارير والمعلومات التى ينقلها جواسيس إسرائيل إلى قادة الموساد فى تل أبيب تؤكد عدم قدرة مصر على القيام بأى عمل هجومى.

وأوضح مثال لذلك الجاسوسة الأمريكية فى القاهرة التى كانت ترأس شبكة محدودة للتجسس على الخبراء السوفييت فى مصر. وتكشف أمر هذه الجاسوسة قبل عام كامل من الحرب.

والجاسوسة الأمريكية اسمها «سو آن هاريس» وكانت تعمل فى قسم رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة حيث كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع

الولايات المتحدة. وكان يعمل مع «الآنسة سوآن» شاب مصرى من أصل يونانى اسمه «طناشى راندو بولو» حرص على إقامة علاقات صداقة قوية كثيرة مع بعض الخبراء السوفيت. واستطاع طناشى أن يجمع معلومات كثيرة من صديق له من الخبراء السوفييت اسمه «بيليكوف» ظل يعمل فى القاعدة الجوية المصرية لمدة عامين وكان على اتصال دائم بالجاسوس طناشى. وعندما عاد «بيليكوف» إلى بلاده قدم إلى طناش خلفه «فيكتور» ومساعده «يورى» واستطاع الجاسوس طناشى أن يدخل إلى القاعدة بواسطتهما ويتجول داخلها وينقل المعلومات إلى الآنسة «سو» فى مبنى القنصلية بالقاهرة.

ومن أهم المعلومات التى قدمها طناشى إلى الجاسوسة الأمريكية أن الطائرات المصرية داخل مخازن خرسانية لوقايتها من الهجمات المعادية وأن الفكر الدفاعى يسيطر على العاملين بالقوات الجوية المصرية. وقللت تقارير طناشى كثيرا من قيمة أجهزة الرادار المصرية ونقل إلى الجاسوسة الأمريكية تأكيدات الخبراء السوفييت عن وجود أجهزة رادار فى روسيا تتفوق كثيرا على الأجهزة التى حصلت عليها مصر.

وأهم فقرة فى آخر تقرير قدمه الجاسوس عن مصر قبل القبض عليه تقول:

«إن المصريين غير مستعدين وغير قادرين وغير جاهزين للحرب وقد يمر وقت طويل جدا قبل أن يصبحوا قادرين على استئناف القتال من جديد». ونقل الجاسوس هذه التأكيدات أكثر من مرة على لسان أصدقائه من الخبراء السوفييت العاملين فى مصر.

وتم القبض على طناشى وعلى الجاسوسة الأمريكية - سو آن هاريس - وأكدت التحقيقات أن هذه المعلومات كانت تنقل إلى الولايات المتحدة أولا بأول وأنه من المؤكد أنها كانت تجد طريقها إلى تل أبيب فى إطار اتفاقيات التعاون فى مجال المعلومات.

وتم استدعاء الجنرال أوكينيف - كبير المستشارين الروس فى مصر - وإبلاغه بالأمر وبتعليمات الرئيس أنور السادات بعدم إثارة الموضوع بصورة علنية وترك الأمر للسوفييت ليعالجوه بطريقتهم والتصرف مع الأفراد الذين قاموا بتسريب هذه المعلومات مع اتخاذ الإجراءات المناسبة التى تضمن عدم تكرار مثل هذا الحادث.

وقبل أن يمضى أسبوع واحد على القبض على الجاسوسة الأمريكية وعميلها طناشى أصدر الرئيس أنور السادات أمراً بالإفراج عنها وترحيلها إلى بلادها.

وكانت كلمة «كتر خيرها» هى أبلغ ما يعبر عن دورها الذى لم تتعمده والذى ساهم فى الخداع الاستراتيجى للعدو.

الفصل الثالث

الأعياد اليهودية

لم يقدر أحد من أفراد الدورية قيمة هذا الإسرائيلى الشاب الذى عادت به دوريتهم من مغامرتها الليلية لخطف أسير من شرق القناة. لقد اكتشفوا عند استجوابه أنه مهندس فنى يعمل فى صيانة خزانات الإشعال الموجودة داخل النقاط الحصينة لخط بارليف، وأنه يأتى ضمن مجموعة الصيانة الدورية لهذه الخزانات وخراطيمها الممتدة إلى مياه القناة وأجهزة الإشعال المتصلة بها.

وكانت القوات الخاصة تقوم بالتسلل إلى شرق القناة فى دوريات للاستطلاع تتحول أحيانا إلى دورية خطف أسير تعود به إلى الضفة الغربية للقناة لاستجوابه وإرساله إلى القاهرة لاستكمال عمليات الاستجواب. وكانت هذه الأعمال تتكرر حتى أنها كادت تصبح عملا روتينيا.

ولا توجد حتى الآن معلومات محددة عن إطار التعاون بين العملاء فى سيناء المحتلة وبين عناصر الاستطلاع - وربما لن تتوافر هذه المعلومات أبداً - لكن المؤكد أن عمليات خطف الأسرى تكررت وحققت نتائج طيبة.. ومنها ما كان عندما اكتشف ضابط الاستطلاع المصرى أن الأسير القادم من الشرق

يعمل فى صيانة خزانات البترول المتصلة بالضفة الشرقية لقناة السويس. واستطاع هذا الشاب الإسرائيلى أن يرسم بدقة شكل الخزانات التى يعمل فى صيانتها وأن يحدد أماكنها والعمق الذى تختفى داخله ومكان وطول الأنابيب التى تنقل محتويات الخزان إلى مياه القناة وكيف أنها ستطفو فوق السطح وكيف يتم إشعالها ليتحول سطح القناة إلى حرائق متأججة فى مواجهة من يعبرها.

وتم وضع هذه الرسومات والبيانات تحت تصرف سلاح المهندسين مع التقارير التى أعدتها الضفادع البشرية بعد عدة عمليات استطلاع من تحت سطح الماء لهذه الخزانات وفتحاتها المتصلة بمياه القناة.

وأثبتت عمليات المقارنة والمضاهاة صدق الشاب الإسرائيلى الذى بقى معتقلا فى القاهرة ليكون تحت تصرف المهندسين إذا أرادوا مناقشته فى أى تفاصيل فنية.

وكان المطلوب هو وضع خطة تبطل فاعلية هذه الخزانات وتمنع إشعال النيران فوق مياه القناة على أن تكون هذه الخطة بسيطة على قدر الإمكان وسهلة التنفيذ ويمكن لعدد قليل من الأفراد القيام بها دون أن يشعر بهم العدو إلى أن يفاجأ بقوات العبور فوق قناة السويس وخزانات نيرانه معطلة عن العمل. وعندما يتم إعداد هذه الخطة سيكون من السهل تدريب بعض عناصر الضفادع البشرية والصاعقة على تنفيذها فى توقيت مناسب قبل بدء العمليات حتى لا يكتشف العدو الأمر ويعيد إصلاح تجهيزاته ويتنبه إلى الخطة المصرية.

ولم يكن ذلك وحده ما يشغل خبراء سلاح المهندسين فى تلك الليلة وإنما كانت هناك مجموعات أخرى تعمل على نماذج المعابر العائمة والكبارى وقياس الزمن الذى تستغرقه كل مرحلة من مراحل إعداد الكوبرى ونصب المعابر إلى أقرب دقيقة.

وتلقت مجموعة أخرى نتائج تحليل الرمال التى يتكون منها السد الترابى شرق القناة بعد أن انتهت عمليات تحديد مكونات هذه الأتربة وأنسب أنواع الطلقات التى يمكن لها أن تخترق السد الترابى.

وتماثلت نتائج تحليل عينات أخرى تم احضارها من جزيرة البلاح من نواتج أعمال تعميق وتطهير قناة السويس. وثبت أن مكونات نواتج التطهير الموجودة فى جزيرة البلاح مماثلة لمكونات الساتر الترابى الذى أقامته إسرائيل أمام مواقعها الحصينة شرق القناة. وتم فتح ملف التجريف الذى سبق إعداده.

وكانت بيانات الملف مصدر سعادة بالغة لمجموعة العمل التى تعد خطة التعامل مع هذا الساتر الترابى. ومصدر هذه السعادة يرجع إلى وجود نواتج التطهير بين أيدينا حيث أن جزيرة البلاح تحت السيطرة الكاملة للقوات المصرية. لكن الأهم من ذلك بكثير أن هناك تجارب سابقة على التعامل مع هذه الأتربة قد تمت بنجاح فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر وأثبتت إمكانية التغلب على هذا الساتر الترابى بسرعة وفاعلية، بشرط تماثل مكونات السد الترابى مع مكونات نواتج تطهير القناة الموجودة فى البلاح. وترجع أحداث هذه الخطة إلى عامين سابقين عندما كانت هيئة قيادة الفرقة ١٩ مشاة تناقش دورها فى خطة الإعداد للعبور وكيفية نقل فرقة مشاة - بكامل معداتها ومركباتها - إلى شرق القناة. وكان ضمن المجتمعين ضابط برتبة مقدم اسمه «عبدالباقى» وكان يشغل منصب قائد فرع المركبات بالفرقة ١٩ مشاة.

وكان المقدم عبد الباقى قد انتدب من قبل للعمل فى السد العالى وشهد هناك عملية تجريف رمال الجبال باستخدام المياه المضغوطة. وشرح ما رآه فى السد العالى عام ١٩٦٤ - أى منذ ٨ سنوات - عندما كان يتم التجريف بواسطة مضخات رفع مياه النيل ودفعها بقوة فى خراطيم يتم تسليطها على رمال الجبال التى يسهل بعد ذلك شفطها.

وكان الأمر بالنسبة للسد الترابى شرق القناة يبدو أسهل كثيرا مما كان فى السد العالى لأننا لن نحتاج إلى إعادة شفط الرمال وإنما ستنساب تلقائيا إلى القناة مع المياه المنطلقة من الخراطيم، لتنفتح الثغرات وتعبر منها المركبات والمدرعات إلى سيناء.

وربما ساعدنا العدو كثيرا فى هذا المجال عندما قام باستكمال السد الترابى وجعله ملاصقاً لحافة القناةالشرقية بهدف مضاعفة صعوبة تسلقه. لكنه لم يكن يدرى أن ذلك سيساعد كثيرا على انسياب نواتج التجريف... إلى قاع القناة، خاصة مع زاويا الميل للجانب الغربى من الساتر الترابى.

وظلت المعضلة القائمة هى كيفية توفير مضخات دفع مياه بهذه القوة أمام مواقع معادية وفى وقت قصير كل دقيقة منه لها ثمن باهظ. والأهم من ذلك مصدر الطاقة التى ستدير هذه المضخات القوية.

ولم يكن مطلوبا من المقدم عبد الباقى ولا ممن شاركوا معه يومها فى هذا الاجتماع حل هذه المعضلة. وقبل البحث عن حلول لهذه المسألة فكر قائد الفرقة فى إجراء تجربة على نواتج تطهير القناة المتراكمة فى جزيرة البلاح. وتم توفير طلمبات ضغط عال تعمل بالطاقة الكهربائية وتحميلها على براطيم عائمة لتشفط المياه من القناة وتدفعها فى خراطيم ذات مخارج معدنية متينة. وحققت التجربة نجاحا كبيرا وانسابت الرمال مختلطة بالمياه إلى قاع القناة.

وأرسل اللواء سعد زغلول قائد الفرقة ١٩ مشاة - فى ذلك الوقت - بنتائج تجاربه إلى القيادة العامة وأبلغ بها وزير الحربية. وتم يومها نقل التفاصيل إلى الرئيس جمال عبدالناصر الذى طلب مواصلة التجارب وتحديد المعدات المطلوبة ووضع تقييم تفصيلى للنتائج.

ومضت الشهور وعندما حان موعد وضع خطط العبور موضع التنفيذ تم فتح ملف التجريف من جديد على ضوء نتائج تحليل مكونات رمال السد الترابى الذى أقامه العدو شرق القناة ومقارنتها بنتائج تحليل مكونات رمال نواتج الحفر والتطهير الموجودة فى جزيرة البلاح.

وقبل أن يعقد الرئيس السادات اجتماع المجلس الأعلى فى بيته كانت تجربة أخرى قد تمت فى جزيرة البلاح بهدف تحديد المعدات المطلوبة ووضع خطة تدريب الأفراد على تجريف رمال الساتر الترابى باستخدام مياه القناة.

وبدأ ملف التجريف يكتمل بتقرير سبق أن أعدته وزارة السد العالى عن أسلوب التجريف الذى اتبعوه فى أسوان مدعما بالصور. واستطاع سلاح المهندسين أن يضع مواصفات مدافع المياه التى سيستخدمها الجنود يوم العبور بحيث تكون أصغر كثيرا من المعدات التى استخدموها فى السد العالى وأن تعمل بالوقود حيث لن تتوافر الكهرباء مثلما توافرت فى مواقع العمل بالسد العالى. وبدراسة قدرة البراطيم العائمة على حمل الطلمبات الميكانيكية التى تعمل بالوقود، وقوة المياه المندفعة، ثبت نجاح الفكرة وأصبح هناك مدفع مياه يستطيع فتح الثغرة الواحدة فى الساتر الترابى فى زمن قياسى يفوق كل الوسائل التقليدية الأخرى ومنها القصف والتفجير.

وانتقلت عمليات التدريب إلى مواقع أخرى مختلفة كان من بينها نماذج معدة للتدريب على شواطئ بحيرة قارون بالقرب من الفيوم، وفى جزر ترابية وسط نهر النيل.

وانطلقت خطط التدريب على جميع مراحل العبور لتوضع موضع التنفيذ على مستوى الفرق والألوية والكتائب.

وبدأت فى الوقت نفسه مجموعات الخداع فى وضع خطط الخداع التكتيكى لتكمل الخداع الاستراتيجى الذى كان قد بدأ يأتى بنتائج مشجعة. وبدأت مجموعة العمليات بقيادةاللواء محمد عبد الغنى الجمسى فى دراسة المواعيد وأنسب الأيام والساعات للمعركة بالتنسيق الكامل مع القيادة السورية.

وبدأت رحلة تحديد الأيام المناسبة فى مكتب رئيس هيئة العمليات عندما وقف أمامه العقيد صلاح فهمى ضابط التخطيط بهذه العمليات ليعرض عليه التقرير اليومى وملخص ما تبثه إذاعات العالم عن الموقف الدولى وكل ما يتعلق بمصر وبإسرائيل.

ونظر إليه اللواء الجمسى طويلا.. واستمرت لحظات الصمت حتى قطعها اللواء الجمسى قائلا: «يا صلاح .. هناك كتيب أعدته المخابرات العامة وطبعته

بعنوان «الأعياد والمناسبات اليهودية فى إسرائيل»، هات الكتاب ده وادرسه جيداً..

وكانت هناك أكثر من نسخة فى مكتبة هيئة العمليات. ولم يكن من الصعب على العقيد صلاح أن يستنتج أن الهدف هو البحث عن يوم مناسب للعبور.

لقد أصبح اقتراح اليوم المحدد للحرب مسئولية سبعة من الضباط المصريين يشكلون فرع التخطيط بهيئة العمليات وتنحصر اتصالاتهم داخل دائرة مغلقة تماما عليهم وعلى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، و تنحصر رتب معظمهم بين عقيد ومقدم ويرأسهم عميد يخضع مباشرة لرئاسة اللواء الجمسى. وهؤلاء الضباط السبعة يتمتعون بهدوء الأعصاب والقدرة على التركيز العميق وتحليل المعلومات والرؤية المستقبلية الواضحة والتعاون الكامل والفكر المشترك الذى يحقق التفاهم الكامل للعمل بروح الفريق.

لقد صدر التوجيه السياسى من رئيس الجمهورية إلى وزير الحربية ببدء الحرب فى اليوم المناسب اعتبارا من النصف الثانى من هذا العام ١٩٧٣ .. والأيام تمر سريعا والعمل لا يتوقف فى كل أفرع القوات المسلحة ودخلت مجموعة العمل التى تضمَّ أعضاء فرع التخطيط بهيئة العمليات فى سباق مع الأيام . ووصلت الآن إلى مرحلة البحث عن اليوم المناسب فى الجبهتين المصرية والسورية.. والبحث المنطقى يقتضى تحديد أنسب الشهور ثم أنسب الأيام فى الشهر الذى يقع الاختيار عليه.

وفى مجال الإعداد القتالى والتسليحى كانت الخطة قد اكتملت بتعلية السد الترابى على الضفة الغربية للقناة ليحجب جزئيا قدرة العدو على متابعة ما يجرى على الجبهة المصرية.

وتصور العدو أن هذا الساتر معد لصعود الدبابات عليه وإطلاق قذائفها من فوقه ثم الاحتماء خلفه. ولم يكن ذلك يشكل تعمية كافية لاستطلاعات العدو الذى اعتمد على التصوير الجوى بواسطة طائرات الاستطلاع. وهذا أدى إلى

متابعة العدو لكل مراحل بناء حائط الصواريخ الدفاعي غرب القناة والذى يتحمل المسئولية الرئيسية فى التصدى لغارات العدو الجوية. وساعد ذلك على اطمئنان العدو إلى عدم قدرة القوات المصرية على العبور لأن حائط الصواريخ لا يوفر غطاء فى عمق سيناء وإنما تقتصر قدراته على الجوانب الدفاعية بصورة أساسية.

ولم يعمل العدو حساباً للصواريخ المضادة للطائرات - أرض جو - المحمولة بواسطة الأفراد والتى تمثل امتداداً حقيقياً لحائط الصواريخ المصرى الذى انتقل إلى سيناء فوق أكتاف الجنود فى شكل الصواريخ «سام».

وكانت مفاجأة العدو لا تقل عن المفاجآت الأخرى التى تحققت بواسطة الصواريخ المحملة المضادة للدبابات - أرض أرض - والتى كانت ضمن خطة الخداع التعبوى.

وكانت سائر المؤشرات تؤكد سوء العلاقات المصرية - السوفيتية خاصة فى مجال التسليح.. ولم يعرف أحد شيئا عن الزيارة السرية التى قام بها الرئيس السورى حافظ الأسد إلى موسكو بهدف تحسين هذه العلاقات دون أن ينعكس ذلك على ما ينشر أو يذاع.

وبعد نجاح رحلة حافظ الأسد السرية إلى موسكو توالى سفر عدد من كبار القادة العسكريين المصريين - ومنهم وزير الحربية نفسة - وأسفر ذلك عن عقد صفقتى سلاح وقطع غيار لم يعرف عنها العالم شيئا، وكانت تفاصيل هذه الأسلحة سراً لكن الأهم أن مواعيد تسليمها كانت جميعها قبل أكتوبر ١٩٧٣.

وهذا كان من بين العوامل التى تم الاستناد إليها عند تحديد موعد العبور المقترح. وكانت هناك دفعة قوية إضافية فى صفقة أسلحة ثالثة أطلق عليها القادة اسم « صفقة مارس» والتى جاء موعد تسليمها ليسبق الحرب بفترة قصيرة. وترجع أهمية «صفقة مارس» إلى أنها كانت إضافية للتسليح الذى تعتمد عليه خطة العبور.

والسبب فى تسمية «صفقة مارس» يرجع إلى أنها تمت فى موسكو فى شهر مارس ٧٣ ووقعها هناك وزير الحربية الفريق أحمد إسماعيل وسبقتها زيارة مهمة قام بها سراً إلى القاهرة وفد عسكرى سوفيتى برئاسة الجنرال لاشنكوف واستمرت من ٥ إلى ١٢ فبراير١٩٧٣ وتم خلالها التوصل إلى اتفاق بشأن الصفقة الإضافية التى وقعها إسماعيل فى موسكو. وتم تدريب الطيارين المصريين على العمل عليها فى الاتحاد السوفيتى خلال شهرى مايو ويونية ١٩٧٣. كما شملت الصفقة الإضافية ما أشار إليه الرئيس السادات فى بعض خطبه قائلا: إننى قبل أن أحارب لابد أن أضع «الإلكترون» فى يد أبنائى. وكان ذلك مثاراً للنكات التى لابد أنها تسربت إلى مخابرات العدو دون أن يدرى أحد أن المقصود بوضع الإلكترون فى يد الجنود هو الأخذ بفنون الحرب الالكترونية التى لم تكن معروفة للعامة من الناس فى ذلك الوقت، والتى انعكست على مسرح العمليات فى صورة سرب للاستطلاع والإعاقة الإلكترونية لم يعمل العدو حساباً له.

واكتملت أمام القيادة العامة للقوات المسلحة صورة القوات المصرية الجاهزة للعمل والتى يمكن بها شن حرب هجومية مفاجئة وواسعة بطول جبهة قناة السويس مع توفير قوات الاحتياط والدفاع عن العمق الاستراتيجى.

وكانت هذه القوات تمثل حشداً كافيا لتحقيق خطة العبور طبقاً للاحتياجات رغم أن فلسفة الإعداد للعبور استندت فى بدايتها إلى حتمية الحرب بما يتوافر من إمكانيات وليس بما يجب أن يكون. وهكذا التقى التوجيه السياسى للقائد الأعلى بحتمية الحرب مع الإعداد العسكرى للمعركة. وباستكمال الإعداد بدأت مرحلة اختيار التوقيت وتحديد اليوم (ى) ولحظة البدء (س) مع تنفيذ خطط الخداع التكتيكى المكملة للخداع التعبوى وما سبقها من خداع استراتيجى.

وبينما كان العقيد صلاح يعكف على دراسة كتيب «الأعياد والمناسبات اليهودية فى إسرائيل» كانت هناك دراسات أخرى أمام الضباط السبعة فى فرع التخطيط بهيئة العمليات وصورة أخرى أمام اللواء الجمسى رئيس الهيئة.

كان الهدف من تلك الدراسات البحث عن أفضل شهور السنة لاقتحام القناة من حيث حالة المد والجزر وسرعة التيار البحرى واتجاهه. ولم يكن فى ذلك متغيرات كثيرة تختلف من شهر إلى آخر فى مدى تأثيرها على وسائل العبور بالقوارب وعلى إقامة وتشغيل المعديات والكبارى. ان الفرق فى المنسوب بين أعلى مدّ وأعلى جذر هو ٨٠ سنتيمترا فى القطاع الشمالى للقناة يصل إلى مترين فى القطاع الجنوبى من الإسماعيلية حتى السويس. وسرعة التيار فى القطاع الشمالى ١٨ متراً فى الدقيقة تقفز إلى ٩٠ متراً فى الدقيقة بالقطاع الجنوبى. واتجاه التيار يتغير دورياً كل ست ساعات من الشمال للجنوب وبالعكس.

وكانت هذه الظواهر الطبيعية تؤثر على وسائل العبور بالقوارب وعلى إنشاء وتشغيل المعديات والكبارى، وهو ما كان فى الاعتبار عند وضع الخطط القتالية للجيشين الثانى والثالث. أما عن التوقيت فقد كان العامل الأهم هو اختيار يوم يتميز بطول ليله ويكون فى شهر من الشهور التى لا تتعرض لتقلبات جوية شديدة تؤثر على تحرك القوات.

ولاكتمال عنصر المفاجأة امتدت الدراسة إلى البحث فى العطلات الرسمية فى إسرائيل بخلاف يوم العطلة الأسبوعية وهو السبت.

وبدأ شهر أكتوبر ٧٣ يبرز من وسط كل الاحتمالات التى تجرى دراستها. أنه فى الثلث الثالث من العام وهو داخل الإطار الزمنى الذى حدده الرئيس السادات للعبور. وهو من الشهور التى تجرى فيها مناورات الخريف المعتادة مما يجعل التحركات العسكرية تتم تحت ستار المناورات والمشروعات التدريبيه.

وفى هذا الشهر - أكتوبر ٧٣ - يوجد ثمانية أعياد يحتفل بها الإسرائيليون ومنها عيد الغفران - المعروف باسم يوم كيبور - وعيد المظلات وعيد التوراة. وتطرقت الدراسة إلى طريقة الاحتفال بكل عيد من هذه الأعياد ومدى تأثيره على إجراءات التعبئة فى إسرائيل.

وفى عيد الغفران - يوم كيبور - وهو يوم السبت - ستتوقف الإذاعة والتليفزيون فى إسرائيل عن العمل وهو يوم صيام وسكون كامل. وهذا يعنى استحالة استخدام الإذاعة والتليفزيون فى استدعاء قوات الاحتياط وحتى إذا تم تشغيلها فإن أحداً لن يستمع إليها لأن الناس تعرف أن الإذاعة والتليفزيون لا تبث شيئاً فى هذا اليوم وستضطر القيادة الإسرائيلية إلى استخدام وسائل أخرى تستغرق وقتاً طويلاً حتى يتم تعبئة الاحتياط.

وهذا الوقت الطويل هو المطلوب بالنسبة لقوات العبور.

وفى هذا اليوم سيكون ضوء القمر ظاهراً فى النصف الأول من الليل لأنه يوم العاشر من الشهر القمرى كما أن النصف الثانى من الليل سيكون مظلماً. وهذا يناسب تماماً خطة العبور بحيث تنتهى وحدات المهندسين من إنشاء وتركيب الكبارى فى ضوء القمر ليستمر تدفق العبور بالأفراد والأسلحة والمعدات تحت جنح الظلام. وسيصادف يوم السادس من أكتوبر اليوم العاشر من شهر رمضان وهو شهر الصيام فى مصر مما يساعد على خداع العدو ويتيح الفرصة لتمثيل وافتعال احتفالات مع إبراز الإنشغال بها والتكاسل والاسترخاء.

وسينشغل الرأى العام فى إسرائيل كثيرا مع بداية شهر أكتوبر بالحملات الانتخابية التى ستكون على أشدها استعداداً ليوم التصويت فى الانتخابات البرلمانية للكنيسيت والمحدد لها ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ م.

وبالنسبة للجبهة السورية كان هذا اليوم مناسباً ولا يجوز تأخيره عن بدايات أكتوبر حتى نتجنب موسم البرد الشديد وبدء تساقط الجليد.

واكتملت العناصر الملائمة فى يوم السبت السادس من أكتوبر الذى تسبقه أعياد إسرائيلية ويصادف عيد كيبور وتتوقف فيه الحياة فى إسرائيل وحالة الطقس تناسب الجبهتين المصرية والسورية ويصادف شهر الصيام الذى تستبعد فيه إسرائيل عمليات عسكرية خلاله.

وسيكون فرق المنسوب بين المد والجزر فى القناة أقل ما يمكن مما يتيح أنسب الظروف لعبور القوارب وتشغيل المعديات وعمليات بناء الكبارى.

وانطلاقاً من ذلك بدأ التنسيق مع القيادة السورية. وتقرر عقد اجتماع مشترك لأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى كل من مصر وسوريا للاتفاق على جداول العمليات وتوقيتها والتنسيق الكامل بين الجبهتين مع التحديد النهائى لليوم (ى) وساعة الصفر (س).

وجرت الاتصالات بين القاهرة ودمشق لتحديد مكان وموعد الاجتماع ووسائل تأمينه والحفاظ على عناصر السرية التامة التى يجب أن تحاط بتحركات أعضائه

واتفقوا على أن يكون مكان الاجتماع فى الإسكندرية وأن يحضر أعضاء المجلس العسكرى السورى إلى هناك متنكرين فى هيئة سائحين وبأسماء منتحلة وبأوراق غير حقيقية.

وتحقق ذلك داخل سفينة ركاب سوفيتية رست بجوار رصيف خاص بميناء الإسكندرية وعلى سطحها ٦ سائحين فى ملابس خفيفة ذات ألوان زاهية تناسب جو صيف الإسكندرية الحار المفعم برطوبة أغسطس.

وكان فى انتظارهم رجل رشيق يبدو فى سن الشباب ويرتدى ملابس شبابية ويبدو بها وكأنه مندوب شركة سياحية جاء ليستقبل مجموعة من السائحين لكن أحدا لم يكن يتصور أنه فى الحقيقة رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية - الفريق سعد الدين الشاذلى.

الفصل الرابع
العد التنازلى

بعيداً عن العيون كان الاعداد للمراحل النهائية من الخطة الهجومية يجرى بسرعة وبكثافة كبيرة.

وقبل أن تكتمل الساعة الثانية من بعد الظهر يوم الثلاثاء ٢١ أغسطس ١٩٧٣ كانت سفينة ركاب صغيرة ترفع العلم السوفيتى ترسو على رصيف خاص فى ميناء الإسكندرية. ورغم أن السفينة كانت سوفيتية الصنع وترفع العلم السوفيتى لكن أحداً فى الاتحاد السوفيتى أو فى غيره لم يكن يعرف أن على سطحها ستة ضباط عظام ينتمون الى القوات المسلحة السورية وأن رحلتهم الى الإسكندرية يتوقف عليها مصير الحرب فى الشرق الأوسط.

كل شىء كان يبدو طبيعياً. وليس هناك فى هذه السفينة ما يثير الانتباه أو يلفت الأنظار. لقد كان من الطبيعى أن يزور مصر سائحون سوفييت ولم يكن لغيرهم من أوربا أو من غيرها أن يأتوا الى الإسكندرية للسياحة فوق باخرة سوفيتية، بعد أن انكمشت الحركة السياحية إلى مصر من كل دول العالم ما عدا الكتلة الشرقية وسائحيها المتواضعين. وكل من على سطح هذه السفينة كان

يرتدى ملابس مدنية خفيفة تناسب حر أغسطس وكان منهم من يضع قبعات أو كاسكيتات للوقاية من الشمس.

ولم يكن هؤلاء السائحون سوى أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية يتقدمهم اللواء مصطفى طلاس «وزير الدفاع» واللواء يوسف شكور «رئيس أركان حرب القوات المسلحة السورية» واللواء ناجى جميل «قائد القوات الجوية والدفاع الجوى» واللواء حكمت الشهابى «مدير المخابرات الحربية» واللواء عبد الرزاق الدرديرى «رئيس هيئة العمليات» والعميد فضل حسين «قائد القوات البحرية».

ودون أية اجراءات أو مراسم تلفت الأنظار وجد الضيوف الستة طريقهم إلى نادى الضباط بالإسكندرية حيث أعد مقر اقامتهم. وتأكد لكل من يعمل فى نادى الضباط أن هؤلاء مجموعة من الخبراء السوفييت فى زيارة قصيرة لمصر.

وبعد فترة راحة تخللتها وجبة خفيفة بدأ كل واحد من القادة يخرج على حدة ليصلوا جميعاً على الانفراد الواحد تلو الآخر إلى مقر قيادة القوات البحرية فى قصر رأس التين، حيث كان يتوالى وصول سبعة من القادة المصريين. واكتمل العدد ١٤ ضابطاً بوصول اللواء بهى الدين نوفل رئيس أركان حرب القيادة المصرية - السورية الاتحادية.

وكان القادة المصريون السبعة هم الفريق أول أحمد اسماعيل «وزير الحربية» والفريق سعد الدين الشاذلى «رئيس أركان حرب القوات المسلحة» واللواء محمد على فهمى «قائد الدفاع الجوى» واللواء حسنى مبارك «قائد القوات الجوية» واللواء فؤاد ذكرى «قائد القوات البحرية» واللواء عبد الغنى الجمسى «رئيس هيئة العمليات» واللواء فؤاد نصار «مدير المخابرات الحربية».

واكتمل بذلك المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية - السورية ليبدأ اجتماعه التاريخى.

وتولى اللواء بهى الدين نوفل أعمال السكرتارية لهذا المجلس ولم يسمح بالتسجيل أو بدخول أية أجهزة الكترونية. وكان اللواء الجمسى وحده يكتب الملاحظات ومشروع القرارات ليقدم فى النهاية نسخة منها الى وزير الحربية المصرى ونسخة مماثلة لوزير الدفاع السورى .

وظهرت فى هذا الاجتماع نقاط خلاف كثيرة رغم الاتفاق التام على الخطوط الرئيسية.

ان الجانبين المصرى والسورى يعملان معاً على أساس تعليمات القيادة السياسية فى البلدين والتى تقضى بشن عملية هجومية واسعة على الجبهتين قبل نهاية أكتوبر تجنبا لموسم الجليد فى الجبهة السورية. والجميع اتفقوا على أن القوات المسلحة فى الدولتين جاهزة لتنفيذ المهمة المسندة اليها وأعلنوا أنهم ينتظرون القرار السياسى ببدء الهجوم فى الموعد الذى يصدق عليه الرئيسان.

لكن اليوم و الساعة ظلا موضع جدل.

كان هناك اقتراح ببدء العمليات فى يوم من أيام الأسبوع الثانى من سبتمبر ما بين ٧ و ١١ من ذلك الشهر وكان الاقتراح الثانى يحدد يوم الهجوم (ى) ما بين ٥ و ١١ أكتوبر. وكان أنسب هذه الأيام بالنسبة للجبهة المصرية هو السادس من أكتوبر.

وتفرعت المناقشات بين الجانبين لتتناول تفاصيل كثيرة اختلفت حولها وجهات النظر مما ترتب عليه مد الاجتماعات وتكثيفها حتى استمرت لمدة ستة أيام متواصلة. وتم تحديد فترة العد التنازلى للهجوم بعشرين يوماً تبدأ باليوم (ى ناقص ٢٠) أى قبل يوم الهجوم (ى) بعشرين يوماً. ورأى الجانب السورى أن الأمر يقتضى خمسة أيام لتفريغ معامل تكرير البترول فى حمص حتى لاتتعرض للقصف المعادى وهى مليئة بالبترول مما يشكل كارثة محققة.

وحول ساعة الصفر (س) اقترح الجانب المصرى أن تكون بعد الظهر حيث يكون قرص الشمس قد مال نحو الغرب وأصبحت أشعتها خلف المدفعية المصرية ووراء القوات وفى مواجهة العدو الذى سيكون قرص الشمس أمامه يمثل مصدر تفوق للجانب المصرى. لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للجبهة السورية لأن القوات السورية تتجه فى عملياتها نحو الجنوب الشرقى. ولذلك يفضل الجانب السورى أن يبدأ هجومه صباحاً لتكون (س) أى ساعة الصفر مع أشعة الفجر الأولى.

واقترح الجانب المصرى تعديل الخطة لتبدأ القوات السورية هجومها مع الفجر وتنطلق القوات المصرية بعد الظهر. واعترض الجانب السورى على ذلك حتى لا يواجه وحده النشاط الجوى الاسرائيلى لعدة ساعات مع احتمال قيام العدو بهجوم مضاد على الجبهة السورية قبل أن يتجه إلى الجبهة المصرية. كما أن اختلاف (س) سيفقد الخطة مزايا الهجوم المفاجئ على جبهتين فى وقت واحد.

ودرس المجتمعون فكرة أن تقوم القوات المصرية بالهجوم بعد ظهر اليوم (ى) وتؤجل ساعة الهجوم من الجبهة السورية إلى فجر اليوم التالى. (ى. زائد واحد). لكن هذا الاقتراح تم استبعاده لاعتبارات سياسية باعتباره سيجعل الصورة تبدو كأنها حرب مصرية بدأتها مصر ولحقت بها سوريا فضلا عن فقدان عنصر الحرب المفاجئة من جبهتين فى وقت واحد.

وقبل أن يتم حسم نقاط الخلاف والتوصل إلى تحديد موحد لليوم (ى) وساعة الهجوم (س) كان الرئيس أنور السادات قد بدأ جولة فى عدة بلاد عربية لتشكل فى حد ذاتها آخر حلقات الخداع الاستراتيجى وبداية مراحل أخرى من الخداع. اتجه الرئيس السادات أولا إلى المملكة العربية السعودية ليجتمع مع الملك فيصل وترك انطباعا بأنه يبحث فى الزيارة عن دعم سياسى سعودى فى مجال الحل السلمى. وكانت الجهود الدبلوماسية تتكامل مع النشاط الاعلامى فى أوروبا وفى دوائر الأمم المتحدة بنيويورك بقصد تحريك الجهود الدبلوماسية فى اتجاه الحل السلمى، وحرص مصر على إعادة إحياء المبادرات السياسية. وتلقى وزير الخارجية الامريكى هنرى كيسنجر أكثر من اتصال يهدف الى تحركه على المستوى الشخصى بعد أن انتهى موسم الاجازات الصيفية على أمل أن تجد مصر مخرجاً من ذلك الطريق المسدود التى وجدت نفسها فيه وهى تدور حول دائرة مفرغة.

وفى قطر بحث الرئيس السادات مجالات التعاون المشترك بصورة تسمح بتسرب معلومات عن تفاقم الأزمة المالية فى مصر وعدم قدرتها على

الحصول على سلاح وقطع غيار نتيجة نقص احتياطيات العملة الصعبة وتوتر العلاقات المصرية ـ السوفيتية.

وفى ختام جولته طار الرئيس السادات إلى سوريا للاجتماع بالرئيس حافظ الأسد. وتم تسريب معلومات وتحليلات إلى صحف عربية خليجية ولبنانية حول طلب السادات وساطة الأسد فى تحسين العلاقات المصرية ـ السوفيتية.

ورغم كل ما فى هذا من خداع يجعله مخالفاً للحقيقة تماما فإن الأمر كان له بعض الانعكاس السلبى على الجبهة الداخلية المصرية وعلى الرأى العام فى مصر.

ولم يكن أحد يعلم أن السادات عندما بدأ هذه الجولة كان المجلس الأعلى للقوات المصرية ـ السورية يضع فى الإسكندرية اللمسات النهائية للخطة الهجومية ولخطة الخداع التى تسير جنبا إلى جنب مع خطة العمليات وتحديد مواعيد مراحل الهجوم من الجبهتين.

وعندما انتهت اجتماعات الإسكندرية السرية يوم الاثنين ٢٧ أغسطس ١٩٧٣ عاد الضباط المصريون فرادى إلى مقار عملهم فى حين تفرق الضباط السوريون ليجد كل منهم طريقا مختلفا إلى بلاده.. ذهب أحد الضباط إلى جدةلتأدية العمرة قبل أن يعود إلى سوريا. وذهب آخرون إلى القاهرة واستقلوا على مدى أيام متفرقة الطائرات إلى دمشق. ومنهم من عاد على الخطوط الجوية السورية ومنهم من استخدم طائرة «مصر للطيران».

أما الباقون فقد عادوا بطريق البحر من الإسكندرية إلى ميناء اللاذقية فى الشمال السورى.

ووصل اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى إلى دمشق ليجتمع بالرئيس حافظ الأسد ويطلعه على تفاصيل ما تم الاتفاق عليه فى الإسكندرية. وفى اليوم نفسه كان الرئيس أنور السادات يتجه ضمن جولته العربية إلى دمشق فى زيارة رسمية تبدو ضمن جولته بحثاً عن حل سلمى وأملاً فى قيام الرئيس الأسد بدور فى إصلاح الأحوال بين القاهرة وموسكو.

وحقيقة ما دار فى اجتماع الرئيسين كانت مختلفة كل الاختلاف عما ذكرته الصحف ورردده المحللون والمعلقون فى الوطن العربى وخارجه. لقد عقد الرئيسان اجتماعهما السرى بعيدا عن عدسات التصوير وكاميرات التليفزيون، وبحثا مع اللواء طلاس قرارات الإسكندرية وتوصيات القادة. واستبعد الرئيسان كل التوقيتات التى تجعل يوم (ى) أحد أيام شهر سبتمبر واتفقا على أن يبدأ الهجوم بين يومى ٥ و١٠ أكتوبر مع ترجيح اليوم السادس من أكتوبر أو قبله بيوم واحد. واقترح الرئيس السادات فى اجتماع دمشق تخفيض فترة العد التنازلى من ٢٠ يوما إلى ١٥ يوما فقط باعتبارها كافية لكل خطوط العمليات قبل ساعة الصفر. وتم الاتفاق على ذلك وقدم الرئيس حافظ الأسد تفويضا كاملاً للرئيس السادات باعتباره القائد الأعلى للقيادة الموحدة للدولتين - مصر وسوريا - ليقوم بتحديد التوقيتات وإطلاق شرارة الهجوم. وتقرر أن يكون اليوم (ى) هو السادس من أكتوبر وأن يبدأ العد التنازلى قبله بـ ١٥ يوما أى يكون (ى - ١٥) هو الجمعة ٢١ سبتمبر ١٩٧٣م.

وعندما انعقد المؤتمر الوزارى لدول عدم الانحياز صدرت التعليمات من وزارة الخارجية المصرية فى القاهرة ومن وزارة الخارجية السورية فى دمشق إلى مندوبى وممثلى الدولتين بالتحدث عن السلام وعن التطلع إلى حلول سلمية تحقن الدماء وتنقذ المنطقة من التوتر المستمر. وكانت التعليمات الصادرة للدبلوماسيين العرب فى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية تسير فى هذا الاتجاه وطلب الرئيس أنور السادات شخصياً من عدد من الزعماء العرب مساعدة دبلوماسية فى هذا المجال باعتبار الحل السلمى هو الممكن الوحيد. ورغم تحفظ بعض الدبلوماسيين المصريين على هذا الأسلوب إلا أنهم التزموا بما صدر إليهم من تعليمات دون أن يتبادر إلى ذهن أحد منهم أنه يقوم بدوره فى خطة خداعية متكاملة.

وتقدمت إحدى الشركات الأمريكية بمشروع اتفاقية بترولية مع مصر تقضى بإنشاء خط أنابيب للبترول يبدأ من داخل ميناء الأدبية على خليج

السويس، ووافقت مصر ووقعت أوراق المشروع وصادقت على العقود. وكان ذلك مؤشرا على أن مصر تتوقع فترة سلام طويلة لأن موقع المشروع يدخل فى بؤرة دائرة العمليات العسكرية فى حالة نشوب أية عمليات قتالية.

وفى منتصف سبتمبر - وقبل أن يبدأ العد التنازلى للحرب بستة أيام - وقعت معركة جوية فوق الأرض السورية تورطت فيها الأسراب السورية. وأسفرت هذه المعركة المشئومة عن سقوط ١٢ طائرة سورية. وكان رد الفعل الطبيعى أن تقوم سوريا بعمل ما لرد هذه الضربة. وقد حشد السوريون بالفعل قواتهم فى مواجهة العدو مما جعل اسرائيل تستنتج أن الهدف هو الرد على هذه الضربة بعملية محدودة. لكن الأمر تحول إلى تحركات مدروسة ضمن خطة الحشد الرئيسى للحرب الهجومية واستوجب ذلك تحركات مماثلة محدودة على الجبهة المصرية. ولكن الأيام مرت دون أن يقع شيء مما توقعته اسرائيل. وبات راسخاً فى الوجدان العسكرى الإسرائيلى أن سوريا قد ابتلعت الضربة ووقفت عاجزة عن الرد.

وأصبحت هذه الواقعة أحد عناصر الخداع التى تؤكد عدم القدرة العربية على القيام بأعمال هجومية فضلا عن أنها كانت تغطية ناجحة للتحركات السورية.

وعلى الجبهة المصرية تحولت التحركات العسكرية إلى جزء من الإعداد للمشروع التدريبى الذى عرف باسم مناورات تحرير ٢٣، والذى سمح باستدعاء بعض قوات الاحتياط ليتسنى لها الاشتراك فى المشروع التدريبى. وكانت الإشارات المفتوحة بين القوات تكمل الصورة الخداعية التى كان العدو ضحية لها.

وقد استراحت الدوائر الاسرائيلية كثيرا لما انتهت إليه قناعاتها من أن العرب غير قادرين على الهجوم وأن مناورات «تحرير ٢٣» ليست ذات بال وأن السوريين قد استكانوا بعد سقوط ١٢ طائرة لهم فى معركة جوية واحدة ولم

يعد أمامهم سوى التحركات العسكرية التظاهرية التى ليس وراءها سوى انقاذ ماء الوجه ظاهريا.

ورسخ ذلك فى الوجدان العسكرى الإسرائيلى خاصة أن الكثير من القضايا الساخنة كانت تجذب انتباهه وتستنزف جهوده داخليا وخارجياً.

.. على الصعيد الخارجى بدأت اسرائيل مع بداية أكتوبر ٧٣ تواجه مشكلة كبيرة ترتبت على قيام الحكومة النمساوية بإغلاق معسكر استقبال المهاجرين اليهود فى منطقة «شنو» وكان هذا المعسكر يستقبل يهود الاتحاد السوفيتى وينظم نقلهم إلى إسرائيل. وتعرض القطار النمساوى الذى ينقل المهاجرين السوفييت إلى المعسكر لهجوم فدائى فلسطينى أسفر عن اختطاف عدد من الرهائن.

وبإغلاق هذا المعسكر تفجرت مسائل دبلوماسية وسياسية فى مواجهة اسرائيل تكاملت معها حملات اعلامية عربية وعالمية ضد السوفييت واسرائيل معاً. واستوجب ذلك قرار الحكومة الاسرائيلية سفر رئيسة الوزراء للاجتماع مع المستشار النمساوى فى فيينا. وكان ذلك قبل موعد الحرب بأيام لتعود من رحلتها قبل الحرب بساعات.

وعلى الصعيد الداخلى كانت الاستعدادات لانتخابات الكنيست ـ البرلمان الاسرائيلى ـ على أشدها ـ فقد كان من المقرر أن تجرى عملية التصويت فى نهاية أكتوبر ٧٣.

وعلى الصعيد العسكرى جرت قبل ذلك تنقلات وتعيينات عكست الصراعات الخفية داخل المؤسسة العسكرية فى اسرائيل وكان أفضل ما أسفر عنه ذلك هو ابعاد الجنرال «ياريف» عن ادارة المخابرات العسكرية الاسرائيلية وتعيين الجنرال «زائيرا» بدلا منه. وكان «زائيرا» من المؤمنين باستحالة عبور قناة السويس بأى قوات عسكرية مهما بلغ حجمها ومهما كان تسليحها.

وقد أمضى «زائيرا» فى موقعه فترة كافية قبل بداية العبور مما جعل ايمانه باستحالة الحرب ينعكس على معظم العاملين معه من ضباط المخابرات العسكرية الاسرائيلية.

وساعد ذلك كثيرا على تورط العدو الاسرائيلى فى استنتاجات خاطئة بشأن التحركات التى كانت تجرى غرب القناة. لقد رآها العدو.. لكنه أبداً لم يفهمها.

كانت القوات تتحرك أثناء الليل فى اتجاه الجبهة. وكانت بعض عناصرها تسحب نهارا ثم تعود ليلا إلى مواقعها المجهزة والمعدة لها والتى انسحبت منها صباحا وكانت حشود المدفعية والدبابات تتخذ ستارا وراء الكتل الرملية والسد الترابى الذى اتخذ شكل الاستحكامات الدفاعية فى مواجهة الضربات الاسرائيلية، وكانت الإشارات اللاسلكية المتبادلة بين الوحدات العسكرية المتحركة تدخل جميعها فى إطار المشروع التدريبى «تحرير ٢٣» والإعداد لمراحله المختلفة.

وظل أسلوب الحشد العسكرى المصرى غرب القناة يلتزم بالشكل الدفاعى الذى يخدم الخطة الهجومية ويؤكد فى الوقت نفسه عناصر الخداع التعبوى للعدو. وهذا الأسلوب فى الحشد يعد من أصعب الأعمال العسكرية وأكثرها تعقيداً فضلا عن عدم مسايرته لما هو معروف من قبل عن العقيدة العسكرية المطبقة فى مصر.

لقد كان الحشد الدفاعى عن قناة السويس يعتمد على خمس فرق مشاة وعلى فرقتين مدرعتين، بمجموع سبع فرق. وكانت فرق المشاة الخمس تتخذ مواقعها على الخط الدفاعى الأول الذى يبدأ من الضفة الغربية لقناة السويس مباشرة ويعمق عدة كيلو مترات غربا. أما باقى فرق الدفاع السبع - وهى فرقتان مدرعتان - فقد كانت تتخذ مواقعها على الخط الدفاعى الثانى أو النسق الثانى - كما يطلق عليه العسكريون - وتتجمع هذه الوحدات المدرعة خلف فرق المشاة الخمس على مسافة تتراوح ما بين ٢٠ و٢٤ كيلو مترا من شاطئ القناة الغربى.

وجاءت الخطة الهجومية لتعتمد على قيام خمس فرق مشاة باقتحام المانع المائى لقناة السويس طبقاً للقطاع المحدد لكل وحدة. وتم تحديد هذه القطاعات فى الخطة الهجومية ضمن الحدود المقررة لكل وحدة فى خطة الدفاع أى فى القطاع المكلفة بالدفاع عنه.

وأدى ذلك إلى استبعاد تحركات كثيرة قد يستلزمها الحشد الهجومى مما يساعد على عدم استطاعة العدو رصد الأوضاع الهجومية للقوات المصرية، واستمرار قناعته بالموقف الدفاعى المصرى.

ويكتمل هذا الخداع بالتعديل الذى تم ادخاله على نظم التعبئة واستدعاء الاحتياط وتكرار عمليات الاستدعاء مرات عديدة يعقبها تسريح من تم استدعاؤهم.

ولم يكن من الصعب على العدو أن يرصد استدعاء الاحتياط فى مصر وكل أشكال التعبئة وهو ما كان يقوم فعلا برصده وتحليله. وقد ظلت القيادة العسكرية الإسرائيلية تتلقى معلومات كاملة عن استدعاء الاحتياط فى مصر ثم تسريحهم. وخلال الأشهر العشرة التى سبقت الحرب رصدت القيادة الاسرائيلية ٢٢ استدعاء لقوات الاحتياط المصرية.

ووجد ذلك ردود فعل سريعة لدى العدو الذى كان يبدأ فى وضع خطة التعبئة الإسرائيلية موضع التنفيذ ويشرع فى تنفيذ الحشد ليسفر ذلك فى النهاية عن لاشىء.

ويصف وزير الدفاع الإسرائيلى - موشى ديان - هذا السيناريو بأنه «اللعبة المصرية المفضلة». ويقول: إن لعبة استدعاء الاحتياط أصبحت اللعبة المفضلة لدى المصريين لأنهم يعرفون أن القوات الإسرائيلية الضاربة تعتمد بصورة أساسية على الاحتياط وأن تعبئة قوات الاحتياط فى إسرائيل تكلف الميزانية ملايين الدولارات فى كل مرة ويؤدى إلى شبه شلل كامل فى الحياة المدنية حتى تكاد الشوارع ومواقع العمل تخلو من الناس ومعهم معظم سيارات النقل العاملة فى القطاعات المدنية.

ويؤكد هذا المعنى نفسه الجنرال زائيرا - مدير ادارة المخابرات العسكرية الإسرائيلية الذى تولى هذا المنصب بعد الجنرال ياريف - ويعبر الجنرال زائيرا عن رفضه لاستدعاء أى قوات احتياط اسرائيلية كرد فعل للتعبئة المصرية قائلا: «إننا نرفض الرقص فى كل مرة على أنغام المصريين».

ولم يعد الاسرائيليون يأخذون ما يجرى فى مصر مأخذ الجد وتميزت ردود أفعالهم بالتردد حتى أنهم لم يتحركوا أمام الاستدعاء رقم (٢٠) لقوات الاحتياط فى مصر والذى تم قبل بدء مناورات الخريف. وتكرر ذلك أكثر من مرة خاصة مع الاستدعاء رقم (٢٢) الذى سبق المشروع التدريبى المصرى المعروف باسم «تحرير ٢٣»، وأعقبه بعد ذلك الاستدعاء رقم (٢٣) لقوات الاحتياط المصرية الذى كان يبدو بصورة أقل جدية وبأنه مجرد استدعاء للتدريب المعتاد وضمن «اللعبة المصرية المفضلة» حسب تعبير الوزير الإسرائيلى.

وكان هذا الاستدعاء المصرى يحاط بالكثير من إجراءات التعمية والخداع مثل فتح باب سفر العسكريين للخارج وتنظيم مسابقات ثقافية ودينية لأفراد القوات المسلحة ورصد جوائز مالية كبيرة لحفظ القرآن بين الجنود وإعداد رحلات متتالية لأداء العمرة للضباط والجنود تم تحديد مواعيدها طوال شهر رمضان ١٣٩٣هـ دون أن يعرف أحد أن العد التنازلى للحرب سيبدأ قبل بداية رمضان وأن اقتحام قناة السويس سيتم قبل العاشر من رمضان.

وفى هذا المناخ العام تم الاستدعاء رقم ٢٣ وكان هو استدعاء حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

الفصل الخامس

الخداع

كان الدكتور عبدالهادى هو أول من هبط من سلم الدرجة الأولى بالطائرة «تى دابليو . ايه» TWA القادمة من نيويورك. ووجد فى استقباله عند سلم الطائرة شابا فى الحلقة الثالثة من عمره يرتدى بذلة بنية ويستقبله بابتسامة دافئة رغم أن هذا هو اللقاء الأول بينهما ولم يكن ظلام التاسعة مساء ليحول دون تعرف الشاب على الدكتور عبد الهادى الذى شاهد صورته قبل لحظات من وصول الطائرة.

وخرج الدكتور عبد الهادى برفقة الشاب الذى استقبله من صالة كبار الزوار بمطار القاهرة ليستقل سيارة «فيات ـ ١٣٠٠» من تجميع شركة النصر المصرية موديل ٧٣ وهو آخر موديل تم انتاجه من هذه السيارة وبعد دقائق مرقت السيارة من مدخل استراحة القوات المسلحة للمدنيين بطريق صلاح سالم لتلحق بهما سيارة أخرى تحمل الحقيبة الوحيدة التى جاء بها الدكتور عبد الهادى من أمريكا.

وفى الموعد المحدد للقاء الدكتور عبد الهادى مع رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية وجد الضيف ثلاثة رجال فى انتظاره منذ الثامنة والنصف صباحا فى مبنى القيادة بمدينة نصر، ليكتمل عددهم خمسة داخل الغرفة الملحقة بمكتب رئيس الأركان، وكان هو أول المتحدثين.

قال إن الدكتور عبد الهادى عالم مصرى كبير يحمل الجنسية الأمريكية ويعمل أستاذا فى جامعة أو كلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية ويتطلع إلى المشاركة فى تدعيم قواتنا المسلحة بأحدث الأبحاث العلمية التى يمكن أن تعاوننا فى معركتنا. ولم يكن أحد يعرف أن ادارة المخابرات الحربية قد أرسلت تقريرا من بضعة أسطر إلى رئاسة الأركان قالت فيه إن الدكتور عبد الهادى على صلة وثيقة بأجهزة المخابرات المركزية الأمريكية التى تحرص على توثيق علاقاتها بكل الباحثين فى الجامعات الأمريكية ومنهم الدكتور عبد الهادى ولم يكن ذلك يعنى تشكيكا فى ولائه لمصر كما لا يعنى الاطمئنان إليه اطمئناناً كاملاً.

قال رئيس الأركان إن الدكتور عبد الهادى أرسل إلى القيادة المصرية يخبرها عن اختراع نظام جديد يمكن بواسطته اكتشاف المعادن والسوائل تحت سطح الأرض بواسطة معدات خاصة يمكن تركيبها فى الطائرات. وقد استخدمت بعض شركات البترول هذه التجهيزات فى البحث عن البترول وأطلقت على ذلك اسم «الاستشعار عن بعد» وأن تلك الوسائل الحديثة جدا يمكن استفادة القوات المسلحة المصرية منها فى الكشف عن الدبابات والعربات المدرعة التى يتم اخفاؤها وتمويهها. وتعتمد النظرية على أن درجة الحرارة التى تعكسها المعادن تختلف عن غيرها، وبالتالى يسهل بهذه الأجهزة الحديثة اكتشاف حجم وموقع المعدات المختفية. وأبدى الدكتور عبدالهادى استعداده للعمل مع العلماء المصريين لتزويد بعض طائراتنا بهذه الأجهزة مساهمة منه فى الإعداد لحرب تحرير سيناء.

وتم الاتفاق خلال الاجتماع على خطة عمل تستغرق خمسة أشهر اعتباراً من شهر يولية ٧٣ ولتكون أجهزة الاستشعار عن بعد جاهزة ضمن تجهيزاتنا للعبور خلال الشهور الأولى من ١٩٧٤م.

وتم بالفعل الأخذ بهذه الخطة. وعاد الدكتور عبد الهادى إلى أمريكا ليعمل باجتهاد وقد رسخ فى وجدانه وتأكد لديه أن حربا لن تنشب قبل نهاية عام ١٩٧٤م. لكنه فوجئ مثل غيره بالهجوم المصرى - السورى يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م.

وإذا كانت خطة تزويد قواتنا بوسائل الاستشعار عن بعد قد تمت بعد معركة ٧٣ بشهور طويلة، فإن سائر التجهيزات ومعدات العبور كانت جاهزة قبل الحرب بفترة كافية. وكان من بينها ما حقق مفاجآت بالغة للعدو فى اطار خطة الخداع، ومن هذه الاستعدادات والتجهيزات اللواء البرمائى الذى لم يعرف عنه العدو شيئا إلا بعد أن عبر هذا اللواء البحيرات المرة ليفاجئ العدو من الشاطئ الشرقى للبحيرات.

وعندما صدر قرار تشكيل هذا اللواء فى بداية عام ٧٢ جاء فى حيثيات القرار أن الهدف من هذا اللواء هو دفعه فى عمق العدو عبر البحيرات أو من البحر وتكون مهمته شل مراكز قيادة العدو أو ارباكها وتعطيل تقدم الاحتياطيات من خطوط العدو الخلفية فى طريقها لمواجهة قواتنا بعمليات هجوم مضاد. ووضعت القيادة العامة هذا اللواء ضمن خطة الخداع والمفاجأة.

لقد كان من المقرر أن المعديات ستقوم بنقل الدبابات من غرب القناة إلى الضفة الشرقية طبقا لجداول توقيتات تجعل هذه الدبابات غير مستعدة للعمل والقتال قبل الساعة. س+٥ (أى بعد ساعة الصفر بخمس ساعات) فى حين يستطيع اللواء البرمائى عبور البحيرات فى أقل من ساعة واحدة وبأعداد كبيرة من الدبابات والعربات مما يشكل تهديدا خطيرا لقيادات العدو واحتياطياته المتحركة. ووضعت خطة تدريب اللواء البرمائى على هذا الأساس. وعكف

أفراده على التدريب لشهور طويلة. وشملت عمليات التدريب عبور برمائيات لنقل قوات من المشاة الميكانيكية وبأسلوب عمل الوحدات الخاصة.

وفى ليلة ١٨ ـ ١٩ يوليـة ٧٣ تم الاختبـار النهائى لقدرات هذا اللواء فى منطقة التدريب غرب الإسكندرية وبقى فى مياه البحر لأكثر من خمس ساعات، ونجح فى الإبرار على الشاطئ والتقدم براً لتنفيذ مهمته فى صد وعرقلة القوات المعادية المتقدمة من العمق. ولأن العملية التدريبية كانت أشق كثيراً من المهمة القتالية التى سيواجهها هذا اللواء فقد أسفر التدريب عن خسارة مركبتين وفقد عشرة أفراد تم العثور على سبعة منهم فى الصباح وتأكد استشهاد ثلاثة. وهكذا قدم اللواء البرمائى أول شهداء العبور قبل المعركة بأكثر من ستة أشهر، لكن خسائره فى عملية العبور الحقيقية كانت فرداً واحداً.

وكانت التشكيلات الجديدة التى تم تكوينها قبل الحرب تمثل مفاجأة بالغة للعدو بالإضافة إلى تجهيزاتها غير المتوقعة. وكما تم تشكيل اللواء البرمائى الذى فوجئ العدو به وراء خطوطه كانت هناك وحدات مهندسين جديدة انضمت إلى الوحدات الأصلية فى كل التخصصات.

وكانت هذه الكتائب مجهزة بمعدات مستحدثة كما كان بعضها يعمل بوسائل بدائية استخدمتها الجيوش فى العصور الوسطى مثل سلالم الحبال التى صعد عليها جنود المشاة وتسلقوا بها الساتر الترابى، ومثل عربات يد بدائية تتحرك على عجلتين يحمل عليها الجنود معداتهم التى لا تتحملها ظهورهم. وتم تصنيع هذه العربات فى مصانع ادارة المهمات المصرية.

وكـــانت المفاجأة أكبر من أن يستوعبها العدو الذى خدع نفسه قبل أن يخدعه الآخرون. ووضح ذلك فى اجتماع ادارة العمليات الإسرائيلية فى سبتمبر ٧٣ عندما عكف قادة العدو على دراسة عمليات استدعاء الاحتياط المصرى ثم تسريحه، وارتباطه ذلك بتحرك وحدات متعددة غرب القناة مع ظهور عربات كبارى ومعدات عبور موانع مائية ضمن مهمات وتجهيزات القوات المصرية غرب القناة.

وفى ذلك الاجتماع درس القادةالاسرائيليون احتمالات الحرب، ومدى الاحتياجات الهندسية لإتمام عملية عبور محدودة وتحدث الجنرال اليعازر عن الاحتياجات الهندسية للمصريين من أجل عملية عبور محدودة فى قطاعات معينة - وقال إن هذه الاحتياجات لا تتوافر لأى جيش فى العالم وأكد ذلك الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى قائلا: «اذا أراد المصريون عبور قناة السويس فيلزمهم سلاح المهندسين الأمريكى وسلاح المهندسين السوفيتى - مجتمعين - لمساعدتهم على ذلك».

وهذا الكلام الذى تردد فى اجتماع القادة الاسرائيليين قبل العبور بأسابيع قليلة عكس ثقة الجنرال اليعازر يومها، وجاء ذكره فى يومياته التى نشرها بعد معركة العبور بعدة أشهر.

وفى هذا الاجتماع أشاد كبار الضباط الإسرائيليين بمعدات قذف كميات كبيرة من السوائل الملتهبة من تحت سطح الماء فى القناة لتطفو فوق السطح ويتم إشعالها لتتحول القناة إلى بحر من اللهب. وتعرضوا للآثار النفسية الكبيرة لذلك بالإضافة إلى عجز الأفراد عن العبور فوق نيران مشتعلة.

وبينما كان هذا الحديث يدور فى قاعة الاجتماعات الرئيسية بوزارة الدفاع كان ضباط هيئة العمليات المصرية يعدون للمفاجآت المضادة التى تكمل خداع العدو الذى خدعه اطمئنانه.

كان التصور الأول لمواجهة النيران المشتعلة فوق سطح القناة هو نزول وحدات صغيرة من الأفراد داخل مركبات برمائية. وينتشر الأفراد على أجناب كل مركبة ويحمل كل فرد واحدة من سعف النخل المعروف باسم «الجريد» ليضرب بها النيران المشتعلة حتى تتحول إلى جزر من اللهب يسهل اطفاؤها .وفشلت التجارب. ولم ينجح الجنود أثناء التدريب فى مواجهة النيران بسعف النخل رغم أن كميات السوائل المشتعلة كانت أقل من المتوقع مواجهته خلال العبور الفعلى. وتم إعادة التجربة باستخدام مواد إطفاء كيماوية واستلزم

ذلك جهداً ووقتا جعل العمليات تتحول من معركة عسكرية وعبور لمانع مائى صعب إلى عملية إطفاء حريق أشعله العدو فوق القناة وحاولنا نحن أن نطفئه.

وعلى ضوء نتائج هذه التجارب المتكررة تقرر أن تكون الخطة هى حرمان العدو من استخدام هذا السلاح الجهنمى مع خداعه وإيهامه بصلاحية هذا السلاح ومفاجأته بتجهيزات معطلة تخرج سلاح الحريق من المعركة قبل بدايتها.

وتم عقد اجتماع ضم قائد القوات الخاصة وقائد الضفادع البشرية ومدير سلاح المهندسين وأحد ضباطه ومدير التخطيط بهيئة العمليات. وتم فى هذا الاجتماع استعراض كل التجارب والمحاولات المعدة لمواجهة إشعال العدو للحرائق فوق سطح القناة ونتائج التجارب التى أجريت فى أكثر من موقع، وتم خلالها استخدام عشرات الأطنان من السوائل المشتعلة التى تمثل نوعا من أنواع النابالم - أقل كثافة من مياه القناة - لضمان الطفو فوق السطح.

وتقرر وقف كل محاولات إطفاء الحريق والتركيز على حرمان العدو من فرصة استخدام هذا السلاح.

وعلى ضوء المعلومات المتوافرة من الاستطلاع وإدارة المخابرات شرح ضباط المهندسين تفاصيل التجهيزات التى يعتمد عليها العدو، والتى تتكون من ثلاثة أجزاء... هى خزانات تحت مواقعه الحصينة يسع كل خزان منها ٢٠٠ طن من المواد المشتعلة والجزء الثانى أنبوبة تصل بين هذه الخزانات وسطح مياه القناة وأخيراً معدات السيطرة التى تتولى فتح خزانات «النابالم» وإشعالها. ولو تم إفساد أى جزء من تلك الأجزاء الثلاثة فإن العدو سيفشل فى خطته. واستبعد المجتمعون إمكانية تدمير الخزانات بواسطة المدفعية لأنها مدفونة جيدا فى الرمال. ومعها أنابيب نقل السائل إلى القناة المدفونة أيضا تحت سطح الأرض لكن فتحات هذه الأنابيب كانت ظاهرة تحت سطح الماء وكانت قواتنا تراها بوضوح من غرب القناة عندما يكون هناك «جزر» وينخفض مستوى

سطح الماء فى القناة. وأصبح الحل هو سد هذه الفتحات قبل العبور خاصة أن أماكنها محددة لدينا وهناك صور لها بين أيدينا، بالإضافة إلى معلومات تفصيلية قدمها المهندس الاسرائيلى الذى استطاعت دورية خطف أسير مصرية العودة به من شرق القناة.

وتم وضع الخطة من ثلاث مراحل. المرحلة الأولى إرسال وحدات خاصة من الضفادع لعبور القناة من تحت سطح الماء والقيام بإغلاق الفتحات وسدها قبل أول ضوء من اليوم (ى) وهو يوم العبور. والمرحلة الثانية هى وضع هذه الخزانات ضمن أهداف تحضيرات المدفعية على أمل النجاح فى ضربها. والمرحلة الثالثة تكون فى بداية المعركة بحيث تظل نقاط عبور القناة فوق اتجاه التيار عند كل خزان حتى إذا نجح العدو فى استخدام هذا السلاح فإن النيران تظل متجهة بعيدا عن الموجات الأولى من عبور الأفراد. وفى جميع الأحوال يتم تأخير نزول الوحدات إلى الماء لفترات تتراوح ما بين ٢٠، ٣٠ دقيقة بعد ظهور اللهب فوق الماء وتحاشى تأثيرها حتى ينتهى أثرها.. أو تجاهلها فى حالة ضعف تأثيرها.

وقد تحقق النجاح خلال المرحلة الأولى من الخطة، واستطاعت القوات الخاصة إغلاق الفتحات وسدها. وكان ذلك مفاجأة من مفاجآت خداع العدو، مثلما فاجأته مراحل تعبئة القوات وخطة تحريك معدات العبور.

لقد تم تطوير خطة استدعاء الاحتياط حتى أن حوالى ٨٠٪ من الأفراد الذين يتم استدعاؤهم يصلون فى اليوم الأول للاستدعاء. وخلال الشهور العشرة الأولى من عام ٧٣ تم تنفيذ ٢٢ عملية استدعاء لقوات الاحتياط المصرية. وكان الاستدعاء رقم ٢٣ هو استدعاء للحرب تم فى اطار استدعاء خداعى باعتباره استدعاء للاشتراك فى العمليات التدريبية لمناورات «تحرير ٢٣» التى تحولت إلى «بدر» وهو اسم الخطة الهجومية لعبور القناة.

واتفق واضعو خطة الهجوم على أن يتم العبور بطول قناة السويس وعلى امتداد ١٧٥ كيلو مترا لأن ذلك سيؤدى إلى إضعاف أو تجميد مصادر تفوق العدو. ويساعد على خداعه بحيث لا يستطيع اكتشاف الاتجاه الرئيسى لقوات الهجوم ويحرم إسرائيل من تركيز جهود قواتها الجوية فى اتجاه محدد مما يضعف كثيرا من تأثير النشاط الجوى المعادى، ويضطرهم إلى شن الهجمات المضادة على جبهة متسعة فى وقت واحد كما سيؤخر ردود الفعل لدى العدو حتى يكتشف اتجاه المجهود الرئيسى المصرى. وهذا معناه ارتباكه وتأجيل ضرباته المدرعة وإتاحة مزيد من الوقت أمام القوات المصرية التى تعبر القناة.

ومع بداية العد التنازلى لليوم (ى) كانت الوحدات الضاربة تنتشر فى مواقعها بطول القناة وكانت معدات العبور والجسور والكبارى تتحرك من الغرب إلى الشرق نحو الجنوب ونحو الشمال. ورغم أن ذلك يمثل التزاما بالخطة الموضوعة لكنه أيضا كان يشكل استمراراً فى الخداع. وبات العدو متأكدا من أن ما يجرى لا يمكن أن يكون اعدادا لحرب شاملة بطول جبهة تمتد لأكثر من ١٧٠ كيلو مترا، وإنما هو تدريبات لكل الوحدات المصرية المشاركة فى مناورات «تحرير٢٣»، لأن ما يتوافر من تجهيزات ومعدات العبور قد يتيح امكانية العبور من محور رئيسى أو محورين وهذ يتعارض مع كل ما يجرى غرب قناة السويس.

وهذا ما تداوله المجتمعون فى قيادة الجيش الثانى بالقطاع الأوسط من قناة السويس وفى قيادة الجيش الثالث الميدانى بالقطاع الجنوبى من القناة. لقد لاحظوا أن العدو يعرف بتحركاتهم ويتابعها لكنه بالتأكيد لا يفهم معناها.

وكان ذلك وراء الكلمات التى رددها الرئيس أنور السادات فى خطابه فى اليوم (ى - ٨) أى قبل الحرب بأسبوع واحد وحرص خلاله على تحمل نصيبه فى خداع العدو.

فى ذلك اليوم احتفلت القوات المسلحة بذكرى الرئيس جمال عبدالناصر. وذهب كل القادة وكبار الضباط فى الصباح ليضعوا أكاليل الزهور على قبر الزعيم الراحل وقراءة الفاتحة. وتوالى ظهور القادة أمام عدسات التصوير فى احتفالات مختلفة منها توزيع الجوائز على حفظة القرآن الكريم من أبناء القوات المسلحة وتوديع الفوج الأول من أبناء القوات المسلحة الفائزين بجوائز عمرة رمضان.

وكان هذا يبدو وكأنه عدم جدية من كبار القادة فى الاعداد للمناورات التدريبية التى عرف الجميع أنها ستجرى فى الفترة ما بين أول أكتوبر وحتى ٧ أكتوبر ١٩٧٣ فى حين أن عدداً محدوداً جداً من الأفراد كانوا يعرفون أن يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ سيكون هو (ى+١) أى اليوم الثانى من الحرب.

وكما ظهر كبار القادة أمام عدسات المصورين وكاميرات التليفزيون يحتفلون بالجوائز ويزورون قبر عبدالناصر، فقد كانوا جميعا أمام العدسات وتحت الأضواء فى احتفال الاتحاد الاشتراكى بهذه المناسبة والذى أقيم فى المساء. ووقف الرئيس أنور السادات يتحدث عن المشكلات التى ورثها وعن البنية الأساسية التى يعيد بناءها والمرافق المتهالكة التى لابد من تجديدها. وتحدث بتركيز عن اعادة بناء القوات المسلحة وحرصه على سلامتها وعدم خوض مغامرة عسكرية قبل أن يوفر المعدات الحديثة لأبنائه المقاتلين. وردد العبارة العجيبة التى أدهشت كل المحللين ومنهم - أو أولهم - المحللون الاسرائيليون وهى عبارة «لن أدفع بأبنائى إلى الحرب قبل أن أضع الالكترون فى أيديهم».

وعجز عباقرة التحليل عن تصور الواقع على حقيقته. ولم يخطر على بال أحد فى اسرائيل أن هذه الكلمات يرددها الرئيس المصرى فى اليوم (ى - ٨) ليلة السبت الذى ستنطلق شرارة الحرب يوم السبت الذى يليه.

وعقب هذا الخطاب خرج الضباط ليتجهوا إلى مقار قياداتهم، واتجه كبار القادة إلى مركز القيادة العامة فى نقطة العمليات الرئيسية التى تعرف باسم

«المركز رقم ١٠» لمتابعة حركة العد التنازلى إلى أن يحل اليوم (ى) الذى سينضم فيه الرئيس السادات إليهم.

وبدأت التمامات تصل من كل مكان...:

وجاء التمام بوصول وحدات إصلاح الممرات إلى كل القواعد الجوية مزودة بالخلطة الجديدة التى توصل إليها العلماء المصريون. وهذه الخلطة بدأ إعدادها داخل معامل وزارة البحث العلمى بالاشتراك مع سلاح المهندسين منذ ستة أشهر توصلوا بعدها إلى مزيج من الأسفلت والأسمنت سريع التصلب بنسبة معينة. وهذه الخلطة ثبت نجاحها فى اصلاح ممرات الطائرات بسرعة قياسية يسترد بها المطار كفاءته عند قصف الممرات بواسطة طائرات العدو مما يتيح لطائراتنا الانطلاق بينما العدو يتصور أنه أخرج هذه القاعدة من المعركة لمدة يوم كامل.

وأبلغت فرق التعامل مع القنابل الزمنية والشراك الخداعية بوجودها فى المواقع المحددة لها بما فى ذلك المطارات. وهذه الفرق مزودة بأجهزة متقدمة للتعامل مع القذائف والقنابل التى لم تنفجر ومعها أوامر مستديمة بالتعامل الفورى مع هذه القذائف والقنابل الموقوتة لإبطال مفعولها دون تفجيرها أو انتظار انفجارها. ولم يعبأ أحد بالخطر الذى يتوقعه نظرا لاعتماد العدو على الأثر النفسى للقذائف الموقوتة والشراك الخداعية. واستطاع رجال هذه الفرق تجاوز كل الآثار النفسية بروح فدائية.

وتلقت القيادة ما يفيد وصول فرق إصلاح الطرق إلى نقاط تمركزها ومعها ألواح الصلب التى تم ابتكارها للاستخدام فى اصلاح الطرق التى تتعرض للقذف الجوى أو لقصف المدفعية، كما تم الابلاغ عن وصول وسائل التحرك من نقاط تمركز هذه الفرق إلى أئ مكان يحتاج إلى اصلاح الطريق منه وإليه. ويبلغ مجموع أطوال هذه الطرق التى تغطيها فرق الإصلاح ٢١٠٠ كيلو متر تمتد شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بما يزيد ثلاثين مرة على طول قناة

السويس نفسها. وصدرت الأوامر بتحريك المعدات ومهمات العبور فى اتجاه نقاط العبور لتكون جاهزة للنزول إلى الماء مع الساعة صفر.

وتلقت القيادة الرقم النهائى بوجود ٢٥٠٠ قارب جاهزة لحمل الأفراد إلى الضفة الشرقية ونصف هذه القوارب تم تصنيعها محليا وتم استيراد النصف الآخر من الاتحاد السوفيتى على مراحل.

وخرجت من المخازن وورش المهندسين سلالم الحبال وزلاقات الصاج لتكون فى أماكنها بين أيدى الجنود.

وشملت التمامات الصاعدة من قيادة إلى أخرى الانتهاء من نقل المدافع الخفيفة المضادة للدبابات والرشاشات المتوسطة والرشاشات المضادة للطائرات وصناديق الذخيرة وسائر الأسلحة والمعدات التى ستنتقل إلى الضفة الشرقية للقناة خلال الساعات الأولى للمعركة.

واتخذت الطلمبات التوربينية التى تعمل بالوقود العادى مواقعها بمعدل ثلاث طلمبات لكل ممر سيتم فتحه فى الساتر الترابى شرق القناة طبقا لخطة تحرك وحدات العبور التى تساندها ٨٠ وحدة مهندسين.

وفى الساعة الثامنة من صباح (ى - ٥) الموافق أول أكتوبر ١٩٧٣ تم رفع حالة الاستعداد الكاملة وصدرت أوامر القيادة العامة بوجود القيادات داخل مراكز السيطرة والقيادة على مختلف مستوياتها وذلك ضمن الإجراءات التى تستلزمها أغراض التدريب لتنفيذ المشروع الاستراتيجى التعبوى «تحرير ٢٣».

وتحت ستار التدريب استمرت القوات البرية فى تنفيذ اجراءات التحضير للعملية الهجومية وإعادة التجميع والفتح التعبوى. وتم رفع كفاءة التجهيز الهندسى لمسرح العمليات تحت ستار تحسين الدفاعات.

وبدأ فتح وحدات الأسطول المصرى من المدمرات والغواصات لتأخذ أوضاعها الأخيرة فى القطاعات المحددة لها، بما فى ذلك وحدات الأسطول التى تحركت تحت ستار الزيارة الودية للموانئ الصديقة فى الهند.

وكان هذا التحرك حلقة مهمة فى سلسلة الخداع.

لقد كان من المقرر إغلاق الطريق البحرى إلى ميناء إيلات الاسرائيلى مع بداية العمليات باعتباره الطريق الرئيسى لإمداد إسرائيل بالبترول من إيران.

ولم يكن من السهل تحقيق ذلك من منطقة شرم الشيخ والمدخل الجنوبى لخليج العقبة لأنه فى يد العدو الاسرائيلى منذ عام ١٩٦٧ ويقع تحت سيطرته التامة وكان البديل هو الاغلاق من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند مضيق باب المندب جنوب اليمن. وبدأ تنفيذ ذلك تحت ستار زيارة ودية للموانئ الهندية.

وتحركت الوحدات البحرية الموجودة فى السويس بعد أن أعلنت الهند عن زيارة مقررة لبعض قطع الأسطول المصرى. واتجهت القطع المصرية نحو الجنوب لتعبر باب المندب وتدخل المحيط الهندى.

وقبل بدء العمليات، وعندما حل اليوم (ى) دخلت قطع الاسطول المصرى إلى المضيق وأعلنت أغلاق الطريق البحرى إلى اسرائيل ومنع مرور ناقلات البترول المتجهه فى البحر الاحمر إلى ايلات لتعويض البترول الذى تستهلكه اسرائيل خلال العمليات الحربية.

وتلقت غرفة العمليات ما يفيد اغلاق طريق امداد اسرائيل بالبترول الايرانى والذى كان يصل إلى ١٨ مليون طن سنويا يعاد تصدير بعضه إلى أوروبا. وكان ضمن بلاغات التمام الصادرة عن القوات البحرية المصرية بث الألغام فى خليج السويس واغلاقه أمام النشاط البحرى المعادى.

وهكذا كانت الحرب قد بدأت بالفعل بالنسبة لبعض الوحدات قبل ساعة الصفر بخمسة أيام عندما وقفت قطع البحرية قرب مضيق باب المندب جنوب البحر الأحمر وخرجت الغواصات المصرية من قواعدها فجر اليوم الأول من أكتوبر ١٩٧٣ لتتخذ أوضاع القتال أمام سواحل سيناء.

وكانت الأوامر تقضى بفرض الصمت اللاسلكى الكامل على هذه الوحدات البحرية لحين صدور اشارات خاصة إليها ـ لن تصدر إلا بعد ساعة الصفر.

وكان للوحدات البحرية دور رئيسى فى خطة الخداع. لقد كان عليها أن توجه ضربات مركزة من البحر إلى مراكز قيادة العدو ونقاط سيطرته شرق بوفؤاد فى بالوظة ورمانة مع تمثيل عمليات انزال من البحر يكملها هجوم خادع من معبر شمال القنطرة. وكان ذلك كفيلا بايهام العدو بأن هذا هو أحد المحاور الرئيسية للهجوم المصرى.

وكانت هناك تمثيلية مشابهة تم الاعداد لها شرق البحيرات المرة بواسطة اللواء البرمائى الذى سيعبر البحيرات ويتجه شرقا نحو منطقة المضايق مما يوحى بوجود محور رئيسى للهجوم. ومن هذا المحور الخادع تنطلق سرية ميكانيكية برمائية مع عدد من الدبابات فى اتجاه ممر متلا وسرية أخرى فى اتجاه مضيق الجدى لتبث الذعر فى مواقع العدو وتضعف سيطرته على قواته، وتعود بعد ذلك لتنضم إلى وحداتها الرئيسية شرق القناة.

وأبلغت قوات الصاعقة عن تمام استعدادها للانتقال جوا إلى عمق العدو لعرقلة طلائع الهجوم المضاد بعد إتمام عمليات العبور.

وبثت وكالات الأنباء من رومانيا ومصر خبرا عن قيام وزير الدفاع الرومانى بزيارة رسمية إلى مصر. وكان ضمن جدول الزيارة الرسمى اجتماعه بوزير الحربية المصرى يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٧٣ وحضور مأدبة عشاء رسمية ونشر فى كل الصحف هذا الخبر. ونشرت جريدة «الأهرام» خبرا آخر عن تعليمات من وزير الحربية بشأن إعداد سجل لتسجيل أسماء الضباط الراغبين فى أداء العمرة فى رمضان.

وفى نيويورك كانت تجرى أحداث تبدو عادية لكنها لعبت دورها فى الخديعة. لقد كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تعقد جلساتها فى نيويورك، وكان وزير خارجية مصر محمد حسن الزيات - يرأس وفد مصر فى هذه الاجتماعات وتلقى الوزير المصرى رغبة وزير الخارجية الأمريكى - هنرى

كيسنجر - الاجتماع به فى نيويورك على هامش اجتماعات الجمعية العامة يوم الجمعة الخامس من أكتوبر ليناقش معه الموقف العام فى الشرق الأوسط.

واتخذ الرئيس السادات قرارا بعدم إبلاغ وزير الخارجية محمد حسن الزيات بموعد الهجوم المصرى وتكليفه بمناقشة المبادرات السلمية المتوقعة مع وزير خارجية أمريكا ومحاولة إقناعه ببذل المزيد من الجهد فى سبيل الحل السلمى.

لكن التفاؤل بنجاح خطة الخداع لم يكن كاملا.

وظهرت علامات وبوادر وتحركات تشير إلى أن إسرائيل تعرف أن الحرب على وشك أن تندلع وأن المصريين استعدوا لعبور القناة.

الفصل السادس

إسرائيل تتنبه

عندما هبطت طائرة جولدا مائير فى مطار بن جوريون مساء يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر ١٩٧٣ قادمة من فيينا وجدت رئيسة الوزراء فى انتظارها تقريرا يتضمن تفاصيل المعلومات التى سبق إبلاغها بها خلال زياراتها للنمسا.

كان الهدف من التقرير اقناع رئيسة الوزراء بمناقشة فكرة استدعاء الاحتياط الاسرائيلى. وكانت هى فى قرارة نفسها تعارض الفكرة من أساسها دون أن ترفض فكرة المناقشة. وكان شاغلها الأول فى هذا اليوم هو قرار المستشار النمساوى الدكتور برونوكريسكى إغلاق مركز استقبال المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتى والمقام فى قلعة «شونو» قرب فيينا والتى ينتقل منها المهاجرون اليهود بالاتوبيسات إلى المطار ليستقلوا طائرات شركة «العال» إلى إسرائيل.

وفى النمسا كانت جولدا مائير قد استقبلت حَامِل التقرير الوزير «يزرائيل جاليلى» يوم الاثنين أول أكتوبر وقال لها إنه اجتمع مع موشى ديان وبحث معه ضرورة مناقشة الموقف فى الجولان وأكدت جولدا مائير أنها ستفعل ذلك فور وصولها فى الغد إلى تل أبيب.

لكن الاجتماع انعقد صباح الأربعاء ٣ أكتوبر ولم يخطر ببال أحد من المجتمعين أن هذا هو اليوم (ى - ٣) أى قبل الحرب بحوالى ٧٠ ساعة.

ضم الاجتماع وزير الدفاع موشى ديان والجنرال ديفيد إليعازر رئيس أركان القوات الإسرائيلية الشهير بلقب «دادو» ويزرائيل جاليلى وزير الدولة ومستشار رئيسة الوزراء والجنرال إلى زائيرا مدير المخابرات الحربية (لوكادرا) ولم تستطع رئيسة الوزراء جولدا مائير تجاهل الحديث عن رحلتها الفاشلة إلى النمسا وقالت إن الهجوم الذى شنه الفلسطينيون على القطار النمساوى الذى ينقل المهاجرين اليهود دفع المستشار كرايسكى إلى إغلاق معسكر «شنو» ووقف استقبال يهود الاتحاد السوفيتى ونقلهم إلى إسرائيل.

وتدخل «دادو» وهو رئيس الأركان ديفيد إليعازر ليفرض على المجتمعين العودة إلى الموضوع الرئيسى فى جدول أعمال هذا الاجتماع.

قال إليعازر إن الموقف على الجبهتين المصرية والسورية لا يمثل خطورة ومن المستبعد وقوع هجوم مصرى سورى مشترك.لقد قام السوريون بحشد قوات إضافية على الجبهة منذ المعركة الجوية التى سقطت فيها ١٢ طائرة لكنهم لم يتمكنوا من القيام بهجوم منفرد.أما الجبهة المصرية فتشهد حلقة من حلقات تحركاتها المستمرة طول العام وهى تقوم بمناوراتها السنوية التى تشمل نقل قوات مختلفة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق.. وبالعكس.

ولا نوصى بالموافقة على استدعاء قوات الاحتياط.

وتحدثت جولدا مائير عن تجاربها السابقة مع المصريين. قالت إنها لا تريد أن تكرر تجربة شهر مايو الماضى. لقد سجلنا يومها تحركات مصرية واسعة وتم رصد العديد من معدات العبور والكبارى المحمولة وهى تنقل من العمق إلى الجبهة المصرية. وتلقينا معلومات وثيقة عن تحرك معدات العبور على الطريق القريب من مطار القاهرة فى اتجاه السويس. وشاهدها أحد الملحقين العسكريين فى القاهرة من أصدقائنا.ويومها قالت أجهزة مخابراتنا إن الحرب

لن تندلع من جديد وأن المصريين غير قادرين على عبور القناة لا الآن ولا مستقبلاً. ورغم ذلك فقد قررنا يومها أن نأخذ الأمر بجدية. وانتقلت بنفسى ومعى عدد من الوزراء ومعنا حاييم بارليف وزير الصناعة إلى المركز الرئيسى للمخابرات العسكرية لنناقش تفاصيل الموقف ونعد للتعبئة. ولكن شيئا لم يحدث. وما نراه الآن على الجبهة المصرية أقل مما تم رصده فى مايو الماضى. وما دام أحد لم يطلب التعبئة فإننى أيضاً لن أفكر فيها.

وسيعقد مجلس الوزراء الإسرائيلى اجتماعه المعتاد بعد ثلاثة أيام يوم الأحد ٧ أكتوبر عقب أجازة العيد وسنواصل يومها بحث الموقف بكل أبعاده وتطوراته اللاحقة.

وبينما كان المجتمعون يغادرون مكتب رئيسة وزراء إسرائيل كانت أحداث اليوم (ى - ٣) تتلاحق داخل مراكز القيادة والسيطرة على الجبهة المصرية مع اتمام الحشد على محاور الجيشين الميدانيين الثانى والثالث.

واستكملت وحدات المهندسين استعداداتهما لفتح ٧٠ ثغرة فى الساتر الترابى بحجم ١٥٠٠ متر مكعب لكل ثغرة وإنشاء ١٠ كبارى ثقيلة لعبور الدبابات والمدفعية الثقيلة و٥ كبارى خفيفة تماثل تماماً فى شكلها الكبارى الثقيلة ولكن الهدف منها جذب نيران العدو وخداعه وصرف انتباهه عن مناطق العبور الرئيسية بالإضافة إلى ١٠ كبارى اقتحام لعبور المشاة صنعتها إدارة المهمات المصرية. كما تم تجهيز ٧٢٠ قارباً مطاطياً للمشاة مع ٣٥ معدية عبور. وأصبح من المتوقع الانتهاء من فتح الثغرات وتشغيل المعديات الساعة (س + ٥) قد تتأخر فى بعض المواقع بفعل نيران العدو لتصل إلى (س+٧) أى الساعة التاسعة مساء السبت ٦ أكتوبر.

وفى ذلك اليوم - يوم الأربعاء ٣ أكتوبر ١٩٧٣ - وهو اليوم (ى - ٣) هبطت طائرة عسكرية فى إحدى القواعد الجوية السورية قرب دمشق وكان عدد ركابها اثنين فقط هما الفريق أحمد إسماعيل وزير الحربية المصرى واللواء بهى الدين نوفل رئيس أركان القيادة المصرية - السورية الاتحادية. ونقلتهما سيارة مرسيدس تحمل أرقاما مدنية (خصوصى) إلى الاستراحة القريبة من المطار ليكون فى انتظارهما وزير الدفاع السورى اللواء مصطفى طلاس.

وسر هذا الاجتماع يرجع إلى رغبة القيادة السورية تأخير اليوم (ى) لمدة ٤٨ ساعة لاستكمال وتهيئة الجبهة الداخلية للحرب، والانتهاء من تفريغ صهاريج البترول فى مصفاة التكرير بمدينة حمص. لكن المناقشة أسفرت عن بقاء اليوم (ى) هو السبت السادس من أكتوبر باعتباره أنسب الأيام لتحقيق المفاجأة واستغلال أجازة يوم الغفران (عيد كيبور) عند اليهود، بالإضافة إلى أن الحرب كانت قد بدأت فعلاً بالنسبة لبعض الوحدات المصرية ومنها الغواصات والقطع البحرية التى غادرت قواعدها مع فرض الصمت اللاسلكى عليها واستحالة الاتصال بها.

وعاد وزير الحربية المصرى إلى القاهرة ليجد مفاجأة فى انتظاره. لقد تبين أن شركة «مصر للطيران» قامت بإلغاء رحلاتها الجوية وبدأت فى تنفيذ إخلاء طائراتها من مطار القاهرة كما أصدرت تعليمات لطائراتها فى الخارج بالبقاء حيث هى وعدم القيام برحلاتها المقررة إلى القاهرة.

ويرجع هذا التصرف إلى سوء فهم للتعليمات التى وجهها الرئيس السادات لعدد من الوزراء- بينهم وزير الطيران المدنى - بشأن الاستعداد لأى احتمالات مفاجئة قد تقع بين لحظة وأخرى. وقد لاحظ وزير الطيران تصاعد حالة الاستعداد وتوقع باجتهاده الشخصى أن تقوم إسرائيل بضربة مفاجئة وقائية على غرار ما حدث عام ٦٧ واستصوب حماية طائراته من التدمير.

وفى اتصال عاجل بين وزير الحربية ووزير الطيران المدنى تم تدارك الموقف وإلغاء تعليمات وزير الطيران وعادت حركة الطائرات إلى حالتها الطبيعية بعد خمس ساعات من التوقف الذى أربك حركة المسافرين وحشد الركاب فى قاعات الانتظار.

ولم يكن لذلك أى انعكاس أو رد فعل فى إسرائيل التى لم يتغير الموقف فى تصورها عما كان فى اجتماع رئيسة الوزراء واستمرت حالة الترقب المعتادة حتى اختلف الأمر فى اليوم التالى.

وبينما كان العسكريون يضعون اللمسات الأخيرة فى خطة الخداع والتمويه كان الرئيس السادات يضع اللمسات الأخيرة فى الخطة السياسية. واستقبل يومها مستشار الأمن القومى حافظ إسماعيل الذى أطلعه على مسودات البيان الذى سيلقى باسم مصر فى مجلس الأمن عند انعقاده المتوقع بعد نشوب الحرب وكذلك التعليمات التى سيتم إبلاغها إلى وزير الخارجية الدكتور محمد حسن الزيات الموجود فى نيويورك والذى لم يعرف بعد شيئاً عن الحرب التى توشك أن تقع.

وتم تجهيز قصر الطاهرة ليكون مقراً للقيادة السياسية أثناء الحرب .. وبدأ الرئيس السادات يستعد للانتقال إليه. وأخر الرئيس السادات انتقاله إلى هناك عندما تلقى طلباً عاجلاً من السفير السوفيتى فى القاهرة يطلب مقابلته. وتمت المقابله فى السابعة مساء وقدم خلالها السفير رسالة من الرئيس السوفييتى برجينيف يطلب فيها سحب المستشارين المدنيين وأسرهم من مصر. وكان ذلك موضع استياء الرئيس السادات لكنه لم يستطع رفضه.

وفى اليوم التالى وصلت بالفعل ست طائرات سوفييتية «طراز اليوشن» لتنقل المستشارين وأسرهم إلى بلادهم. وتكرر ذلك فى سوريا .. وعرف به العدو الإسرائيلى واستطاع أن يكسر بواسطته حلقات الخداع مستشعراً الخطر بصورة جدية .. ولأول مرة. عندما كان المستشارون السوفييت وأسرهم يتجهون إلى المطار كان الرئيس السادات يتجه إلى قصر الطاهرة ليخلع ملابسه المدنية ويرتدى الزى العسكرى للقائد الأعلى للقوات المسلحة. لكنه لم ينتقل إلى المركز الرئيسى للقيادة إلا ظهر اليوم (ى) السادس من أكتوبر وهو المركز المعروف باسم «الموقع رقم ١٠» غير أن جميع القادة العسكريين كانوا بالفعل يقيمون داخل الموقع رقم (١٠) ما عدا وزير الحربية. ومن داخل الموقع (١٠) تمت مراجعة خطة أولويات العبور طبقاً للأسبقيات المقررة. وبدأ مع يوم الجمعة ٥ أكتوبر (ى – ١) وضع العلامات والأرقام الإرشادية على النقاط المقررة للعبور والتى ستتم إضاءتها بالأضواء الملونة مساء السبت بعد آخر ضوء لليوم (ى).

ومع هذه المرحلة بدأ العدو يفهم ما يجرى على الجبهة المصرية وبدأت آثار الخداع تزول تدريجياً .. لكنه لم يتوقع ساعة الحرب وبقيت الساعة (س) لغزاً بالنسبة له.

كانت أولويات العبور تقضى بتقسيم وحدات المشاة المكلفة بالعبور إلى مجموعتين. المجموعة الأولى هى مجموعة المترجلين الذين يقتحمون القناة فى قوارب مطاطية ثم يتحركون على أرجلهم وبسلالم من الحبال ليصلوا إلى الضفة الشرقية. والمجموعة الثانية تضم الوحدات والأطقم ذات الأسلحة الثقيلة التى تنتظر على الضفة الغربية إلى أن يتم فتح الممرات فى السد الترابى وتشغيل المعديات والكبارى. ويتم العبور فوق المعديات والكبارى طبقاً لأهمية كل مركبة وحاجة المشاة إليها وعلى أساس أسبقيات ست أولاها الدبابات وعربات القتال وعربات اللاسلكى والهاونات الثقيلة وبعض عربات نقل الذخيرة. أما الأسبقية التالية فتشمل وحدات المدفعية ووحدات الدفاع الجوى وعدداً آخر من عربات نقل الذخيرة. ويلى ذلك قوات الأسبقية الثالثة من العناصر الإدارية لكتائب المشاة وكتائب المدفعية المضادة للطائرات. والأسبقية الرابعة تتكون من الوحدات الإدارية على مستوى الألوية. وتأتى الوحدات الإدارية على مستوى الفرقة فى الأسبقية الخامسة أما الأسبقية السادسة الأخيرة فتضم العربات المخصصة لركوب أفراد المشاة الذين عبروا بالقوارب ويتم تحركها للعبور مع بداية اليوم الثالث فى الساعة (س + ٤٥) وكل منها فى التوقيت المعين لها وبالترتيب المحدد.

وهذا الحجم من القوات لم يكن ليخطر ببال القيادة الإسرائيلية وإنما ظل يشكل مفاجأة كاملة لها حتى بعد أن شعرت بما يجرى وبدأت تستعد له وتتحرك لمواجهته.

كانت رئيسة الوزراء جولد مائير تستعد لمغادرة مكتبها بعد ظهر الجمعة ٥ أكتوبر بعد أن قررت قضاء أجازة العيد بمنزلها فى «برامات أفيف» لتعود إلى القدس صباح الأحد حيث سينعقد الاجتماع المقرر لمجلس الوزراء الإسرائيلى.

لكنها تلقت تقريرا عاجلاً شعرت معه بكثير من الخوف. كان التقرير يقول إن طائرات ركاب سوفييتية من طراز اليوشن وصلت إلى دمشق وإنها تقف فى انتظار عائلات الخبراء السوفييت فى سوريا لتقلهم إلى موسكو، وأن أفراد العائلات السوفييتية قاموا بحزم أمتعتهم على عجل استعداداً للرحيل.

وأجرت جولدا مائير ثلاثة اتصالات تليفونية بوزير دفاعها موشى ديان ورئيس الأركان ديفيد إليعازر - الذى تلقبه باسم دادو - وبمدير الاستخبارات إلى زائيرا. وكان سؤالها إلى كل منهم يدور حول مدلول هذا التقرير. لكن أحدا منهم لم يجزم بأن هجوماً سورياً يمكن أن يقع على الفور وأن ترحيل أسر الخبراء السوفييت يمكن أن يسبق أية عمليات عسكرية بأيام أو بأسابيع. واستبعد إليعازر قيام سوريا بعمل عسكرى منفرد وأكد أيضاً أن ما يجرى على الجبهة المصرية هو تكرار لما سبق وما تكرر على مدى شهور طويلة كان آخرها مايو الماضى.

ورغم ذلك اتفقوا جميعاً على عقد اجتماع فى المساء وتأجيل برامجهم السابقة المعدة ليوم كيبور. وقررت رئيسة الوزراء أن يكون الاجتماع موسعاً وأن يحضره كل الوزراء الموجودين فى تل أبيب.

واكتمل الاجتماع فى السابعة والنصف مساءً بمكتب رئيسة الوزراء فى تل أبيب، وشهده أعضاء الوزارة الإسرائيلية ومعهم الجنرال إليعازر رئيس الأركان والجنرال زئيرا مدير الاستخبارات.

وبدأت جولدا مائير رئيسة الوزراء الحديث قائلة:

إننى أشعر بالضيق وأستشعر خطراً ينبع من مصدرين أولهما ما يتردد الآن فى أجهزة الإعلام والصحف العربية حول رفض إسرائيل للسلام الذى يتطلع إليه العرب وتصويرنا فى صورة الذى يستعد للحرب من جديد. والمصدر الثانى هو خروج أسر الخبراء السوفييت من سوريا على وجه الاستعجال.

إن ذلك سبق أن وقع فى الماضى ويذكرنى بما حدث فى مايو ١٩٦٧ عندما اتهمنا العرب بأننا نحشد قواتنا ضد سوريا. وهذا ما تقوله الصحافة

العربية الآن. ويومها قرر العرب توجيه ضربة عسكرية إلينا لولا أن تحركنا فى عملية وقائية حققت النصر لإسرائيل.

وتولى الرد حاييم بارليف وزير الصناعة والخبير العسكرى المتخصص فى شئون الدفاع وصاحب فكرة الخط الدفاعى الحصين شرق القناة المعروف باسمه. قال بارليف إن الأمر لن يستوجب توجيه ضربة وقائية ولا استدعاء الاحتياط الآن. لكن ذلك لا يمنع من إلغاء الأجازات ورفع حالة الاستعداد خاصة فى أجهزة الدفاع الجوى مع بقاء الاتصال المستمر قائما بين رئيسة الوزراء ووزير الدفاع موشى ديان. واقترح الوزير جاليلى الاتصال بواشنطن قبل بدء أجازة نهاية الأسبوع - غداً السبت - ومطالبتهم بالاتصال بالسوفييت وبالتأكيد على أهمية بقاء الهدوء فى الشرق الأوسط.

وانفض الاجتماع بعد إرسال بلاغات تحذير إلى وحدات الدفاع الجوى الإسرائيلى ورفع حالة الاستعداد وإلغاء الأجازات دون أى تفكير فى استدعاء قوات الاحتياط.

ولم يعد أمام إسرائيل فرصة لتداول الموقف أو مجابهة الخديعة التى وقعت ضحية لها. فقد بدأ العيد. وتوقفت الإذاعات والتليفزيون عن البث وتوقفت معها كل وسائل استدعاء الاحتياط بالطرق العلنية. وساد الجمود كل جوانب الحياة فى إسرائيل ليظل القلق محصوراً بين رئيسة الوزراء ووزير الدفاع طبقاً لما استقر عليه الرأى فى الاجتماع الليلى من مساء الجمعة.

ولم تستطع رئيسة الوزراء أن تحضر عشاء ليلة العيد التى أعدها ابنها «ميناحيم» وابنتها «وايا» لأصدقائهما وهو العشاء الذى يسبق صيام يوم الغفران - كيبور - واتجهت مباشرة إلى مخدعها فى محاولة للتغلب على الأرق.

وبعد لحظة طلبت مائير من سكرتيرها العسكرى «ليور» أن يستدعى كلا من جاليلى وألون ودادو وديان للاجتماع فى مكتبها قبل الساعة السابعة صباحاً.

وكـان ديان مـسـتـيـقظاً فـقـد تلقى نفس المعلومـات قبل أن تتلقـاها رئيـسـة الوزراء. لقد دق جرس التلفون الأحمر بجوار سريره قبل الرابعة فجراً بدقيقة أو دقيقتين .. وقال محدثه بوضوح كلمات قاطعة:

«مصـر وسوريا ستـدخـلان الحـرب ضـدنا قبل الغـروب . الخبـر مـؤكد من مصدر رفيع المستوى طلب أن يبلغه بنفسه لرئيسة الوزراء».

وقفز وزير دفاع إسرائيل من سريره ليرتدى زيه العسكرى بسرعـة ويتجـه إلى مكتبه فى وزارة الدفاع. وقبل أن يغادر بيته طلب رئيس الأركان الجنرال ديفيد إليعازر ليلحق به فى وزارة الدفاع.

وكان «أليور» سكرتير رئيسة الوزراء العسكرى قد أبلغه بموعد اجتماعـهم مع مـائيـر. وفى مكتب ديان اقـتـصـر الاجـتـمـاع عليه وعلى رئيس الأركـان إليعازر وتطرق إلى أربع نقاط:

(١) استدعاء الاحتياط وتعزيز الجبهات.

(٢) توجيه ضربات جوية فى هجوم وقائي.

(٣) إخلاء النساء والأطفال من المستعمرات الحدودية فى الجولان.

(٤) توجيه إنذار إلى مصر وسوريا لدفعهما إلى التراجع والظهور أمام العالم بأن مسئولية الحرب لا تقع على إسرائيل.

وطلب رئيس الأركان موافقة رئيسة الوزراء على استدعاء الاحتياط وتوجيه هجوم وقائى على الجبهتين. ولم يكن هناك اعتراض على استدعاء الاحتياط لكن الضربة الوقائية كـانت موضع البحث فى الاجتماع التالى الذى تم عقده بعد ساعة واحدة فى بيت رئيسة الوزراء والذى عرف باسم اجتماع المطبخ.

واكتمل الاجتماع فى مطبخ بيت جولدا مائير فى الثامنة صباحاً. وتحدثت مائير عن المعلومات التى أبلغها «الصديق» الأردنى قائلة إنها معلومـات دقيقة

لا تستند إلى تحركات عسكرية معينة ولكنها تستند إلى معلومات عن القرار العربى بدخول الحرب.

وأشار ديان إلى أن هذه المعلومات قد سبق أن جاءت من قبل، وبالذات فى شهر مايو السابق وتم استدعاء الاحتياط بكل ما يترتب عليه من تبعات وتكاليف باهظة دون جدوى. وربما تعمد أحد تسريب هذه المعلومات بعد أن وجد رد الفعل لدى اسرائيل لا يتناسب مع التحركات الجارية فى سوريا ووجود معدات عبور تصاحب كل الوحدات المصرية المشاركة الآن فى المناورات التدريبية.

لكن المجتمعين لم يترددوا فى أخذ الأمر بكل جدية. واتفق الجميع على حتمية استدعاء الاحتياط وفتح قنوات الاتصال مع أمريكا، وإخلاء النساء والأطفال من المستعمرات الاسرائيلية على الحدود السورية.

أما عن توجيه ضربة وقائية فقد تم الاتفاق على تأجيلها مع الإعداد لها بحيث تتم على الجبهة السورية فقط وتوجه إلى قواعدها الجوية الداخلية ونظام دفاعها الجوى الصاروخى وليس على منطقة الجبهة.

وصدرت الأوامر باستدعاء قوات الاحتياط بالطرق التقليدية وليس بالوسائل العلنية نتيجة توقف الاذاعات والتليفزيون خاصة إنه لن يجرى تشغيلهما يوم العيد لأن أحداً لن يستمع إليهما لأن الناس فى اسرائيل تعرف أنهما لا يعملان فى يوم كيبور.

وقدر رئيس الأركان القوات التى سيتم انضمامها إلى القوات العاملة بين ١٠٠ ألف أو ١٢٠ ألف مقاتل يمكن حشدهم بعد ساعات من بدء الهجوم العربى المقرر موعده قبل غروب شمس ٦ أكتوبر. وقال إن الطيران الإسرائيلى يستطيع أن يبدأ بضربة مباشرة فى المساء حتى لو تراجع العرب عن هجومهم. لكن مائير لم توافق على الضربة الجوية ووافقت على الإعداد لها حتى تتكشف الأمور بوضوح أكثر. وطلبت وزير خارجيتها أبا ايبان فى

نيويورك حيث كان يحضر اجتماعات الأمم المتحدة ويقيم فى فندق «والدورف استوريا».

كما استدعت سفير اسرائيل فى واشنطن - سمحا دنيتز - الذى كان يقضى العيد فى إسرائيل وطلبت منه السفر إلى واشنطن على الفور.

كما طلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب - كينيث كيتنج - ليجتمع معها فى أسرع وقت.

قالت مائير للسفير الأمريكى إن الهجوم سيكون فى المساء من الجبهتين المصرية والسورية وهذا ما تؤكده معلومات المخابرات وتحليل المعلومات الخاصة بالتحركات السورية والمصرية. ولذلك فإن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم فقد يتراجع السادات كما فعل من قبل وقد تتدخل واشنطن ومعها السوفييت. وطلبت من السفير الأمريكى إبلاغ ذلك إلى وزير خارجيته هنرى كيسنجر وإلى الرئيس الأمريكى الذى يستطيع أن ينقل ذلك إلى السوفييت عبر خط التليفون الساخن مع موسكو.

وعندما توجه السفير الأمريكى إلى مكتبه للاتصال بواشنطن كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣. وكان السؤال الذى يتكرر بصور مختلفة داخل الموقع (١٠) الذى يسيطر على حركة الحرب فى الجبهة المصرية هو: هل عرف الاسرائيليون؟ ومتى عرفوا؟.

كان قد تم رصد طائرتى استطلاع اسرائيليتين بالقرب من قناة السويس فى الساعة التاسعة والنصف صباحاً. لم تعبر الطائرتان إلى غرب القناة لكن تجهيزاتهما تتيح لهما الاستطلاع والتصوير من فوق سيناء. ولابد أن تكون إسرائيل قد تأكدت من وجود الجسور ومعدات العبور قرب شواطىء القناة.

لكن الاستطلاع الاسرائيلى رصد أيضاً الجنود المصريين يلعبون الكرة على حافة القناة بينما يسبح بعضهم فى مياه القناة نفسها.

ولم ترصد طائرتا الاستطلاع هذا العدد الكبير من مكبرات الصوت المنتقلة التى بدأ توزيعها على الوحدات دون أن يعرف أحد أنها مخصصة لترديد صيحة «الله أكبر» من خلالها مع أولى موجات العبور.

كما لم ترصد طائرات الاستطلاع وصول وزير الحربية المصرى الفريق أول أحمد إسماعيل إلى قصر الطاهرة ليصطحب من هناك الرئيس أنور السادات فى زيه العسكرى لينضما معاً إلى الرجال فى المركز رقم (١٠).

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر كانت الساعة (س - ١) عندما وصل الرئيس السادات والفريق أحمد إسماعيل إلى المركز رقم (١٠) لتغلق أبوابه الحديدية ويمنع تماماً الدخول إليه أو الخروج منه.

ويتم ضبط جميع الساعات لأقرب ثانية. وترفع جميع خرائط المناورات التدريبية «تحرير ٢٣» لتحل محلها خرائط العملية الهجومية «بدر» وتتوالى الإشارات إلى قيادات الجيش الثانى الميدانى والجيش الثالث الميدانى بإنجاز المهام القتالية اعتباراً من الساعة ١٤٠٥ وهى ساعة الصفر (س) من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ (ى).

وتصدر التعليمات للدكتور محمد عبد القادر حاتم وزير الإعلام بتنفيذ الشق الإعلامى للخطة الهجومية طبقاً للمتفق عليه، واعتباراً من (س - ٣٥ ق) وهنا تقطع الإذاعة المصرية برامجها فى الساعة ١٣٣٠ الواحدة والنصف بعد الظهر لتذيع الخبر التالى:

«جاءنا الآن أن عناصر من القوات الإسرائيلية المسلحة هاجمت مواقعنا فى الزعفرانة، وهذا الهجوم يمثل خرقاً خطيراً لوقف إطلاق النار. وقد تم إبلاغ مجلس الأمن الدولى بهذا العدوان».

وبعد إذاعة هذا النبأ استأنفت إذاعة القاهرة برامجها العادية لتقطعها مرة أخرى فى الساعة الثانية بعد الظهر وتذيع المارشات العسكرية. وعندما بدأت إذاعة القاهرة فى بث الموسيقى العسكرية كانت الأوامر تخرج من المركز رقم

(١٠) إلى جميع القواعد الجوية حيث الطائرات على أتم استعداد لتوجيه الضربة الجوية المفاجئة والمؤثرة إلى جميع مطارات العدو ومراكز قياداته ومناطق حشد مدفعيته فى سيناء.

وعلى ارتفاعات منخفضة جدا عبرت ٢١٠ طائرات مصرية القناة فى وقت واحد لتطلق قذائفها ونيرانها على الأهداف المعادية فى تمام الساعة ١٤٠٥ ولتنطلق فى نفس اللحظة قذائفها ٢٠٥٠ مدفعاً مصرياً نحو أهدافها فى سيناء... ويسبح فى مياه القناة أفراد الصاعقة والمهندسين والضفادع متجهين إلى مخارج مواسير السوائل المشتعلة للتأكد من إغلاقها وعدم قيام العدو بإصلاح شئ منها..

وفى تلك اللحظة كان الاسرائيليون يستعدون لمواجهة الهجوم المتوقع فى السادسة مساء عندما انطلقت صفارات الانذار فى كل أنحاء اسرائيل وتم استدعاء القادة العسكريين إلى نقطة القيادة الاسرائيلية المعروفة باسم «كدم» والشهيرة باسم «الحفرة» تحت سطح الأرض فى مركز مجموعة العمليات.

وهناك كان فى انتظار الجميع البيان الأول الذى يؤكد أن المصريين عبروا قناة السويس بطول خط المواجهة كله تحت ستار نيران أكثر من ٢٠٠٠ مدفع تسبقها ضربات مركزة على مراكز السيطرة والقيادة والمطارات قامت بها أكثر من ٢٠٠ طائرة مصرية وأن العلم المصرى يرفرف الآن فوق النقاط الحصينة لخط بارليف شرق القناة..

وكانت هذه هى البداية..

الباب الثانى

العبـــور

الفصل الأول

ساعات قبل المعركة

يخطئ من يتصور أن عمليات عبور قواتنا الضاربة قناة السويس إلى سيناء، كان للمصادفة فيها أى دور لقد صادفنا خلال هذه العمليات توفيق كبير.. توفيق من الله، وكنا أيضا نعمل ومنذ وقت طويل لهذا اليوم وكانت هناك استعدادات وجهود تبذل من أجل أن يتم هذا العمل الكبير وبنجاح..

كانت هناك خطة للإعداد

وكانت هناك خطة للعمليات

وبالنسبة للإعداد فقد كان على قواتنا أن تستعد وتتدرب على القيام بدورها فى العمليات وعلى عبور هذا المانع المائى الكبير الذى يعد من أكبر الموانع الطبيعية فى العالم وأصعبها، ولو أنه كان عملا صناعيا فى الأصل..

وليس من الممكن أن نشبه عمليات عبور قناة السويس بعمليات عبور أخرى قامت بها أى قوات من قبل. مثل عبور نهر الفولجا مثلا. لأن جميع الموانع المائية التى عبرتها قوات محاربة من قبل كانت مجرد أنهار لايزيد عرضها على نصف عرض قناة السويس البالغ عرضها فى بعض المناطق أكثر من ١٨ مترا من المياه العميقة..

وكان على قواتنا البرية أن تبدأ ومنذ عدة سنوات خلت قبل معركة العبور فى التدريب على عمليات الإعداد للعبور والتدريب على إنشاء معدات العبور من كبارى ومعابر وغيرها..

وأصبح من الممكن الآن أن نعلن وبوضوح ان ذلك كله كان يحدث.. بل وكانت عمليات الاستعداد لمعركة العبور - ثم معركة التحرير - والتدرب على جميع مراحلها التى جرت بعد ذلك .. هو الشاغل الوحيد لكل رجال قواتنا المسلحة..

وشاهدت وعشت بنفسى بعض مراحل الاعداد والتدريب.. ولم يكن كل ما نراه قابلا للنشر فى ذلك الوقت ليصبح الآن فى متناول النشر. ولو أن الأحداث قد فرضت نفسها بحيث أصبح الحديث عن هذه المرحلة يكاد يكون حديثا عن تاريخ.. ولكنه تاريخ مشرق ومشرف.. يجب أن يكون له مكانة بين هذه الكلمات..

كان سرا ولم يعد الآن.

ان قواتنا المسلحة أعدت على نهر النيل ميدانا للتدريب على عمليات الاعداد للعبور وعلى عمليات العبور نفسها.. وان قواتنا المسلحة كانت تقضى أياما وليالى فى التدرب على ذلك اعتبارا من إعداد مكان بالضفة الأخرى لاستقبال الجسر أو المعبر وحتى الانتقال بين الضفتين بقوارب المطاط (الدناجى) وكانت قواتنا المسلحة تجرى أيضا تجارب ودراسات حول كيفية التعامل مع ردم الرمال الذى بناه العدو على طول الضفة الشرقية للقناة بادئين بكيفية الوصول إلى أعلاه وفتح الثغرات المنخفضة فى جداره حتى يمكن أن توضع فوقه أطراف المعابر أو الجسور لتعبرها وتتخطاها الدبابات وباقى معدات قواتنا الثقيلة..

وكان لسلاح المهندسين المصرى دوره العظيم فى هذا المجال.. لقد عاش رجاله سنوات ضمن خطة تدريبية موضوعة ومنفذة ومقيدة بجد اول زمنية، يعدون لهذا اليوم الكبير.. يوم العبور..

وداخل كل وحدة من وحدات قواتنا المسلحة وفى كل تشكيل من تشكيلاتها كانت الخطة التدريبية تسير فى طريقها نحو هدف واحد..

وكانت وحدات المشاة المصرية تتدرب على العمليات المتوقعة قبل وأثناء وبعد العبور.. وتم تدريب المشاة الراكبة على التحرك مع فتح النيران لتكون قادرة على الاشتباك مع وحدات العدو من احتياطيه التكتيكى خلف الخط الاسرائيلى الأول شرق القناة فى أدق اللحظات وأخطرها..

وكانت الخطة نفسها تطبق فى وحدات المدرعات والمدفعية.. وكانت الخطة التسليحية تخدم بالطبع الخطة التدريبية.

ففى تشكيلاتنا المدرعة كانت العمليات التدريبية على استخدام الدبابات البرمائية والـ (بيكات) التى هى سيارات مدرعة برمائية تستخدم فى النقل - لا تتوقف..

وشملت الخطة التدريبية لقواتنا المدرعة التدريب على عمليات التحرك فوق معابر عائمة وتحت اسوأ ظروف القتال وأى تأثير من النيران..

وخلال الشهور السابقة للقتال - منذ ربيع سنة ١٩٧٢ - كنت أتتبع كمحرر عسكرى عمليات تدريبية واسعة لقواتنا المدرعة تضمنت عمليات الفتح على محاور صحراوية، تماما كما حدث بعد ذلك فى الخريف، وكان من بين ما رأيت - ولم ينشر فى وقته - العمليات المشتركة للمدرعات المصرية تدعمها طائرات القوات الجوية فى الصحراء.. وبالذات فى مناطق تماثل تلك المناطق التى خاضتها المدرعات المصرية بنجاح باهر فى سيناء.

وهناك سر آخر كتمته فى صدرى يفرض نفسه فى بداية الحديث عن المدفعية المصرية التى كانت أول من بدأت معركة العبور الكبير.. هذا السر هو أن قوات المدفعية المصرية أعدت منذ شهور طويلة سبقت المعركة ميادين تدريب مصغرة هى صورة طبق الأصل لميدان عملياتها شرق القناة وزودت هذه الميادين المصغرة بجميع المعالم الطبيعية الموجودة فى ميدان سيناء نفسه

كما وضعت فيها مواقع العدو ومعالم ترمز لوحداته المدرعة وبطاريات مدافعه..

وبالتعاون مع أجهزة المعلومات ووحدات الاستطلاع كانت العلامات التى ترمز الى وحدات العدو فى سيناء تتحرك على هذه الميادين المصغرة طبقا لما يجرى بالفعل على أرض سيناء نفسها.. وكان كل تحرك لقوات العدو وكل تدعيم لها يتضح أولا بأول فوق هذه الميادين المصغرة..

وفى هذه الميادين كان رجال مدفعيتنا يعملون..

كانوا يقفون فى مواجهتها داخل نقط تماثل نقط قواتنا على الجبهة وفى نفس المكان المواجه لها.. وكان دورهم يتلخص فى رصد كل تحرك للعدو.. وتحديد أماكن الضرب وتحركات قواتنا فى مواجهة كل تحرك معاد.. ويصدرون أوامر الضرب وبيانات التصحيح.. تماما كما يجرى على ميدان القتال..

ولم يكن الأمر بعد ذلك يتطلب من رجال مدفعيتنا سوى نقل المعركة وعمليات الضرب من ميدان القتال التدريبى المصغر الى ميدان القتال الفعلى فى سيناء، حيث الرجال يعرفون تماما ـ وطبقا لما نفذوه من عمليات تدريبية ـ أماكن ضرباتهم ومواقع نيرانهم.. وهذا ما حدث بالفعل وما تحقق على ميدان القتال فى سيناء..

ووراء كل نجاح حققته قواتنا الجوية فى معارك سيناء، قصة طويلة رائعة لبرنامج تدريبى ضخم دعائمه الرجال قبل السلاح..

لقد كانت صورة ميادين التدريب المصغرة التى كانت تتدرب عليها قوات المدفعية تتكرر فى الطيران..

أقامت قواتنا الجوية نماذج كبيرة «ماكيتات» لقواعد العدو والاهداف التى ستتعامل معها لتمثل بالنسبة لها ميدان التدريب المصغر.. وفى داخل قواعدنا

الجوية كنت تجد هذه الماكيتات يلتف حولها رجال قواتنا الجوية من الطيارين والملاحين خلال عمليات التلقين «البريفنج»..

.. هذا مطار «المليز» الاسرائيلى .. وهذا مطار «السر» .. وهذا هو مطار «الجفجافة».. وهذه الأسماء بالذات لم اخترها كمجرد مثل بطريق المصادفة ولكننى اخترتها عن عمد لأنها هى ذاتها مطارات العدو التى ضربت فى الساعة الأولى من القتال..

ويسبق مرحلة التدريب على ضرب أهداف العدو وقواعده مراحل طويلة من التدريبات والاستعدادات الأخرى التى تشكل بطولة رائعة سيخلدها التاريخ لرجال القوات الجوية المصرية الذين واجهوا كل نقص طرأ على امكانياتهم.. وضاعفوا ساعات تدريباتهم مع تقدير كامل لعنصر الاقتصاد فى القوى والتكاليف.. وفى هذا الاطار كانت هناك أكثر من كلية جوية واحدة تعمل على تعليم وتدريب الطيارين الجدد فى وقت واحد.. وهذه الكليات مازالت حتى كتابة هذه السطور تقوم بواجبها مما لا يسمح بالاستطراد فى الحديث عنها.. وبالاضافة الى هذا كانت هناك البعثات التدريبية التى خرجت الى دول صديقة ليتدرب أفرادها على العمل بطائرات حديثة وأجهزة متطورة.. وكان من بين هذه البعثات أفراد تخصصوا فى تعليم وتدريب الآخرين على كل ما هو حديث ومتطور لتنتقل المدرسة بعد ذلك الى داخل اراضينا وتستمر العجلة فى الدوران حتى تأتى ساعة الصفر..

وربما كان أبرز أعمال سلاحنا الجوى خلال مرحلة استعداده لمعركة التحرير هى تدريباته وبياناته العملية ومشروعاته على «العمليات الحربية المشتركة» وهذه العمليات كما هو معروف هى أرقى مراحل التدريب.. وخلال هذه العمليات التدريبية قامت قواتنا سواء بأسراب طائراتها المقاتلة أو بالقاذفات المقاتلة، بعمليات مشتركة مع قواتنا المدرعة. وبتدعيم وحدات مدرعة فى عمليات هجومية وفى معارك تصادمية بالإضافة إلى معاونتها فى عمليات الاختراق والتقدم المدرع وهو ما يعرفه العسكريون باسم «المفرزة».

وفى خريف ٧٣ تحقق هذا بالفعل، وتحولت العمليات المشتركة للمدرعات المدعمة بالطائرات الى قتال فعلى ناجح على أرض سيناء.. وبالذات على أرض القطاع الأوسط..

وتضمنت الخطة التدريبية لقواتنا الجوية عمليات مشتركة مع الدفاع الجوى، وكانت دعائم هذه الخطة ـ بالنسبة لقواتنا الجوية ـ هى طائراتنا المقاتلة الاعتراضية التى يقع عليها العبء فى التصدى لمحاولات العدو الجوية الهجومية بالتنسيق مع قوات الدفاع الجوى وكانت واجبات طائراتنا المقاتلة فى هذا المجال تتسع لتشمل حماية قواتنا البرية والبحرية معا خاصة فى مراحل التحرك والهجوم.. وقد حققت المقاتلات المصرية فى هذا المجال نجاحا كبيرا منذ بدء معركة اكتوبر الخالدة..

وبالنسبة لنصيب وحدات الدفاع الجوى المصرية فى خطتنا التدريبية التى سبقت معركة العبور، نرى لها دورا بارزا بصورة تتناسب وماشهد به العالم بعد ذلك لدفاعنا الجوى. وكانت تقارير النجاح الخاصة بالخطة التدريبية لقوات الدفاع الجوى تؤدى فى النهاية إلى نتيجة بسيطة تقول: إنه من الممكن الاعتماد على قوات الدفاع الجوى تماما فى القيام بكل ما يطلب منها وفى تحمل مسئولية أى واجب يقع عليها.

وكانت دعائم الدفاع الجوى المصرى تستند ـ بالإضافة إلى الدفاع الصاروخى الثابت ومدفعية وأسلحة الدفاع الجوى التقليدية ـ إلى أنواع أخرى من الصواريخ ذات الميزات الخاصة التى تناسب العمليات المتوقعة والتى دارت بعد ذلك فى الخريف.. وربما لم يحن الوقت بعد للحديث عنها بالتفصيل إلا أنه من الممكن أن يقال الآن انها كانت ذات كفاءة عالية جدا، وان الفرد المصرى استطاع أن يستخدمها بنجاح كبير فى خلق مجد هذا السلاح الصاروخى الجديد، المضاد للطائرات، الأسرع من سرعة الصوت.. وحتى خلال عمليات طيرانها المنخفض .

ومنذ شهور طويلة سبقت المعركة، كان لدى قواتنا البحرية تفاصيل المهام التى ستكلف بها خلال العمليات المتوقعة.

وكانت الوحدات البحرية وتشكيلاتها المختلفة من مدمرات ولنشات صواريخ وزوارق طوربيد وغواصات وغيرها تقوم بالتدريب والإعداد لدور قواتنا البحرية فى العمليات وهى أولا وبصورة أساسية حماية شواطئنا فى البحرين المتوسط والأحمر مع تنظيم دوريات الحراسة، بالإضافة إلى الدور الهجومى وأبرزه ضرب دفاعات العدو واستحكاماته الساحلية وأهدافه على طول شاطئ سيناء الشمالى بكل ما يضمه من مواقع ذات قيمة استراتيجية كبيرة منها مقر قيادة العدو فى سيناء والذى يقع على البحر، والذى قامت - بعد ذلك - بضربه فعلا. وفى إطار الخطة التدريبية على العمليات المشتركة قامت قواتنا البحرية، ومنذ صيف ١٩٧١ - بالاشتراك فى عدة بيانات عملية مشتركة مع القوات الجوية والقوات البرية ووحدات قواتنا الخاصة.

وكانت هذه العمليات التدريبية المشتركة - التى هى كما قلت أرقى مراحل التدريب - تشكل حلقات سلسلة طويلة من البيانات والمشروعات وهو ما يطلق عليه غير العسكريين اسم «المناورات». ولم تنقطع هذه البيانات العملية أو تتوقف طوال شهور كاملة سبقت معركة العبور.. وكان من بين هذه البيانات مناورات مشتركة للمدرعات والمشاة الميكانيكية تدعمها تشكيلات من طائرات قواتنا الجوية. كما كانت هناك العمليات التدريبية المشتركة للقوات الخاصة بالتعاون مع القوات الجوية والتى كانت تشكل مرحلة من مراحل العمليات تنتهى باللقاء مع (مفرزة) القوات المدرعة، كما أنها تمهد للعمليات الهجومية الأخرى أو تستكملها.

بقى شىء يجب أن يقال هنا.. وهو أن الرئيس أنور السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة كان يشهد معظم البيانات العملية والمشروعات (المناورات) التى تجرى على مستوى الوحدات الكبيرة. ولم يكن يسمح لنا بوصفنا

صحفيين بالإشارة إلى ذلك أو النشر عنه فى حينه.. وكانت هذه المشروعات والبيانات العملية الضخمة تتم فى سرية فى معظم الأحيان، وفى بعض الأحيان كان يشار إليها أو يسمح بنشر صور معينة عنها.

الفصل الثانى

العبور الكبير

كان اليوم الأول للقتال هو أهم وأخطر أيام المعركة..

لقد شهد هذا اليوم الحدث التاريخى الذى طال انتظارنا له..

وعبرت قواتنا المدرعة قناة السويس

ولكن كيف تم العبور؟

وماذا حدث بالتفصيل وانتهى بتدفق قواتنا المدرعة فوق قناة السويس حتى وصلت إلى أرض سيناء ونقلت المعركة التصادمية مع العدو إلى ماوراء دفاعاته الحصينة التى سقطت واستسلمت؟..

تعالوا نتتبع الأحداث لحظة بلحظة..

ولنسمع القصة الآن بعد أن تجمعت معظم خيوطها..

كانت قواتنا فى حالة طوارئ .. أى أنها كانت باختصار داخل قواعدها ووحداتها، وبجميع أفرادها و[جاهزة].

وقبيل الثانية بعد الظهر صدرت الأوامر لتشكيلات من قاذفاتنا، المقاتلة بمهاجمة مطارات العدو فى سيناء وضربها..

وكان لابد أن تضرب هذه المطارات فى وقت واحد.. وهذا ما حدث بالفعل .. وقامت التشكيلات الجوية بالإغارة على المطارات الاسرائيلية.. مطار المليز.. مطار السر.. مطار تمادة .. وقاعدة العريش الجوية.. وكان قدف وضرب كل مطار من هذه المطارات الأربعة يجرى فى نفس الوقت الذى يتم فيه ضرب باقى المطارات.. وكان لهذا أهميته البالغة..

ان وقوع غارة جوية على المطار - أى مطار - تترتب عليها عدة إجراءات سريعة..

فمع أول قذيفة ينتقل الخبر إلى سائر القواعد الجوية فى المنطقة وتتخذ على الفور الإجراءات المعدة من قبل والتى يطلق عليها العسكريون اسم [الأوامر المستديمة] .. وما يهمنا هنامن هذه الأوامر المستديمة هو قيام المقاتلات الاعتراضية للعدو بتحويل [الغارة الجوية] إلى [معارك جوية] .. وبالتالى يفقد عنصر المفاجأة فاعليته..

وكان لدقة خطة ضرب قواعد العدو فى سيناء ودقة توقيتاتها أثره فى تحقيق المفاجأة وكل ما ترتب عليها من آثار.

واضطربت أجهزة العدو وأفراده داخل هذه القواعد.. وحققت طائراتنا الهدف كاملا.. وضربت عددا من طائرات العدو وهى على الارض.. أى خرجت قواعد العدو الجوية فى سيناء - منذ اللحظة الأولى للقتال - من المعركة مؤقتا.. ولكن بفترة كافية أو تزيد.. وكانت هذه الفترة - فترة شلل قوات العدو الجوية فى سيناء - هى فترة عبورنا القناة ..

وشهدت هذه الفترة حدثا مهما وخطيرا..

ففى أثناء قيام طائراتنا بضرب قواعد العدو الجوية فى سيناء فى اللحظات الأولى للقتال حلقت طائرة مصرية على ارتفاع منخفض جدا فوق المقر الرئيسى لقيادة القوات الجوية الاسرائيلية وتمكن الطيار المصرى من اصابته مباشرة لتفقد اسرائيل بذلك - ومنذ الدقائق الاولى - عقل قواتها الجوية فى سيناء، ويكتمل شلل نشاطهم الجوى فى المنطقة، ولفترة أطول مما يكفى ..

وفى الوقت نفسه كانت الأحداث التاريخية تتوالى فى مكان آخر يبعد بعض الشيء عن قواعد العدو الجوية التى يتم ضربها..

لقد كان هناك أكثر من ألف مدفع - وأكرر بالأرقام أكثر من ١٠٠٠ مدفع مصرى - تطلق قذائفها من الضفة الغربية للقناة على العدو الاسرائيلى فى سيناء وأهدافه المحددة من قبل.. وكانت كل هذه الأهداف مرصودة ومحدودة ومعينة وسائل وزوايا ضربها من قبل كما ذكرنا فى الفصل السابق.

وكانت الاهداف التى تقوم المدفعية المصرية بالتركيز على ضربها هى:

مواقع بطاريات مدفعية العدو..

مراكز تجمع الاحتياطى التكتيكى للعدو خلف مواقع خط بارليف الحصينة

الوحدات المدرعة الخفيفة وراء الخط الدفاعى الأول للعدو.

ثم مواقع خط بارليف الحصينة نفسها.

وكان لضرب كل هدف من هذه الأهداف الأربعة بالذات حكمة تضمنتها الخطة الأساسية للعمليات.. كان الهدف من ضرب بطاريات مدفعية العدو هو:

أولا: شغلها فى معركة مدفعية مع بطارياتنا لتظل غافلة عن عمليات العبور..

ثانيا: وضع الموقف أمام أفراد العدو فى الخطوط الأولى فى صورة معركة مدفعية عنيفة سبق أن دارت معارك مقاربة لها من قبل..

ثالثا: إجبار أفراد العدو فى المواقع الحصينة من خط بارليف على الاحتماء داخل مواقعهم تاركين المعركة لبطاريات مدافعهم فى الخلف حيث لا يمكن التعامل مع وحدات مدفعية الميدان الثقيلة الا لوحدات مدفعية ثقيلة تماثلها..

وبالنسبة لضرب مراكز تجمعات الاحتياطى التكتيكى للعدو، ووحدات مدرعاته الخفيفة وراء مواقع خط بارليف الحصينة فقد كان الهدف منها

تسهيل مهمة قواتنا بعد عبورها القناة فى التعامل مع هذه الوحدات التى خصصها العدو أساسا للتصدى لعمليات العبور المصرية التى تكررت من قبل طوال السنوات الماضية.

وكان ضرب هذا الاحتياطى التكتيكى الاسرائيلى مؤثرا بالفعل مما ساعد على انهياره فى وقت قصير عقب عبور الدفعات الأولى من قواتنا لقناة السويس.

أما ضرب مدفعيتنا لمواقع خط بارليف الحصينة فكان يهدف بالدرجة الأولى إلى إخراجها ـ ولو مؤقتا ـ من المعركة إلى أن يتم تأمين رؤوس الكبارى المصرية على القناة .. وهذا ما حدث بالفعل..

وكانت قوة تحصينات مواقع خط بارليف عاملا مساعدا لقواتنا وسببا من أسباب استسلام معظم أفراده الذين كانوا داخل هذه المواقع..

وتفسير ذلك ببساطة يتلخص فى أن أفراد العدو داخل هذه المواقع الحصينة كانوا دائما فى حالة اطمئنان كامل الى قوة ومناعة حصونهم.. وبالتالى كانوا يشعرون بالأمن داخل ملاجئ هذه المواقع المنيعة.. وألجأهم ذلك إلى التزام الهدوء والسكينة داخل المواقع تاركين الأمر لمدفعيتهم ولوحدات احتياطيهم التكتيكى وطيرانهم، إلى أن تنتهى هذه المعركة [العنيفة] التى ظنوها محدودة..

ولكن كانت مطاراتهم فى سيناء قد ضربت .. أى لم يعد للطيران الاسرائيلى فى المنطقة فاعلية.. وكانت ايضا مدفعيتنا تضرب الاحتياطى التكتيكى الذى يعتمدون عليه.. وقبل هذا كله.. وبعد هذا كله.. فإنها لم تكن هذه المرة معركة [محدودة].. لقد كانت معركة [عنيفة] وغير محدودة .. إنها معركة التحرير..

وأمام رد الفعل الاسرائيلى الذى كان على تلك الصورة فى خطوطهم الأولى بالضفة الشرقية للقناة.. وبعد أن حققت المفاجأة كل ماكنا نهدف إليه..

وتحت ستار مدفعيتنا التى كانت تنطلق بكل مالديها من قوة نيران بدأ عبور الأفراد إلى شرق القناة.

وأول فوج من أفرادنا الذين عبروا قناة السويس.. كانوا يعبرون داخل زوارقهم.. وكانت هناك مجموعات أخرى تعبر داخل عربات مدرعة برمائية.. ولم يكن ذلك يتم فى منطقة واحدة ولكنه كان مشهدا متكررا على طول القناة التى تمتد من بور سعيد إلى السويس..

وقبل أن تطأ أقدام الرجال أرض الضفة الشرقية، كانت الانفجارات قد توالت فى الردم الترابى الهائل الذى بناه العدو على شاطئ الضفة الشرقية مباشرة وبطول القناة كلها..

وكان العمل يجرى بسرعة ودقة تحت ستار المدفعية..

وكانوا مجموعات ..

مجموعة بدأت فى إزالة الألغام..

ومجمموعة استخدمت مياه القناة فى إزالة الرمال من النفط التى فتحت فى السد الترابى مستعينة بمضخات خاصة حولت مياه القناة الى سيل منطلق من المياه القوية يفتح الأبواب أمام قواتنا.. وكانت القناة بذلك تحارب مع أصحابها..

ثم كانت هناك مجموعات أخرى تنصب المعابر فوق القناة بينما خصصت مجموعات من الأفراد لربط هذه المعابر على الضفة الشرقية للقناة..

وتولت مجموعات من قواتنا التصدى لكل محاولة يقوم بها أفراد العدو المحصنون فى مواقعهم ضد مجموعاتنا التى عبرت..

وقد كانت هناك معارك ضد بعض مراكز خط بارليف استخدم فيها العذو [المأخوذ] أسلحته الخفيفة ضد مجموعاتنا التى عبرت.. ولكن لم يكن لذلك تأثيره على مراحل تنفيذ الخطة..

كانت وحدات الاستطلاع المصرية قد رصدت طوال السنوات الماضية كل ما زرعه العدو على الضفة الشرقية للقناة.. ولم تجد عمليات الدهاء التى استخدمها العدو فى زرع الألغام وإخفائها وتمويه أماكنها.. وفتحت الثغرات فى حقول الألغام وفى الأماكن والنقط المطلوبة تماما والتى ستستخدمها قواتنا العابرة فى المرور إلى سيناء..

وقام بعض الأفراد.. الأبطال بعمليات فدائية رائعة فى هذه المرحلة.. لقد فتح بعض أبطالنا الثغرات فى حقول ألغام العدو بأجسادهم.. وتحرك البعض داخل حقول الألغام ليرسم طريق اختراقه أمام من وراءه.. وتصدى بعض الرجال بصدورهم لأسلحة العدو الخفيفة التى لجأ بعض أفراده إلى استخدامها عندما شاهد عبور أفرادنا إلى شرق القناة..

وفى هذه المرحلة سقط أول شهداء لنا فى معركة التحرير.. وليس لدى حتى كتابة هذه السطور إحصائيات لعدد هؤلاء الشهداء الأبطال الذين سقطوا خلال هذه المرحلة الدقيقة من معركة التحرير.

وأنا كشاهد عيان رأيت أكثر من موقع من مواقع خط بارليف فى اليوم التالى لسقوطها ورأيت عمليات الإخلاء التى تمت بعد ساعات من تخطى قواتنا هذه المواقع متجهة الى أعماق سيناء.. شاهدت إخلاء أكثر من ٥٢ جثة للعدو فى موقع واحد مقابل خمسة من شهدائنا، مع ملاحظة أننا نحن الذين كنا فى موقع الحركة وفى النقط المكشوفة بينما كانوا هم داخل تجهيزاتهم الدفاعية المحصنة..

وفى موقع آخر وهو موقع شمال القنطرة شرق كنت هناك بعد سقوطه بساعات وكان قد سبقنى اليه رجال الإخلاء..

وكان سقوط هذا الموقع قد تأخر ساعات نتيجة انطلاق قواتنا إلى أعماق سيناء تاركة قوة أخرى تحاصره .. ورأيت عمليات الإخلاء التى سجلت حوالى

أربعين جثة من جثث العدو فى موقع واحد بينما كان عدد شهدائنا هناك أقل من ربع هذا العدد.

ولا يمكن لأحد أن يفهم المعنى الواسع لمدلولات هذه الأرقام إلا إذا وضع فى اعتباره أننا كنا فى موقف الحركة وكانوا هم فى تحصينات الدفاع المنيعة..

ونعود مرة أخرى إلى عمليات العبور..

بعد أقل من ساعة واحدة من بدء القتال فى اليوم الأول لمعركة التحرير. أصبح لنا على الضفة الشرقية لقناة السويس مجموعات تعمل فى التثبيت والتأمين التكتيكى.. ومجموعات تواصل فتح الثغرات فى الأرض الملغمة.. ومجموعات تشق الأرض لتفتح طريق المرور أمام قواتنا.. ومجموعات أخرى تعد الأرض لاستقبال وتثبيت المعابر..

وظهرت المعابر فوق القناة.. وبدأ أفراد قواتنا فى مد المعابر ومعهم وحدات المهندسين التى أثبتت قدرة وكفاءة وبطولة نادرة فى جميع ما حققته من معجزات..

وتم هذا العمل العظيم خلال خمس عشرة دقيقة..

واسمحوا لى أن أكرر بالأرقام أنه تم خلال ١٥ دقيقة.. وهذا الرقم فى حد ذاته معجزة كبيرة أخشى عليها أن تتوه وسط باقى المعجزات التى حققتها قواتنا المسلحة منذ بداية الأسبوع الثانى من أكتوبر ١٩٧٣..

ولنستعرض بسرعة كيف تحققت هذه المعجزة الفذة فى دقائق معدودة..

لقد سبق إقامة هذه الكبارى الطويلة التى تصل بين ضفتى القناة خطوات تمهيدية وتحضيرية جرت بتنظيم وتنسيق وصل هو أيضا إلى حد المعجزة.. اغفروا لى تكرار كلمة «معجزة» فلا أحد يمكنه أن يجد كلمة أخرى يمكن أن تصف حقيقة ما جرى على قناة السويس..

بدأت الوحدات الهندسية لقواتنا المسلحة تباشر عملها على ضفة القناة بمجرد بدء انطلاق قذائف بطاريات مدفعيتنا .. وكانت واجبات هذه الوحدات الهندسية معقدة وتتم تحت ظروف عمل صعبة وهى ظروف الاشتباك الفعلى بنيران كثيفة بينما عملهم يتطلب دقة وإعدادا محكما يوفر السرعة والسلامة معا لقواتنا المدرعة وأسلحتنا الثقيلة التى ستتحرك فوق المعابر فى طريقها إلى سيناء..

وكان وضع المعدات الهندسية فى الأماكن المناسبة للهجوم يتطلب احساسا استراتيجيا سليما بل ومرهفا عند القيادة التى تولت تحديد أماكن المعابر، كما يتطلب من قواتنا أقصى سرعة ممكنة فى التمركز على رءوس الكبارى بالضفة الشرقية للقناة قبل أن يخف أثر المفاجأة..

وتسابق الرجال مع الزمن.. وكان لكل دقيقة بل ولكل جزء من الدقيقة أهميته..

وتوالت عمليات العبور فوق المعابر إلى سيناء.. وتقدمت وحدات كاملة من سلاح المدرعات المصرى مندفعة إلى عمق سيناء لتنتقل بخطة عملياتنا إلى مرحلة جديدة..

وقبل أن نتتبع عمليات المدرعات، أو نتعرض للموقف وتطوراته داخل سيناء يجب أن نسترجع فى كلمات معنى وقيمة ما حققته القوات المصرية بعبور قناة السويس على هذه الصورة التى جرت..

لقد اتفق المعلقون العسكريون طوال السنوات الماضية على أن قناة السويس - ولو أنها عمل صناعى - تعد فى حكم أصعب مانع مائى طبيعى فى تاريخ الحروب.. وإن خطورة عبوره بعمل عسكرى كبير تتضاعف نظرا لما يواجه هذا المانع مباشرة من خط دفاعى حصين ربما كان أقوى وأمنع خط دفاعى ثابت فى التاريخ، حيث أنه يفوق بالفعل خط «ماجينو» الشهير والذى لم تتمكن

القوات الألمانية ـ بكل ما كانت تتمتع به ـ من اجتيازه أو الاستيلاء عليه أو حتى محاولة ذلك، واضطرت إلى أن تلتف وراءه..

ورغم صعوبة عبور هذا المانع الكبير والذى كان وجود خط بارليف على ضفته قد جعل عملية عبوره فى حكم المستحيل ـ كما كان يرى المراقبون العسكريون ـ رغم ذلك استطاع المقاتل المصرى أن يعبر .. وأن ينجح..

ومن المعروف أن عبور الموانع بأنواعها المختلفة، خاصة هذه الموانع المائية الصعبة ـ وأكبرها قناة السويس ـ يعد عملا ذا ثمن باهظ وهذا هو المتعارف عليه بين جميع العسكريين باختلاف مدارسهم.. وتقدر بعض المؤلفات العسكرية نسبة الخسائر فى عملية عبور مانع مائى تحت النيران بـ ٧٠٪ من مجموع القوات العابرة.. وتصل بعض المؤلفات الأخرى إلى أقل نسبة خسائر من عملية عبور عسكرى هادئ لتحددها بـ ٣٠٪ من مجموع القوات العابرة وهو الحد الأدنى لنسبة الخسائر .. ولكن الجيش المصرى قد وضع للتاريخ نسبا أخرى جديدة غير تلك النسب كلها التى تعارف عليها العالم.. وهذا ما يجعلنا نلجأ عند الحديث عن العبور إلى استخدام وتكرار كلمة «معجزة»..

ونعود للحديث عن المراحل الأخيرة للعبور.. والتى كانت أيضا فى اليوم الأول للقتال يوم السبت ٦ أكتوبر..

تقدمت قوات المشاة الميكانيكية فوق المعابر الثابتة إلى الضفة الشرقية.. تقدمت طوابير المدرعات تشق طريقها إلى سيناء..

أفراد المجموعات الأولى التى عبرت القناة تم تثبيتهم على الأرض، ليقوم غيرهم من باقى الوحدات بالدور الرئيسى فى المرحلة التالية..

أحد المقاتلين من أفراد المجموعات الأولى انطلق فوق تبة مرتفعة ليحفر الأرض ببلطته الصغيرة ويثبت العلم المصرى فوق التبة ويقف رافعا ذراعيه للسماء صائحا.. الله أكبر.. الله أكبر..

ويردد الجميع وراءه النداء.. وترتفع آلاف الحناجر بصيحة واحدة. الله أكبر .. الله أكبر.. ويأتى الصدى من الضفة الغربية للقناة.. ويردد كل فرد يعبر القناة النداء نفسه .. ولا يستطيع إنسان - أى إنسان - أمام هذا المشهد المهيب أن يحبس دموعه.. وانحنى بعض الرجال يقبلون الأرض .. أرض سيناء التى كانت أسيرة.. وملأ البعض فمه برمالها يطفئ بها نيران حنين طال أمده..

وخلال هذه الفترة حيث بدأت نيران المدفعية تهدأ قليلا بدأ نشاط العدو الجوى فى الازدياد..

وتو الى ظهور الطائرات المغيرة على خط القناة ذاتها..

وكان من الواضح أن أثر المفاجأة بدأ يزول قليلا عن العدو وإن بقيت العصبية والتخبط من سمات جميع تصرفاته بعد ذلك ولأيام طويلة..

وتبين أن النشاط الجوى الاسرائيلى يستهدف بالدرجة الأولى - وهذا فى الواقع أمر طبيعى - ضرب المعابر الممتدة على القناة.. وجاء دور أسراب المقاتلات الاعتراضية المصرية تصدت لهذه المحاولات الجوية المعادية ببطولة وكفاءة..

ولعلنى لا أذيع سرا عندما أقول: إنه منذ اللحظات الأولى للمعركة توافرت لدى قواتنا الجوية وسائل انذار مبكر بكل نشاط جوى معاد، وكان لذلك دوره الحاسم فى التصدى لطائراته المغيرة والتى دفعها بأعداد كبيرة لضرب معابرنا التى ربطت ضفتى القناة. واستطاعت أسراب المقاتلات الاعتراضية المصرية أن تحول بين طائرات العدو وهدفه، ولتجعل الموقف يتحول إلى معارك جوية..

واعترف هنا بأن خسائر الطيران المصرى فى هذه المعارك كانت كبيرة نسبيا، حيث فقدت القوات الجوية المصرية بعد ظهر اليوم الأول للقتال فى معارك الطيران فوق القناة عشر طائرات، ولكن العدو فقد احدى عشرة طائرة.. والأهم من ذلك كله أن طائرات العدو لم تتمكن من إصابة معابرنا فوق القناة، واستمر تدفق قواتنا الى سيناء..

وظلت عمليات وصول القوات المصرية إلى الشرق جارية بمعدلات عالية وفق تخطيط دقيق.. واستطاعت الوحدات المصرية كلها أن تتجنب أى ارتباك أو عصبية أو توتر، وكانت التشكيلات الفنية والمعاونة تساهم فى تكامل الصورة الرائعة. وكان الواضح لكل من تتبع هذه العمليات أن جميع الأفراد كانوا على دراية بواجباتهم، وعلى إلمام تام بالعمل المكلفين به.. متجهين فى الطريق المحدد وفى الوقت المحدد لأداء العمل المعين لهم..

ولعب التنسيق والتعاون الكامل بين القوات البرية والبحرية والجوية والدفاع الجوى دورا أساسيا خلال سير القتال ووفق متطلبات الموقف وتطوراته واحتمالاته.. ونجحت جميع الوحدات والتشكيلات بمختلف مستوياتها فى ادارة المعركة بكفاءة واقتدار وبقيت محتفظة بعناصر خفة الحركة والسرعة والقدرة على المناورة والحسم..

وكانت كل خطوة على أرض العمليات تشهد بقدرة التخطيط العسكرى الذى صنع هذا، وقدرة القيادة على تحريك هذه الحشود العسكرية الهائلة فى الوقت المناسب، مع السيطرة على تطورات القتال ومواجهة وإفساد الخطط المعادية مع إلمام كامل بأهدافها وإحباط محاولاتها..

ولننتقل مع قواتنا العابرة إلى الضفة الشرقية لنرى الموقف وتطوراته فى الساعات الأخيرة لأول أيام معركة التحرير - أى قبل آخر ضوء اليوم الأول.

كان النشاط الجوى المعادى مستمرا..

وكانت الطائرات الاسرائيلية لا تتوقف عن المحاولة.

وأثبتت أجهزة الدفاع الجوى المصرية كفاءة واقتدار وشجاعة نادرة..

وكان الموقف العسكرى شرق القناة يتلخص فى نقطتين:

أولا: موقف النقط الحصينة فى خط بارليف الدفاعى.

ثانيا: موقف قوات العدو البرية وراء الخط المنيع.

وبالنسبة للنقطة الأولى تم حسم الموقف فى ساعات قليلة جدا.. وتم لقواتنا «ركوب» العدو فى هذه المواقع الحصينة لتنطلق باقى القوات مندفعة إلى عمق سيناء، دون أن يحول بينها وبين تقدمها بقاء أفراد العدو مختبئين داخل حصونهم فترة من الوقت.

لقد وضع هذا العدد من أفراد العدو نفسه داخل المصيدة بينما كان رجالنا يحيطون بمواقعهم ويحاصرونهم داخلها وهذا هو معنى الكلمة العسكرية «ركوب» وهذا ما أقصده بأن قواتنا قد ركبت مواقع العدو الحصينة.

ويبدو أن هذا العدد من أفراد العدو لم يكن أمامهم سوى أن يدخلوا المصيدة ويغلقوها عليهم.

ولنتركهم داخل المصيدة قليلا لننطلق مع قواتنا المتقدمة فى عمق سيناء.

كان العدو قد اعتمد على خطه الدفاعى الحصين شرق القناة وهو ما كان يعرف باسم خط بارليف. وهذا الخط الدفاعى يتكون من حوالى ٢٥ موقعا قويا تمتد على طول القناة من رأس العش شمالا حتى الشط جنوبا. وكل موقع من هذه المواقع يكاد يكون قلعة ضاربة فى أعماق الأرض يصعب النفاذ إليها.. بينما يمتد أمام هذا الخط الدفاعى خط متصل من الرمال «الردم» يرتفع مباشرة فوق مياه القناة ويسير محاذيا للضفة الشرقية للقناة من شمالها إلى أقصى جنوبها.. ومادمنا سنعود لوصف هذا الخط الدفاعى المنيع فى فصل قادم فيكفى أن نقول هنا إن هذا الخط اعتمد عليه العدو لمواجهة أى هجوم مضاد أو أى عمليات عبور.. وجهزه بحيث يستطيع أفراد أن يحتموا داخله ويكونوا فى مأمن تام..

ووراء هذا الخط الثابت وعلى بعد عدة كيلو مترات من مياه القناة كانت تنتشر مواقع احتياطى العدو التكتيكى وهى الوحدات التى تمكنت القوات المصرية المتقدمة فى سيناء من تدميرها تماما خلال اليوم الأول للقتال..

وتضم قوات الاحتياطى التكتيكى للعدو بعض الوحدات الميكانيكية الخفيفة المدعمة بالدبابات وبعض الأسلحة المعاونة وتتركز فى عدة نقط تمركز تمتد على امتداد الخط الموازى لضفة القناة الشرقية .. ويقع على هذه القوات التكتيكية عبء التصدى لعمليات العبور التى تقوم بها الدوريات المصرية ومجموعات قواتها الخاصة، كما أن عليها واجب التحرك لمعاونة أية نقطة من نقط خط الدفاع الحصين الممتدة على القناة .. واذا اضطر أفراده إلى الالتجاء لملاجئهم ومخابئهم داخل الموقع فإن قوات الاحتياطى التكتيكى للعدو تتولى الالتفاف حولهم والتعامل معهم مستخدمة ما لديها من دبابات وأسلحة معاونة، كما يمكن لها الاستعانة بمجهود جوى بحيث تقوم أسراب الطائرات الاسرائيلية من قواعد سيناء بتقديم العون والمساعدة لها.

وتحركت قوات الاحتياطى التكتيكى للعدو محاولة شن أول هجوم مضاد.. وطلبت بالطبع المعاونة الجوية التى لم يكن من الممكن أن تأتيها من القواعد الجوية الاسرائيلية فى سيناء لأنها لم تكن بعد قد عادت إلى المعركة منذ قيام الطائرات المصرية بضربها.. ود فع العدو منذ أول ليلة للقتال بوحدات من قوات احتياطية التعبوى فى سيناء لمعاونة الخفيفة التى تشكل احتياطية التكتيكى.

واذا كان الحديث سيأتى بعد ذلك عن احتياطات العدو واستخداماتها سواء الاحتياطى التكتيكى أو التعبوى أو الاستراتيجى، كما سنتناول معارك الدبابات والطائرات فى سيناء فى فصل مستقل فيكفى هنا أن نسرد الأحداث التى جرت فور عبور قواتنا الضارية قناة السويس فى أول يوم وأول ليلة من ليالى المعركة.

فى آخر ضوء اليوم الأول قام العدو بأول هجماته المضادة الكبيرة.. وكان هجومه عند الغروب هجوما قويا قامت به الدبابات والمشاة الميكانيكية للعدو.. وجاء الهجوم من أكثر من اتجاه فى وقت واحد. وكان واضحا أن العدو دفع فى

هذا الهجوم بكل قوة توافرت له فى المنطقة على أمل أن ينجح الهجوم المضاد ليستعيد عنصر المبادرة ويبدأ فى عمليات هجومية تناسب استعداداته وتسليحه وتتماشى مع عقيدته العسكرية التى بنيت دائما على الهجوم.

وفشل الهجوم الاسرائيلى المضاد رغم كل ما توافر له من دعم.

وبعد تدمير عدد من دبابات العدو التى اشتركت فى الهجوم المضاد، ونتيجة زيادة خسائره فى الأفراد اضطرت قواته إلى الانسحاب.. وبدأت جميع وحدات احتياطية التكتيكى تتفكك ولجأ عدد من أفراده إلى الهروب .. أو التسليم تأخذهم القوات المصرية أسرى وتنقلهم إلى القاهرة .. ولتعاود قواتنا تقدمها..

ولنترك القوات المصرية متقدمة فى سيناء على ٣ محاور.. المحور الشمالى على مقربة من ساحل البحر المتوسط.. والمحور الأوسط المتجه من قرب الاسماعيلية شرق إلى وسط سيناء.. ثم المحور الجنوبى الذى يبدأ من شمال السويس مباشرة مارا بمضيق متلاء، لنعود إلى المواقع الحصينة التى تشكل خط بارليف والتى بقيت على الضفة الشرقية تعانى الانتظار البائس وقد أحاطت قواتنا بها وحاصرتها.

لقد كان قرارا حكيما وذكيا اتخذته القوات المصرية عندما قررت الاستمرار فى الاندفاع إلى عمق سيناء دون أن تنتظر سقوط كل تلك الموانع الحصينة.. ولم يكن بقاء بعض هذه النقط دون استسلام سببا أو مبررا لأن تخسر القوات المتقدمة أثمن وقت عرفته الحرب وربما على مدار التاريخ كله..

ومع مرور الساعات توالى سقوط المواقع التى كانت لا تزال تنتظر نجدات العدو داخل المخابئ الحصينة فى أعماق الأرض إلى أن سقط آخر موقع منها عند منطقة السويس قبيل ظهر اليوم التاسع للقتال.

ودون أن نتطرق إلى تفاصيل حول تحصينات خط بارليف المنيعة ونقطه القوية - فهو موض [illegible] فى [illegible]الفصل القادم - فان [illegible] يطرح نفسه هنا.. كيف ولماذا سقط [illegible] الخط وبهذه الدرجة [illegible]؟..

لقد كانت المفاجأة هى العنصر الحاسم..

وكان العدو قد ارتكن ومنذ وقت طويل إلى استحالة عبور القوات الضاربة المصرية ووصولها إليه.

اعتماد العدو على قوة خطه الدفاعى الذى يحميه الردم الترابى بطول قناة السويس ومن أمامه أصعب مانع عرفته الحروب.

كان التوقيت هو صاحب الدور الأعظم فى تحقيق المفاجأة وبصرف النظر عن أن يوم العبور كان يصادف يوم العيد الكبير فى إسرائيل. فان اختيار ساعات الظهر وما بعد الظهر لعبور القناة كان أمرا لا يتوقعه احد على الإطلاق..

وبالتالى كانت شجاعة الخطة وسرعة العمليات مع الدقة فى التنفيذ هى واحدة من عوامل النجاح الذى تحقق.

وقد كان رد الفعل لدى العدو مناسبا جدا لإتمام جميع مراحل الخطة بنجاح كامل وبأقل قدر من الخسائر. لقد أصبح العدو منذ اللحظات الأولى للمعركة فى حالة عدم توازن حتى انه لم يتمكن من استخدام وسيلة خطيرة كان قد أعدها لمواجهة أى عبور لقواتنا..

لقد كان لدى العدو فى مواقعه الحصينة خزانات مليئة بالنابالم مخفاة على الضفة الشرقية للقناة ومعدة بحيث يندفع منها النابالم مشتعلا فوق سطح مياه القناة ويحولها إلى أمواج من الجحيم .. ولم يكن الأمر يتطلب سوى أن يقوم أحد الأفراد بإدارة الجهاز فى ثوان.. ولكن أحدا من أفراد العدو لم يجد الوقت أو الاعصاب أو القدرة ليفعل ذلك.. وقد استولت قواتنا على خزانات النابالم كلها.. سليمة لم تمس..

وعندما اقتحم المقاتلون المصريون دشم وتحصينات خط بارليف - الذى كان منيعا - تسابق أفراد العدو إلى الاستسلام.

الفصل الثالث

خط بارليف من الداخل

عندما تدخل أحد المواقع الحصينة التى تشكل الخط الدفاعى الاسرائيلى فى سيناء الذى عرف باسم «خط بارليف» فإنك تكون قد دخلت خزانة تفوق فى متانتها وحصانتها خزانة بنك انجلترا..

وليست المقارنة هنا من باب التشبيه أو التقريب.. فقد بنيت ملاجئ دشم العدو الاسرائيلى شرق القناة بنفس الطريقة التى تبنى بها خزائن البنوك الحديدية.

الجدران شيدت بحجارة ضخمة صلبة مدعمة بقضبان الحديد وعروق الصلب. والابواب صنعت من الحديد الصلب الذى لا يمكن اقتحامه إلا بالنسف المباشر. وهذا الوصف ينطبق على كل ملجأ من ملاجئ كل موقع من مواقع خط بارليف الحصين والبالغ عددها حوالى ٢٥ موقعا.

والموقع الواحد هو مدينة حصينة أصلها ثابت فى باطن الأرض، وقد قسمت فى الداخل على طريقة بيوت النمل تربط أجزاءها وأقسامها ممرات محفورة فى الارض وقد تدرعت بآلاف من أكياس الرمل بعضها فوق بعض.

ومن الخارج غطت كل جدران وسقوف الموقع بأكياس الرمل، تعلوها تلال من الرمـال (ردم) بينمـا صـبت هذه السـقـوف والجدران من الاسـمنت المسلح السميك وشدت من فوقها ومن تحتها عيدان الصلب.

وعندما تنتقل إلى داخل الموقع لتمر فى دهاليزه وممراته التى تربط أقسامه وأجزاءه فإنك تجد كل شئ تحت الارض.

فى احدى الخزائن تجد عنابر واسعة لنوم الافراد.. وفى خزائن أخرى مكان تناول الطعـام (الميس) وقـد زود بجـهـاز سـينمـا لاسـتـخـدامـه دارا للعـروض السينمائية. ثم هناك غرف المعيشة المزودة بأجهزة الراديو وادوات التسلية.. وفى مكان آخر غرفة القائد أو مقر القيادة حيث هى أيضا غرفة عمليات مزودة بالتليفونات والأجـهزة اللاسلكيـة .. وفى خزائن أخرى تجـد المطابخ مـزودة بالافران والثلاجـات.. ثم هناك الحمامات التى شيدت من الصاج الابيض.. وأخيـرا مـخـازن المهـمـات والأطعـمـة والمرطبات. كـمـا أن هناك داخل الموقع عيادة طبية حيث يوجد بها بين أفراده طبيب مقيم.

وأعـد هذا كله بحـيث يستطيع أفراد المو قع أن يعيـشوا فى باطن الأرض أسابيع طويلة فى حالة تعرضهم للهجوم أو الحصار.. ووضعت قيادة القو ات الاسرائيلية فى سيناء نظاما خاصا لافراد خط بارليف يتيح لكل منهم الاتصال تليفونيا بأفراد عائلته.

وقد تكلفت إقامـة هذه المواقع الحصينة ـ طبقا للأرقام الاسرائيلية نفسهـا ـ حوالى ٢٨٣ مليون دولار، بالإضافة إلى ما بها من معدات وتجهيزات عسكرية وما كانت تضمه من أفراد.

وبالنسبـة للجـانب العـسكرى لهـذه المواقع فـقـد زودت بمـلاجئ للدبابات والعربات وغـرف للاسـتطلاع، ومـزاغل للرؤية، ومكامن للأسلحـة الخـفـيـفـة والمتوسطة.

وأعدت ملاجئ الدبابات بحيث تتيح للدبابة الحركة فوق منزلق يتدرج إلى أعلى، وعندما تبدأ الاشتباكات تتحرك الدبابة فوق هذا المنزلق صاعدة حتى تخرج فوهة مدفعها لتطلق نيرانها وتعود متحركة إلى أسفل فوق المنزلق، فلا يمكن لأحد أن يرصد مصدر نيرانها. وزودت بعض المواقع بأكثر من منزلق للدبابة الواحدة يتيح لها أن تتحرك إلى أكثر من اتجاه لتطلق من كل جانب طلقاتها وتعود هابطة إلى حيث تصعد فوق منزلق آخر.

وزودت غرف العمليات بنظارات من نوع خاص تشبه إلى حد كبير بريسكوب الغواصة، بحيث يتمكن الفرد من رؤية كل ما يدور فوق سطح الأرض وهو داخل مكمنه تحت الارض. وهناك بالاضافة إلى ذلك مزاغل للرؤية المباشرة تخترق جدران الموقع المنيع فى بعض نقطه المرتفعة وقد تم اخفاؤها وتمويهها من الخارج، كما انها من الصغر بحيث لا يمكن اصابتها بأى ضربة مباشرة..

وباقى مكامن أسلحة الموقع حصنت بحيث تكون فى مأمن من النيران.. أما خلال الاشتباكات فإنها تتحرك إلى مزاغل خاصة تطلق من خلالها القذائف والطلقات .

وكل شئ داخل هذه المواقع الحصينة يكشف عن طبيعة الفرد الاسرائيلى وأحاسيسه .. أنه غير قادر على خوض معركة حربية مهما كانت محدودة الأمن وراء جدران الصلب.. ولا يمكنه أن يقف فى موقع قتال الا اذا توافرت له كل عناصر الأمن والطمأنينة وجميع ضمانات السلامة..

وصنع العدو الاسرائيلى خطه المنيع هذا، والذى أكد أصحابه أنفسهم أنه لن يمكن لقوة مهما كانت أن تقتحمه، ومع ذلك لم يطمئن ولم يكتف بالحصون.. ولم يكتف أيضا بوجود مانع مائى عظيم أمامه وهو قناة السويس التى تمتد على طول ١٦٠ كيلو مترا والتى يصل عرضها فى بعض المناطق إلى ٢٠٠ متر فأقام مانعا آخر على شكل سد ترابى (ردم) ليصل ارتفاعه الى ٢٠ مترا وليمتد بطول القناة نفسها!

وذهبت بعض الصحف الأجنبية إلى أن هذه الموانع الاسرائيلية يستحيل مهاجمتها وتدميرها إلا باستخدام القنبلة الذرية.

ويبلغ متوسط ارتفاع مواقع هذا الخط الحصين ما يوازى ارتفاع ثلاثة طوابق مثل المو قع الذى شيد شرق الشط - شمال مدينة السويس والذى سقط فى اليوم الرابع للقتال.

وجميع المواقع بداخل خط بارليف المحصن والضارية فى عمق الارض والمغطاة من أعلى لتتحمل الإصابات المباشرة، يحتويها نظام انذار متعدد الانواع بحيث تتلقى كل المواقع فى وقت واحد الانذار المبكر بالهجوم فور وقوعه - وأيا كان مكانه. كما جهزت جميع هذه المواقع بوسائل الوقاية من الحرب الكيماوية، وأحيطت بحقول من الألغام المضادة للافراد والدبابات.

وفى اوقات نشوب القتال تزود هذه النقط بالمياه من خلال مواسير ممتدة تحت الارض، كما وضع تنظيم يتيح نقل جرحى هذه المو اقع بواسطة طائرات الهيلوكبتر.

ورغم أن جميع هذه النقط الحصينة مزودة بالرشاشات والمدافع والصواريخ والهاونات إلا انها متصلة لاسلكيا بقيادة القوات الجوية الاسرائيلية لتوفر لها دعما جويا عند أول بادرة من بوادر الخطر.

ونقط خط بارليف منظمة بطريقة الدفاع الدائرى الذى يوفر لها الدفاع من جميع الجهات حتى فى حالة الهجوم عليها من الخلف وشيدت المواقع القوية عند المناطق الصالحة لعمليات العبور وتطبيق هذه النقط نظام الدوريات المسلحة القوية التى توفر اتصال هذه النقط بعضها ببعض وتمنع أى تسلل بينها. وهذا هو رد من الواقع على كلمات موشى ديان التى قالها للصحفيين عقب سقوط خط بارليف ووصفه بأنه قطعة من الجبن الجروبير السويسرى فيها من الثقوب أكثر مما فيها من الجبن!

ونسى أو تناسى ديان أنه هو نفسه قال يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٦٩ «ان عمليات العبور المصرية - اذا حدثت - لن تؤثر على قبضة اسرائيل الحازمة على خط بارليف المنيع، وسيتلقى المصريون الرد الحاسم لأن التحصينات الاسرائيلية على خط بارليف اكثر تحصنا وتنظيما، ويمكن القول إنه خط منيع لا يمكن اختراقه .. إننا أقوياء بدرجة تكفى للاحتفاظ إلى الأبد بخط بارليف وإن مبالغ طائلة قد أنفقت على إنشاء التحصينات به».

وقبل ذلك قال مدير المدرعات الاسرائيلية الجنرال افراهام ادان يوم ١٩ ابريل سنة ١٩٦٩ «ان الاستحكامات التى أقامتها إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة والمسماة بخط بارليف قد غيرت الموقف العسكرى كلية لصالح اسرائيل. وفى استطاعتنا أن نطلق النيران أولا نطلقها وفقا لمشيئتنا مادام جنودنا فى حماية تحصينات خط بارليف الذى يبرهن على فاعليته تحت وطأة نيران المدفعية المصرية فى حرب الاستنزاف».

أما الجنرال حاييم بارليف - الذى سمى هذا الخط الحصين باسمه فقد قال فى ٢٦ ابريل ١٩٧١ : «اننى متأكد أن مصر اذا استأنفت القتال فلن تتمكن من تحقيق أى عبو ر لاستحالة اجتياز خط الدفاعات الاسرائيلى - بارليف - المقام على امتداد الضفة الشرقية للقناة، كما أن قواتها لن تتمكن على الاطلاق من عبور قناة السو يس بسبب ما يشكله هذا الخط الحصين من خطر على القوات القائمة بالعبور».

ورغم هذا كله .. استولى المقاتل المصرى على خط بارليف الذى سقط بعد ساعات قليلة من بدء عمليات العبور.

ولكن .. ليس معنى ذلك أن جميع النقط الحصينة قد سقطت فى اليوم الأول.. سقط بعضها فى اليوم الأول وسقط عدد منها فى اليوم الثانى.. بينما تأخر سقوط بعض المواقع الى اليومين الثالث والرابع.. واستسلم موقع آخر فى اليوم الثامن للقتال.

ولكن الشئ المؤكد والواضح ان هذا الخط الدفاعى - الذى كان منيعا - خرج من المعركة بالكامل قبل أول ضوء فى اليوم التالى للقتال.. وكان اختفاء أفراد بعض هذه المواقع داخل ملاجئهم لم يعطل تقدم قواتنا إلى عمق سيناء ولو ساعة واحدة.. والمواقع التى لم تستسلم حاصرها عدد من أفرادنا بعد أن شلوا فاعليتها إلى أن تم اقتحامها على مهل.. أو خرج أفرادها مستسلمين..

ومن تلك المواقع التى تم اقتحامها الموقع المنيع شمال مدينة القنطرة شرق . لقد اختفى أفراده منذ بدء القتال داخل ملاجئهم .. وأغلقوا خلفهم المداخل إلى قلب الموقع وأوصدوا عليهم أبواب الصلب. واستعان رجالنا باحدى الدبابات التى اخترقت مداخل الموقع وأطلقت مدفعها على أحد الأبواب الصلبة لتحطمه.. واقتحم الرجال أجنحة الموقع وأقسامه.. واضطرت فى بعض الاحيان الى استخدام السلاح الأبيض.. وطعنوا افراد العدو «بالسونكى».

وسقط الموقع فى يد قواتنا، وارتفع فوقه العلم المصرى.. وكان ذلك فى اليوم الثانى للقتال.. وتكررت القصة فى اليوم الثالث بالنسبة للموقع الحصين المواجه لقواتنا المتمركزة جنوب بور فؤاد منذ يونيو ١٩٦٧.

وفى اليوم الرابع للقتال .. يوم الثلاثاء ٩ اكتوبر ١٩٧٣ سقط موقع آخر قرب منطقة الشط.. وهذا الموقع يتكون من ثلاثة طوابق. الطابق الاسفل مجهز بوسائل الامداد والاعاشة والقتال. وبه ماكينة لتوليد الكهرباء. وأجهزة التهوية. ويضم الطابق الأوسط أماكن اقامة الافراد واعاشتهم وبه صالة عرض سينمائى وثلاجه، وخصص الطابق العلوى للمراقبة والقتال بينما جهزت مواقع اخرى للمراقبة المكشوفة والقتال فوق الردم الرملى الذى وضع اعلى الطابق العلوى للموقع لحمايته من الضربات المباشرة. وهذا الموقع كان يضم حوالى ١٢٠ من افراد العدو مزودين بالهاونات والمدافع المتوسطة والعربات نصف المجنزرة والدبابات السنتورين وعربات نقل.

وعند اقتحام الموقع أطلق أفراد العدو مدفعا رشاشا من فتحة المزغل المواجهة لقواتنا المقتحمة، وانطلق واحد من مقاتلينا الأربعة الذين كانوا يقتحمون الموقع

ليلقى بجسده فوق فوهة المزغل ويحول بين رصاص المدفع الرشاش وباقى زملائه الذين قذفوا قنابلهم اليدوية الى داخل الموقع، وأتموا عملية الاقتحام.

وبالقرب من هذا الموقع وعند لسان بورتوفيق - شمال خليج السويس - كان هناك موقع آخر من مواقع خط بارليف استسلم قبيل ظهر اليوم الثامن للمعركة .. وكان لاستسلامه قصة..

حاصرت قواتنا الموقع منذ اليوم الاول.

وتكررت قصة «الحرب» على الطريقة الاسرائيلية عندما دخل أفراده إلى داخل ملاجئهم فى انتظار تدخل الاقدار. وبقى بعض أفرادنا يحاصرون الموقع بينما قواتنا الضاربة تنطلق على طريقها فى سيناء.

ومرت الأيام عصيبة قاسية بطيئة على أفراد العدو داخل الموقع زاد من مرارتها وقسوتها انهم كانوا بين ١٥ جريحا وخمسة من جثث قتلاهم. واستمر الحصار اسبوعا كاملا بينما كانت قواتنا قد تعدت فى تقدمها ٢٠ كيلو مترا - وراء هذا الموقع - فى سيناء..

وبقى من قوة الموقع - وكان عددها ٤٢ فردا - ٣٧ من أفراد العدو يعانون الحصار القاتل والانتظار القاسى.. وأنين الجرحى ورائحة الجثث..

وقررت قواتنا عدم نسف الموقع واقتحامه بالقوة واكتفت بمحاصرته فى انتظار التسليم. وكان هذا المو قع يعد من أقوى مواقع خط بارليف وأكثرها تحصينا تحيط بجدرانه السميكة عربات السكك الحديدية، ويغطى سقوفه ردم رملى يصل ارتفاعه الى حوالى ثلاثة امتار.

وفى اليوم السابع للقتال - ١٢ اكتوبر - اتصل مندوب الصليب الاحمر فى القاهرة بقيادة القوات المصرية وأبلغها طلبا إسرائيليا بتسليم الموقع.. بينما التقطت قواتنا المحاصرة للموقع رسالة تطلب السماح لهم بالتسليم للقوات المصرية بحضور مندوب الصليب الأحمر.

وأبلغ الصليب الأحمر القيادة المصرية بأن في الموقع عددا من المصابين في حالة خطيرة وانه يرجو إسعافهم، ويطلب حضور مندوب عند عملية التسليم.

ووافقت القيادة المصرية. وقبل الظهر وصل مندوب الصليب الأحمر رولاند دوك - السويسرى الجنسية - إلى لسان بور توفيق يصحبه ضابط اتصال من القوات المسلحة المصرية. ووقف مندوب الصليب الاحمر في مواجهة الموقع رافعا علم الهيئة الدولية، ووجه كلماته من مكبر الصوت إلى افراد الموقع قائلا: «انني قادم اليكم بناء على الاشارة الموجهة من قيادتكم لتنفيذ اتفاقية جنيف الخاصة بأسرى الحرب». وكان أفراد الموقع قد استعدوا للتسليم وصنعوا علما أبيض من ملاءة سرير رفعوه على الفور عقب سماعهم كلمات مندوب الصليب الاحمر. وتحرك القارب الذى يقل مندوب الصليب الأحمر وضابط الاتصال المصرى وقائد القوة المصرية التى تحاصر الموقع الى شرق القناة عند منطقة اللسان. وفتح باب الدشمة وخرج ١٤ من افراد العدو يرفعون العلم الابيض. وتقدم قائدهم - الذى كان يضع نظارة سوداء على عينيه - ملوحا براية الاستسلام ونزل الى القارب يتبعه الباقون.

وكان من بين هؤلاء الأسرى طبيب الموقع وحاخام الموقع. وخمسة عشر جريحا. وتم نقلهم جميعا بالزوارق على ٥ مرات.. وتمت مراسم التسليم على الضفة الغربية حيث قام قائد الموقع المستسلم بأداء التحية العسكرية لقائد القوة التى استسلم لها، كما قام بتسليمه العلم الاسرائيلى الذى كان على الموقع، وأدى التحية العسكرية للعلم المصرى..

الفصل الرابع

فى موقع الدفاع

لأول مرة رأينا اسرائيل فى موقف الدفاع.

وترتب على فرض هذا الموقف على العدو الاسرائيلى تفكك وحداته واستسلام أفراده. وأهمية وقوف العدو الاسرائيلى فى موقف الدفاع يرجع إلى أنه لم يمارس الدفاع من قبل ولم يتعوده.

ولم يستعد جيش (الدفاع) الاسرائيلى لمواجهة قوات مهاجمة تحتكر هى المبادرة وتختار مواقع ضرباتها وطريق تحركها.

كانت القوات الاسرائيلية هى صاحبة الحركة منذ سنة ١٩٤٨ وكانت اسرائيل هى المهاجمة سنة ١٩٥٦، وكانت ايضا هى المهاجمة سنة ١٩٦٧ واعتمدت العقيدة العسكرية الاسرائيلية منذ البداية على القيام بعمليات سريعة تختار هى مكانها وتحدد هى توقيتها لتحقق نتائج سريعة تستهدف بها الاثر النفسى وما يترتب عليه من شلل عصبى يتحول بسرعة إلى نصر عسكرى.

وهذا ما كان فى يونيو ١٩٦٧

ولكن ماذا كان بعد يونيو ١٩٦٧؟

فرض على الفرد الاسرائيلى موقف جديد. لقد وقف - لاول مرة - فى موقعه الدفاعى داخل الخندق.. وعانى لأول مرة من مواجهة الغارة وتلقى القذيفة وهو داخل موقع دفاعى..

ولم يكن هذا هو الدور الذى أعد له الفرد فى اسرائيل .. ولم يكن هذا هو العمل الذى يجيده. وكانت القيادة الاسرائيلية تعرف ذلك منذ البداية، ورغم أنها كانت تنظر إلى الامام بنظرة مغرورة، الا أنها حاولت العمل على مواجهة هذا الموقف بتخفيف العبء الدفاعى عن الفرد من ناحية، وبإعداد وحدات من الجيش الدائم تتولى مسئوليات الدفاع الثابت من ناحية أخرى.

وظل الفرد الاسرائيلى يعانى من الانتظار داخل الموقع الدفاعى خاصة شرق قناة السويس بالذات - حيث صحراء سيناء - والتى لم تخفف تجهيزاته وترفيهاته التى حشدها داخل مواقع بارليف - من قوتها بينما كانت خطط القيادة الاسرائيلية تتمرد على هذا الموقف متوقعة حلا سياسيا لصالحها عملت من أجله طوال سنوات مستخدمة كل الوسائل السياسية والدعائية والنفسية على مختلف المستويات.

ويبدو أن العدو لم يكن يتوقع أنه سيواجه تطورات عسكرية كبيرة تضعه فى موقف الدفاع على نطاق واسع ولفترة غير محدودة.

ومهما كانت درجة المعاناة التى عاشتها الامة العربية منذ يونيو ١٩٦٧ فإن الفرد الاسرائيلى قد عانى الكثير من البقاء داخل موقعه الدفاعى طوال ست سنوات كان يتطلع خلالها كل يوم إلى اللحظة التى يتغير فيها الموقف ليعود إلى نظام الحراسات البسيطة والدوريات المتحركة فحسب.

ولكن الموقف لم يتغير..

وظل العدو الاسرائيلى يواجه موقفا مختلفا غير ذلك الذى استعد له وأعد له أفراده وحشد له سلاحه ومعداته. فقد كانت العقيدة العسكرية الاسرائيلية تحدد

نوعية السلاح الاسرائيلى الذى يناسب العمليات السريعة أو الحروب الخاطفة، وهى (اللعبة) التى رأينا كيف أجادتها اسرائيل من قبل.

وشكلت هذه العقيدة الفرد الاسرائيلى تشكيلا خاصا يناسب ذلك، وظلت وحدات الجيش الاسرائيلى تتدرب وترسم خططها طبقا لما تمليه هذه العقيدة.

وعندما اختلف الأمر كان لاختلافه أثره الخطير الذى لعب الدور فى أحداث الخريف. ويفسر لنا ذلك سر محاولات العدو الاسرائيلى طوال الايام العشرة الأولى للقتال شن الهجمات المضادة على القوات المصرية شرق القناة.. والاستماتة فى تنظيم هجمات مضادة شرسة على الجبهة الشمالية تدعمها الطائرات التى هى أنسب أسلحة الحرب الهجومية. ورغم ارتفاع خسائر العدو إلى أرقام ضخمة، فانه لم يكن أمامه سوى الاستمرار فى ذلك حتى لا يقف مدافعا فيساعد بدفاعه على سرعة انهيار قواته.

واذا كان من الدروس المستفادة من الحروب كلها ما يجعل القوى المدافعة تتمتع بامتيازات لا تتمتع بها القوى المهاجمة، فان الامر يختلف بالنسبة لإسرائيل التى هى حالة خاصة فقد أقيمت وسلحت وأعدت بحيث لا تضطر للوقوف موقف الدفاع، بل تتطلع دائما الى التوسع والامتداد عن طريق الضربات السريعة.

واصرار اسرائيل على عدم الوقوف موقف الدفاع جعلها دائما تلجأ إلى البدء فى ضرب أى قوة تتهددها قبل أن تستكمل استعدادها وهذا ما يطلق عليه العسكريون الحرب الوقائية وعمليات الإجهاض. فبالنسبة لعمليات الإجهاض تلجأ العقيدة العسكرية الاسرائيلية الى توجيه ضربات مفاجئة لكل قوة يبدأ فى تجميعها واعدادها وتتوقع هى أنها تستعد لمهاجمة القوات الاسرائيلية.. أما الحرب الوقائية فهى المعارك التى تبدأها إسرائيل لتوقف استعداد وتجهيز القوات التى ترى أنها تشكل خطورة عليها.

واعتماد اسرائيل على الهجوم دائما وتجنب موقف الدفاع فرض عليها أن تتبع خطة الهجمات المضادة بعد هزيمتها فى معركة العبور بقصد استعادة عنصر المبادأة الذى فقدته ظهر السادس من اكتوبر. وبالتالى التحول الى موقف الهجوم المتحرك والخروج من ذلك الموقف الصعب الذى تواجهه لأول مرة فى تاريخها.

وموقف الدفاع الذى واجهته إسرائيل - لأول مرة - ترتب عليه موقف آخر يحرم اسرائيل من القيام بلعبة أخرى أجادتها وفرضتها العقيدة العسكرية الاسرائيلية منذ سنوات طويلة .. لقد اعتمدت عقيدتهم الهجومية على طريقة تجميع قبضة اليد وتوجيهها فى اتجاه واحد بكل القوة المتاحة.. لتعود مرة أخرى وبسرعة إلى إعادة تجميع القبضة وتوجيهها الى الناحية الأخرى بنفس القوة جميعها.

وربما كان أوضح تطبيق لهذا ما جرى فى يونيو ١٩٦٧ عندما انطلق العدوان الاسرائيلى بكل القوى المتاحة مهاجما الجبهة المصرية فى عمليات سريعة، بل خاطفة، ثم عاد إلى تجميع القوات الضاربة بسرعة تساعده شبكة مواصلات اسرائيلية جيدة بل ممتازة، ليتجه العدو بكل قوة الى الجبهة السورية.

ومن أجل أن يتحقق ذلك كان لابد أن تكون القوة الاسرائيلية هى المهاجمة. . وهى صاحبة المبادأة، والمحتفظة دائما بهذا العنصر الخطير والحيوى بالنسبة لها ولعقيدتها العسكرية.

وربما كان ذلك هو أبرز نواحى التشابه بين العقيدة العسكرية الصهيونية فى اسرائيل.. والعقيدة العسكرية النازية فى المانيا خلال الحرب العالمية الثانية، والتى اعتمدت منذ البداية على شبكة مواصلات ممتازة تنقل عبرها القوة الضاربة الرئيسية من محور الى محور بعد أن تجنى نتائج سريعة لعمليات خاطفة على كل محور ابتداء من الجبهة البلجيكية فى الليلة الأولى للحرب وحتى الجبهة الفرنسية التى اجتاحها النازى بعملياته الهجومية السريعة.

وبعد سنوات من هذه الانتصارات السريعة للعمليات الهجومية الالمانية واجه الحلفاء عدوهم بالاحاطة به من الشرق والغرب.. لتثبيته ثم الضغط عليه من الاتجاهين معا وفى وقت واحد ليحرمه بذلك من كل ميزات القدرة على العمل السريع بكل القوى وفى اتجاه واحد ينتقل بعده المجهود الرئيسي بكل القوى المتاحة الى عمل سريع فى اتجاه آخر..

وعندما فقد النازى هذه ا لميزات التى تعطيه القدرة على أداء (اللعبة) التى أجادها بالاضافة الى العوامل الأخرى التى جعلت الحرب تسير فى صالح الحلفاء ومن بينها استمرار الحرب لمدة طويلة.. انهارت العقيدة العسكرية النازية فى ألمانيا بعد أن عجزت عن مو اجهة الوقوف مدة طويلة فى موقف دفاعى.. وبعد أن فشلت محاولاتها في التحول عن الموقف الدفاعى بالاعتماد على شن الهجمات المضادة.

وبعد الاحاطة بالعدو من أكثر من جهة فى وقت واحد والضغط عليه من الناحيتين فى وقت واحد أيضا وتثبيته فى المو قف الدفاعى وافشال محاولاته للخروج من هذا الموقف. تحقق للحلفاء النتائج التي انتهت اليها الحرب العالمية الثانية.

واذا كانت هذه هى نتائج وضع العدو فى موضع الدفاع واذا كان هذا هو رد الفعل لعمل عسكرى ناجح مفاجئ يحيط بالعدو ويضغط عليه من أكثر من جبهة فى وقت واحد.. فلماذا لم نقدم على بدء المعركة من قبل؟

وهل كنا ننتظر هجوما اسرائيليا حتى نبدأ معكرتنا؟ .. هل بدأت المعركة ردا على اعتداء اسرائيلى؟..

لا.. ان معركة العبور لم تبدأ ردا على اعتداء اسرائيلى فقد تعددت من قبل الاعتداءات الاسرائيلية ووصلت الى حد انزال قوات اسرائيلية على الارض المصرية.

ولكن المعركة بدأت عندما وصلت القوات المسلحة المصرية الى درجة عالية من الكفاءة القتالية. وشارك العدو دون أن يشعر فى تدريب قواتنا المسلحة على إسقاط طائراته، وعلى عمليات العبور.

وكان الاعتداء الاسرائيلى الأخير هو فقط (نقطة الصفر) .. وقبل أن تحين ساعة الصفر تحملت مصر أعباء كثيرة قبل أن تخوض المعركة.

تحملت مصر عدم تصديق العالم أنها تستطيع القتال.. وأن مصر دولة تريد أن تحارب من أجلها دولة أخرى وتحملت مصر كل من وقعوا فى الوهم سواء من الجبهة الداخلية المصرية أو الجبهة العربية.. وكان عليها ان تواجه ذلك لتعد جبهتها لمعركة كان يجرى إعداد القوات المسلحة المصرية لها.

وبدأت المعركة ودهش العالم وأخذ بالمفاجأة..

ان مصر تحارب .. انها تعبر القناة وتحطم خط بارليف.. انه ليس الطيران المصرى فحسب.. انهم المقاتلون والدبابات والمدافع وكل آليات المعركة.. وفوق ذلك كله.. وقبل ذلك كله هناك التخطيط والتوقيت وقوة وصلابة وفداء المقاتل المصرى الذى حطم اسطورة الجيش الذى لا يقهر..

وخاضت مصر المعركة

ورفضت مناقشة اى قرار يشير الى وقف اطلاق النار مادامت الاسباب التى تدعو الى القتال لا تزال قائمة. وكانت جميع التقارير التى تأتى من الخارج.. وجميع التعليقات تتسم بطابع جديد.. بروح جديدة.. وبلهجة مختلفة.. لقد اختلف الامر تماما عندما اختلف موقف العدو، واصبح فى موقع الدفاع.. ولأول مرة.

ولنترك مصادر العدو ووكالات الأنباء الغربية تنقل صورة للعدو الاسرائيلى عندما فرض عليه موقف الدفاع.

فى خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى من معارك العبور أعلن المتحدث العسكرى الاسرائيلى أن القوات الاسرائيلية قد أخلت تحصيناتها شرقى القناة فى محاولة لتجميع القوات الاسرائيلية عند خط دفاع جديد وذلك لمواجهة ثلاثة رءوس جسور مصرية رئيسية، وهى المحاور المصرية الثلاثة.

ولم تذكر قيادة الجيش الاسرائيلى الى أى مدى انسحبت القوات الاسرائيلية، الا انه كان هناك تناقض شديد وتوتر واضح لدى وسائل الاعلام الاسرائيلية والبيانات الصادرة عن قيادة الجيش. فبينما ذكر البيان الإسرائيلى أن القوات الاسرائيلية ظلت تقاتل ١٦ ساعة ضد القوات المندفعة فى سيناء وانها حطمت جسور العبور المصرية، كشف المراسل العسكرى لصحيفة (معاريف) الاسرائيلية كذب الادعاءات الاسرائيلية حين ذكر فى تقرير له من جبهة القتال أن القوات المصرية استمرت طول الليل فى عبور القناة فوق الجسور التى فشلت الطائرات الاسرائيلية فى تدميرها.

وانعكس موقف اسرائيل الدفاعى على واشنطن عندما طلب كيسنجر وزير الخارجية الامريكى عقد جلسة طارئة لمجلس الأمن. واجتمع المجلس فى منتصف الليلة الثانية للقتال لبحث الموقف فى الشرق الأوسط وكان جون سكالى مندوب امريكا أول المتحدثين واقترح حمل الأطراف المتحاربة على وقف القتال والعودة إلى المواقع التى كانوا عليها قبل بدء القتال يوم السبت ٦ أكتوبر. وأقل ما يوصف به هذا الاقتراح الأمريكى هو أنه كان اقتراحا وقحا. وعلق الدكتور الزيات وزير خارجية مصر على هذا الاقتراح فقال فى هدوء : ان امريكا لو اقترحت عودة الطرفين المتقاتلين الى مواقعهما قبل حرب ١٩٦٧ لوجد هذا الاقتراح ترحيبا.. وقال المسئولون الغربيون: إن بريطانيا وفرنسا قد فضلتا عدم الاشتراك مع الولايات فى ذلك المشروع المضحك لاقتناعهما أنه لن يلقى تأييدا..

واجتمع مجلس الأمن فى اليوم التالى واستغرقت مناقشة القصف الجوى الاسرائيلى لدمشق معظم الجلسة، وبينما انسحب ممثل الاتحاد السوفيتى من قاعة المجلس احتجاجا على جريمة اسرائيل الوحشية عندما قصف الطيران الاسرائيلى أهدافا مدنية فى دمشق مما أدى إلى مقتل عشرات من المواطنين العزل و ٣٠ دبلوماسيا سوفيتيا.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية اجتمع نيكسون بزعماء الكونجرس من الحزبين الجمهورى والديمقراطى لبحث الموقف.. بينما قالت التقارير إن الرئيس الأمريكى قد فشل فى اقناع الزعيم السوفيتى بريجنيف بضرورة القيام بعمل من جانب القوتين الأعظم. وقال الرئيس الامريكى: إن هدفنا ليس فقط مجرد انهاء القتال فحسب، بل أيضا اقامة سلام جديد فى الشرق الأوسط على أمل تجنب الحرب مستقبلا.

وألقى كيسنجر خطابا أمام حلقة دراسية فى واشنطن أعلن فيها أن الوفاق مع الاتحاد السوفيتى لا يتعايش مع الأخطار فى أى منطقة بما فى ذلك الشرق الأوسط.. وقالت برقيات وكالة رويتر إن خطاب كيسنجر كان معدا من قبل ولكنه أضاف اليه الحديث عن الشرق الأوسط فى الدقائق الأخيرة.

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى على المسرح العالمى.. وبينما القتال يدور على الجبهتين السورية والمصرية، كان الخبراء العسكريون فى لندن يمرون بفترة ذهول لنجاح القوات المصرية فى عبور القناة، بعد أن ظلوا سنوات طويلة يقللون من شأن الجيش المصرى الذى حطم الآن أسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر، وتخطى المقاتل المصرى ساترا رمليا يبلغ ارتفاعه ٢٠ مترا، وحطم تحصينات خط بارليف الذى أجمع الخبراء العسكريون والسياسيون على صعوبة اقتحامه، وكان الشعور السائد فى بريطانيا على الرغم من الدعاية الاسرائيلية هو أن الدول العربية لن توقف القتال إلا بعد استرداد اراضيها.

وزار المراسلون الأجانب بالقاهرة ميدان القتال فى سيناء وكتب ماتياس هايت مراسل وكالة الانباء الألمانية الغربية يقول: (إن القوات المصرية استمرت فى عبور قناة السويس بمعدل مرتفع دون أن تتعرض لتدخل اسرائيلى إلا بدرجة ضعيفة، وكان الجنود المصريون المستمرون فى العبور يهللون (الله أكبر) تعبيرا عن فرحتهم بتحرير أرضهم بعد ست سنوات وأربعة أشهر من الاحتلال الاسرائيلى. كما كانت كلمة (هذه أرضنا) تنطلق من أفواه الجنود

المصريين، وفى سيناء انتشرت المئات من المركبات المصرية على مسطح واسع من صحراء سيناء بحيث لا يمكن تقدير حجم الحشود المصرية، ولكن كان من الواضح أنها أكبر بكثير من أن تكون رأس جسر.. أو أنها فى الواقع لم تعد (رأس جسر)..

وقال المراسل: إنه لم يلاحظ طائرة اسرائيلية واحدة تنجح فى مهاجمة الجسر العائم الذى يتمتع بدفاع قوى ضد الهجمات الجوية. وفى الوقت الذى كانت فيه المركبات تعبر من الضفة الغربية للقناة محملة تماما كانت سيارات الشحن الفارغة تعود من سيناء لتحمل المزيد من الامدادات. وقال المراسل: ان صورة العمليات تختلف تماما عن صورة ١٩٦٧. حيث عبر المقاتل المصرى القناة فى صمت داخل الزوارق المطاطة، ثم تسلق الرجال الجدار العالى لهذا الحصن القوى بواسطة سلالم خشبية وفاجأوا الاسرائيليين داخل حصونهم. وقال إنه يبدو أن معركة الاقتحام لم تكن قصيرة للغاية فقد كان هناك حطام داخل الخنادق، وان العلم المصرى كان يرفرف عاليا فوق احدى النقاط العالية تهزه نسمات خفيفة من خليج السويس الذى كان يعانى الموت منذ ١٩٦٧، وقال «ان الروح المعنوية فى الجيش المصرى تغيرت تماما كما وضح لى، فالضباط والرجال أكثر ثقة فى أنفسهم وأكثر ارتياحا حتى أحاديثهم مع الصحفيين الأجانب».

وفى اليوم الثالث للمعركة نقلت وكالات الأنباء من تل أبيب أن السلطات الاسرائيلية قد بدأت فى استدعاء وحدات جديدة من الاحتياطى مما يدل على أن المعارك التى دارت فى سيناء والجولان كانت ذات آثار سيئة على اسرائيل. وقال ضابط كبير بالسلاح الجوى الاسرائيلى فى حديث اذاعة راديو اسرائيل ان القوات الجوية السورية والمصرية سليمتان، ولم تستطع القوات الجوية الاسرائيلية مهاجمتهما وضربهما على الارض كما حدث من قبل.. واعترف أن خسائر العرب الجوية ليست كبيرة.

أما بالنسبة للقوات المسلحة المصرية التى كانت تتقدم فى عمق سيناء فقد قال أحد الضباط الاسرائيليين: إنها تقاتل بطريقة ممتازة، وانه لم ير من قبل الأسلحة التى يستخدمها الآن المصريون فى معارك سيناء.

وقال مراسل صحفى اسرائيلى من جبهة سيناء: ان اسرائيل تخوض أشد المعارك ضراوة مع القوات المصرية، وأنها تواجه قوة غزو هائلة وبصورة لم يعرف لها مثيل من قبل، وأنها تتفوق على القوات الاسرائيلية عددا ومسلحة تسليحا جيدا جدا.. وقال المراسلون الاجانب: ان تخلى اسرائيل عن خط بارليف الحصين كان أسوأ نكسة عسكرية أصيبت بها اسرائيل . وقالوا ان كل دشمة من دشم هذا الخط تكلفت مبالغ طائلة حيث بنيت بالفولاذ والخرسانة المسلحة. ووصفوا خط بارليف وتلاله الرملية التى ترتفع ٢٠ مترا ويمتد بطول الضفة الشرقية للقناة بالاضافة إلى أكياس الرمال والأسلاك الشائكة الكثيفة وحقول الألغام الغزيرة. وقالت وكالة اليونايتد برس الأمريكية: ان شعور كل من زار خط بارليف خلال السنوات الماضية هو أن الجنود الاسرائيليين كانوا آمنين تماما، ولا يمكن لأحد أن يمسهم وهم بداخله، وأن الجنود الاسرائيليين الذين اقاموا وراء خط بارليف كانوا يقولون دائما إنهم يشعرون باطمئنان تام وإنهم آمنون وراء حصن لا يمكن اقتحامه. وقالت الوكالة: ان هذه الثقة والطمأنينة من جانب القوات الاسرائيلية كانت عاملا مهما فى معركة العبور، فعندما اقتحمت القوات المصرية خط بارليف أصاب الذهول افراد القوات الاسرائيلية.. وتحت تأثير الذهول التام أدركت هذه القوات الاسرائيلية ان الاستسلام للقوات المهاجمة التى استطاعت تحطيم خط بارليف أسلم عاقبة من الاشتباك معها فى معركة حربية.

ونقلت التقارير الواردة من تل ابيب قلق القيادات الاسرائيلية التى وجدت نفسها أمام جيوش عربية تحيط بها وتوالى انتصاراتها، وأفراد قوات اسرائيلية تفر تاركة السلاح خوفا من القتل أو الوقوع فى الأسر.

وكان على القادة الاسرائيليين أن يفعلوا شيئا تجاه ذلك الموقف. وبدأوا يتخبطون.. وبدأوا فى استدعاء عدد كبير من جنرالات حرب ١٩٦٧ الى الخدمة العاملة. واستدعى الجنرال حييم بارليف رئيس الأركان السابق والذى كان يعمل وزيرا للتجارة والصناعة وعهد اليه بمسئولية (العمليات الخاصة) واستدعى الجنرال ايشا ياهو الذى كان قائدا للجبهة الجنوبية ليعمل قائدا لقطاع سيناء الجنوبى الذى يضم شرم الشيخ، كما عين الجنرال زيفى القائد السابق للقطاع الأوسط مساعدا لرئيس الأركان مع الجنرال بارليف. وأتى الجنرال هوريف الرئيس السابق لقسم العلماء بالجيش ليكون مساعدا للجنرال تال مساعد رئيس أركان الحرب وقائد العمليات. أما الجنرال موردخاى القائد السابق للقوات الجوية الاسرائيلية فقد استدعى ليكون مشرفا على العمليات الخاصة فى قيادة القوات الجوية.

وتمت كل هذه الاستدعاءات بناء على طلب الجنرال العازر رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى.

وكشفت وكالات الانباء والصحف الغربية عن مدى خسائر العدو عندما تحدثت عن تحرك الولايات المتحدة السريع لمحاولة تعويض الخسائر الاسرائيلية. وصرحت بعض المصادر الامريكية ان الولايات المتحدة تمد اسرائيل باعداد جديدة من طائرات الفانتوم . وذكرت وكالات الانباء أن واشنطن قد قامت بشحن أطنان من قذائف المدفعية الثقيلة والذخيرة المضادة للدبابات إلى اسرائيل فى محاولة لتجنب القوات الاسرائيلية أى نقص فى هذه الخسائر. ووافق مجلسا الشيوخ والنواب فى أمريكا على امداد اسرائيل بـ ٣٦٠ دبابة من طراز م ٦٠، وكان ذلك نتيجة لتقارير المخابرات الامريكية عن فقدان اسرائيل لعدد كبير من طائراتها ودباباتها خلال الايام الخمسة الاولى من القتال.

الفصل الخامس

معارك الدبابات والطائرات

حققت القوات المدرعة المصرية منذ الليلة الأولى للقتال (ليلة ٦ ـ٧ اكتوبر) أول انتصاراتها فى سيناء لتواصل بعد ذلك تقدمها نحو هدفها فى المرحلة التالية. واذا كان الموضوع الذى نتعرض له هذه الصفحات ينحصر فى معركة العبور، فان ما تلا ذلك مباشرة لابد أن يكون فى صميم موضوعنا. لقد كان عبور القوات المصرية للمانع المائى فى قناة السويس وسيلة وليس هو الغاية فى حد ذاتها.. لقد كان مرحلة لابد منها لتحقيق الهدف الاساسى للعمليات وهو تحرير الارض، كما ان العمليات العسكرية التى تلت مرحلة العبور كانت بالاضافة الى اهدافها الاخرى ـ تحقق نوعا من التثبيت والتدعيم لانتصارات العبور. ومن هنا كان التعرض لمعارك الدبابات والطائرات التى دارت فى سيناء خلال الأيام العشرة التالية للعبور هى جزء من موضوع هذه الصفحات.

تحركت الوحدات المدرعة المصرية الى سيناء عبر المعابر التى ربطت ضفتى القناة قبل آخر ضوء فى اليوم الأول للقتال. وبعد انتشار القوات المصرية على طول الضفة الشرقية للقناة، كان على المدرعات أن تبدأ تقدمها. وكان هذا التقدم يتم على ثلاثة محاور رئيسية المحور الشمالى، المحور الأوسط..

المحور الجنوبي. وكان أول واجبات هذه القوات المتقدمة هو ضرب وتدمير الوحدات الخفيفة للعدو التى بقيت له بعد مرحلة العبور.

واتيحت لى فرصة مراقبة تطورات الموقف من موقع يشرف على ارض معركة الدبابات التصادمية فى القطاع الشمالى..

ورأيت كيف يفر أفراد العدو من داخل الدبابات.. السليمة..

ورأيت العدو الاسرائيلى وهو يفقد وحدات احتياطيه التعبوى فى سيناء.. ليبدأ (انهيار) هذا الاحتياطى.

وكان الموقف فى القطاع لحظة المعركة يتلخص فى عشر نقاط:

معابرنا فوق قناة السويس سليمة تماما، وقواتنا تتدفق عليها الى سيناء.

وحدات وتدعيمات الشئون الادارية تعبر قناة السويس بصورة منظمة ومستمرة لتوفر للمقاتلين فى سيناء كل احتياجاتهم.

النشاط الجوى للعدو مستمر فوق قناة السويس مستهدفا المعابر الممتدة عبر القناة ... ولكن بصورة غير مؤثرة.

بالاضافة إلى سائر الواجبات الهجومية التى يقوم بها سلاحنا الجوى فقد برز دور مقاتلاتنا الاعتراضية فى التصدى لهجمات العدو الجوية وبصفة خاصة فى اعداد الكمائن الجوية لطائراته وهى فى طريق عودتها الى مطاراتها.

قام رجال الدفاع الجوى بدور بطولى خطير فى المعركة يكفى - بدلا من الحديث عنه - العودة إلى الارقام التى تحصى طائرات العدو التى اسقطت، وهذه الارقام التى اذاعتها بلاغاتنا العسكرية ثبت لى - وبما لا يدع مجالا للشك - أنها أقل فعلا من الارقام الحقيقية للطائرات الاسرائيلية التى اسقطها دفاعنا الجوى.. وربما كان ذلك عن عمد ولحكمة محددة.

الروح المعنوية للأفراد والقادة - وهو أمر حيوى ومهم فى الحروب - عالية جدا، ويزيد من ذلك تماسك وحداتنا وضربها جميع محاولات العدو فى القيام بهجمات مضادة، مع استمرار التدفق المنظم المستمر لقواتنا إلى سيناء عبر القناة.

إذا كان نصف تأثير العمليات الجوية للطائرات بل وربما أكثر من النصف هو تأثير نفسى ومعنوى فان النشاط الجوى المعادى لم يكن له أى فاعلية أو تأثير.

الموقف فى الخط الخلفى لقواتنا الضاربة فى سيناء على امتداد الضفة الشرقية للقناة يزداد تحسنا كل ساعة، ولمعرفة معنى ذلك يجب أن نلاحظ بقاء بعض جيوب المقاومة اليائسة للعدو لم يرتبط بتقدم قواتنا فى سيناء، وبالتالى لم يكن له أدنى تأثير على خططها، وقد انتهت فى الساعات الاولى معظم هذه الجيوب وتم تطهيرها وأسر من بقى مختبئا بها من افراد العدو بعد أن يئس من النجاة.

استمرت قواتنا على طول الجبهة تتقدم طبقا لخطتها تماما.. وقد لاحظت ان القوات الضاربة تركز على ضرب العدو وتدميره وأسر افراده ليكون ذلك فى الاهمية الاولى ويسبق الاهتمام بالاستيلاء على الارض أو كسب مساحات واسعة.. ولهذا فان تقدم قواتنا كان يسير فى اطار خطة لا تنال منها نشوة الانتصارات.

تقدم قواتنا المدرعة على محاورها فى سيناء كان يتم من خلال معارك وقتال بطولى استطاع ان يقوم بتحطيم قوات العدو التعبوية فى سيناء، لتخرج من المعركة كل قوة يمكنه أن يستخدمها فيما بعد ضمن خطة اعادة تجميع، أو اعداد لهجوم مضاد. ولابد هنا ان نتعرض لمعنى:

(الاحتياطى التعبوى) للعدو فى سيناء؟

ان العدو الاسرائيلى فى سيناء كان يعتمد على خط دفاعه القوى الذى عرف باسم خط بارليف والذى كان يضم حوالى ٢٥ موقعا حصينا وتكلف حوالى ٢٨٣ مليون دولار بالإضافة إلى ما يضمه من أفراد ومعدات وذخائر وغيرها.

أولا: الاحتياطى التكتيكى: ووراء هذا الخط حشد العدو قوات احتياطية خفيفة فى عدة مناطق وظيفتها التحرك بسرعة لمواجهة أى هجوم قد يتعرض له خط الدفاع الاول، كما أن عليها أن تشن هجمات مضادة على أى قوة انزال تصل إلى الضفة الشرقية للقناة.

وهذا ما يسمى (الاحتياطى التكتيكى الخفيف)

ثانيا الاحتياطى التعبوى: ويأتى الاحتياطى التعبوى خلف قوات الاحتياطى التكتيكى الخفيف.. وفى عمق سيناء توجد الوحدات الكبيرة من المدرعات والمشاه الميكانيكية المدعمة بالدبابات ومدفعية الميدان بمعداتها الثقيلة، تتمركز فى قواعد ارضية وتشكل قوات الاحتياطى التعبوى للعدو، الذى يضم لواءات مدرعة كاملة مدعمة ومجهزة لشن هجمات مضادة على أى قوة تعبر قناة السويس وتتقدم فى أعماق سيناء.. ومن أبرز مهام هذا الاحتياطى التعبوى الرئيسية نجدة ودعم الاحتياطى التكتيكى الخفيف للعدو والمتمركزة شرق خط الدفاع الثابت (بارليف).

ثالثا: الاحتياطى الاستراتيجى: وهو النوع الثالث والأخير من القوات الاسرائيلية الاحتياطية.. وتشمل القوة التى يدخرها العدو للدفاع عن قلبه..

تبقى نقطة مهمة، هى أن كل قوى العدو الاحتياطية تتبع أسلوبا واحدا فى العمل ينبع من عقيدته العسكرية ويعتمد على أن يقوم بأعمال الدفاع عن طريق شن الهجمات سواء ما يعرف منها باسم (معارك الاجهاض)، وهى رصد أى قوة تستعد لمهاجمته، ثم يهاجمها هو قبل ان يكتمل استعدادها.. أو عن طريق عمليات الهجوم المضاد، أى مهاجمة التى تهاجم بدلا من الوقوف فى انتظار هجماتها ليصدها وهو فى موقف الدفاع.. وهذا هو الموقف الذى يتجنب العدو مواجهته أو التعرض له..

هذا بالإضافة إلى ما يعرف بالعمليات الوقائية، وسبق ان تحدثنا عنها. ويهمنا هنا من احتياطى العدو بصفة خاصة.. الاحتياطى التعبوى. بعد أن

انهار الاحتياطي التكتيكي الاسرائيلي في سيناء وراء انهيار خط دفاعه الحصين الذي كان يعرف باسم (خط بارليف). وتمكنت وحداتنا من ضرب كل ما كان يدفع اليها من قوات الاحتياطي التعبوي، واستمرت في تقدمها في عمق سيناء.. استسلم عدد من ضباط وجنود وحدات العدو المدرعة بدباباتهم .. وفر عدد آخر من الجنود والضباط تاركين دباباتهم ومدرعاتهم وعرباتهم المدرعة.

وحاول العدو من جديد الاغارة بطائراته لضرب المعابر التي اقامتها قواتنا على طول قناة السويس ولكنه فشل.. وزاد تدفق قواتنا من الدبابات والمشاة الميكانيكية والمدفعية داخل سيناء.

وبدأت القوات الاسرائيلية تنسحب شرقا بعد أن تكبدت في هجماتها المضادة خسائر كبيرة من الدبابات والأفراد .. بينما استمر تدفق قواتنا إلى سيناء بأعداد كبيرة طوال ليل الأحد ٧ اكتوبر.

وقامت قواتنا الجوية بقصف مواقع العدو في سيناء. وقام العدو مرة أخرى بهجوم مضاد بتركيز من قواته المدرعة تعاونها قواته الجوية. وردت قواتنا البرية بمعاونة قواتنا الجوية وبتركيز من مدفعيتنا هجمات العدو، وأوقعت به مزيدا من الخسائر.

وفي ظهر اليوم التالي للقتال وجهت تشكيلاتنا الجوية ضربة مركزة لمواقع العدو في سيناء، ورد العدو بمحاولة قصف بعض مطاراتنا فاشتبكت معه طائراتنا ووسائل دفاعنا الجوي وأسقطت له خمس طائرات وبلغت خسائر العدو في الطيران في ذلك اليوم ٢٧ طائرة.

وظل القتال العنيف مستمرا وقواتنا مستمرة في تركيز هجماتها في عمق سيناء بينما ظلت المدرعات والدبابات المصرية تعبر القناة لتعزيز قواتنا المتقدمة في سيناء.

وتوغلت القوات المصرية في شمال وجنوب وسيناء وبطول الجبهة كلها من جنوب بورسعيد حتى السويس وهي تقاتل قتالا بالغ العنف ، وتمكنت من

إحباط جميع محاولات العدو للقيام بهجوم مضاد لاسترداد مواقعه التى استولت عليها قواتنا.

وكانت أشد المحاولات، المحاولة التى قام بها العدو قبل ظهر اليو م الثانى للقتال بالدبابات والطائرات وتمكنت قواتنا من صدها.

وأصبحت قوات العدو التى كانت تتمركز فى مواقعه الأمامية على طول القناة فى قبضة قوات العبور المصرية، وانسحبت بعض قوات العدو فى هذه المواقع هاربة أثناء الهجوم وقتل الباقى أثناء قصف المدفعية وتم أسر الذين بقوا أحياء ونقلوا إلى غرب القناة.

وكانت أجهزة الدفاع الجوى المصرى تقوم بدور فعالٍ وبارز طوال هذا اليوم فى صد الهجمات الجوية التى قامت بها طائرات العدو.

ودار أعنف قتال منذ بداية العبور فى اليوم الثالث للمعركة عندما دفع العدو بجميع قواته الاحتياطية الى المعركة فى محاولة لوقف التقدم المصرى. واستسلمت نقط العدو على الضفة الشرقية للقناة، واستعادت قواتنا لسان بور توفيق والشط وجنوب البحيرات والاسماعيلية شرق والبلاح وأسرت قواتنا أعدادا كبيرة من أفراد القوات الاسرائيلية بكامل معداتهم، كما وجهت طائراتنا ضربة مركزة لمطارات العدو فى سيناء والتى تمكن من اصلاحها بعد اصابتها فى الدقائق الاولى للقتال ومنها مطارا المليز وبير تمادة، كما قصفت بطاريات الصو اريخ «الهوك» ورادارات العدو ومراكز قيادته فى القطاعين الشمالى والأوسط.. وقبل نهاية ذلك اليوم احتفل باعادة رفع العلم المصرى فوق المدينة الثانية فى سيناء وهى القنطرة شرق، وكان قد تم حصار المدينة داخليا وخارجيا ثم جرى اقتحام مشارفها ودار القتال فى الشوارع والمبانى حتى انهارت قوات العدو واستسلمت واستولت القوات المصرية على كميات كبيرة من السلاح والعتاد بينها عدد كبير من دبابات العدو طراز سنتورين، ايه ام اكس A. M. X وأسر ٣٠ فردا للعدو أحياء كانوا هم كل من بقى فى المدينة.

وواصلت قواتنا التقدم شرقا بعد الاستيلاء على القنطرة شرق حيث تقدمت ١٥ كيلو مترا داخل سيناء ودمرت اثناء تقدمها جميع المواقع الحصينة للعدو واصابته بخسائر فادحة فى الافراد والمعدات.. كما فر عدد كبير من افراد العدو تاركين مواقعهم وأسلحتهم وذخيرتهم.

واستمر العدو فى دفع قواته المدرعة على طول الجبهة فى محاولة لشن هجمات مضادة تعاونها طلعات متكررة من الطيران. ومرة أخرى فشلت جميع هذه الهجمات المضادة فى تحقيق هدفها واستطاعت القوات المصرية أن توجه ضربات قوية الى كل هذه المحاولات.

وبعد أن رويت جانبا مما دار فى القطاع الشمالى من الجبهة ـ كشاهد عيان ـ أستطيع أن أستشهد بأقوال شاهد عيان آخر تابع المعركة فى القطاع الجنوبى من الجبهة .. بل كان قائدا لقوات العدو هناك وهو العقيد عساف ياجورى قائد اللواء الاسرائيلى ١٩٠ مدرع.. لقد قال:

«ان وحدتى لم تحقق هدفها لأنها كانت معركة صعبة جدا بالنسبة لنا.. ودقيقة، وكان يوجد تفوق واضح جدا بالنسبة للدبابات المصرية وكانت الدبابات المصرية تعمل بنشاط ظهر فيه تفوقها الكبير»..

وقصة هذا اللواء المدرع تبدأ مع صباح اليوم الثالث للقتال حيث كانت قواتنا تتقدم فى القطاع الجنوبى.. وأثناء تقدمها قامت بالاشتباك مع لواء اسرائيلى مدرع وعاونها تشكيل من قواتنا الجوية فى ضرب وتدمير وحدات هذا اللواء بالكامل واسر قائده وتم نقله إلى خطوطنا الخلفية قبل ظهر اليوم التالى (الثلاثاء).

ولكن كيف دمر اللواء الاسرائيلى ١٩٠ مدرع؟

كانت قواتنا تتحرك على محورها فى القطاع بعد أن انسحبت قوات العدو التى كانت تواجهها. ويبدو أن العدو اعتمد فى وقف التقدم على هذا اللواء المدرع (١٩٠) الذى حاول أن ينصب كمينا لقواتنا خلف أحد التلال الرملية..

ولكن قائد المجموعة المصرية كان قد أعطى تعليماته بانتشار آلياته أثناء الحركة لسرعة مواجهة أى هجوم مضاد. ووقع اللواء المدرع بأكمله فى وسط مجوعاتنا ولما أحس العقيد عساف ياجورى قائد اللواء بأنه بات فى المرمى المؤثر لنيران قواتنا وأن جميع آلياته قد أصيبت نتيجة الضرب المحكم لقواتنا، لم يعد يستطيع التصرف بحكمة القائد، ووقع فى الأسر ومعه عدد كبير من افراد اللواء.

وكان القتال الذى بدأ فى الساعات الأولى من اليوم الرابع للمعركة امتدادا للمعارك العنيفة التى دارت فى اليوم السابق.. وبذل العدو محاولات مستمرة لوقف تقدم قواتنا إلى عمق سيناء مستخدما فى ذلك المئات من الدبابات والمدرعات. ورغم كل هذه المحاولات فان القوات المصرية كانت مصممة على استمرار التقدم. واستمر القتال العنيف على طول خط المواجهة، وكانت الانفجارات وألسنة اللهب تغطى جميع المحاور فى سيناء.

واشتبكت قواتنا فى معارك عنيفة بالدبابات واستولت على ١٨ دبابة وعدد كبير من المدافع والذخيرة والاسلحة كما أسقطت عشر طائرات للعدو بينها ٦ طائرات أثناء محاولتها الاغارة على مطاراتنا. وعندما حاول سلاح العدو الجوى للمرة الثانية مهاجمة بعض قواعدنا الجوية المتقدمة، اضطرته دفاعاتنا الجوية إلى اسقاط حمولته من القنابل بعيدا عن القواعد الجوية.. وفقد العدو ٤ طائرات بالاضافة إلى طائرتين تم اسقاطهما فوق القطاع الشمالى من الجبهة أثناء مهاجمتها القوات المصرية فى هذا القطاع.

وكما كانت عمليات القطاع الجنوبى والمحور الأوسط معارك ناجحة حققت خلالها قواتنا انتصارات كبيرة كان أبرزها تدمير اللواء الاسرائيلى المدرع بالكامل، جاء رجع الصدى من القطاع الشمالى حيث جرت معركة طويلة بالدبابات استمرت طوال اليومين الخامس والسادس، واستغرق القتال الليلة بأكملها.

وبدأت معركة الدبابات الطويلة عندما تصدت مدرعات العدو الاسرائيلى لقواتنا المتقدمة فى محاولة لاعاقتها، وكانت هذه القوات المدرعة المعادية تنتسب إلى الاحتياطى التعبوى للعدو.. وتوالت طلقات دباباتنا.. ودخلت دبابات العدو المعركة.

وقبل أن تقفز إلى نتائج هذه المعركة أسجل هنا مشاهداتى كواحد تتبع المعركة من موقع قريب من ساحتها.

لقد خرجت بعض دبابات العدو منذ بدايتها.. وأصيبت دبابات للعدو منذ اللحظات الأولى.. ودمرت.. وكل هذا كان طبيعيا، ولكن شيئا مهما كان يلفت النظر.. ان بعض الدبابات كانت تتوقف فجأة وبدون سبب مفهوم عن مواصلة دورها فى المعركة التصادمية.. ثم كان أفراد طاقمها يغادرونها محاولين الهرب أو مفضلين الوقوع فى الأسر.

واذا كنت لا أستطيع أن أصل إلى حقيقة أسباب هذه «الظاهرة» فذلك دور من يقومون باستجواب اسرى هذه المعركة، فإننى أسجل ملاحظة واحدة.. لقد كانت كل دبابة اسرائيلية تجد دبابة أخرى قد أصيبت أو دوت على مشهد منها تلجأ إلى الخروج من المعركة، وتبدأ محاولات أفراد طاقمها فى الهرب أو الوقوع فى الأسر. ويبدو أن ذلك أوضح برهان على أهمية ما يعرف فى الحروب باسم «الأثر النفسى والمعنوى».

وشاهدت بعض دبابات العدو الأسيرة بين أيدى رجالنا.. انها سليمة.. كاملة ومستعدة للقتال! وفى داخل واحدة منها رأيت خرائط العمليات مفتوحة.. ومعدات الطاقم موجودة.. وذخيرة أسلحة الدبابة متوافرة، وجهاز اللاسلكى بها يعمل وينقل نداءات العدو الكريهة.. ولكن.. لا أحد يجيب.. فقد فر الطاقم.

وكان بين هذ ه الدبابات الـ «ايه ام اكس A. M. X» دبابات أخرى من الطراز الأمريكى الحديث جدا «م. ٦٠ M.60» وهى أقوى وأحدث دبابة زودت بها اسرائيل حتى لحظة كتابة هذ ه السطور.

وعندما شاهدت هذا كله .. شعرت بالفعل أن الاحتياطى التعبو ى الاسرائيلى فى سيناء قد انهار ليأتى الدور بعد ذلك على قوات الاحتياطى الاستراتيجى الذى كان على العدو أن يبدأ فى استخدامه.

واستمر القتال العنيف فى سيناء لليو م السابع حيث تزايدت خسائر العدو الاسرائيلى فى الطيران والدبابات والرجال..

وقامت قواتنا الجوية بقصف مراكز العدو فى أم مرجم والطاسة، على المحور الأوسط بسيناء وأشعلت فيها النيران ودمرت للعدو محطتى رادار. وفى الساحل الشرقى لخليج السويس قصفت مدفعيتنا بعض الوحدات البحرية للعدو ودمرت ٣ لنشات. وأمام هذا بدأ العدو يتجه ناحية أخرى حيث قامت قواته بعدة غارات على مدينة بور سعيد وعلى قواتنا البرية فى القطاع الأوسط من الجبهة واجهتها وسائل دفاعنا الجوى واسقطت له ٧ طائرات فوق بور سعيد و٨ طائرات فوق القطاع الأوسط من بينها ثلاث طائرات هليوكبتر. وفى الوقت نفسه اشتبكت قواتنا مع العدو بالقطاع الأوسط من الجبهة ودمرت له ١٣ دبابة و ١٩ عربة مدرعة وسقط له نحو مائتى فرد بين قتيل وجريح.

وهكذا استمرت معارك الطائرات والدبابات.. وتحولت المعارك إلى عمليات زحف تواجهها هجمات مضادة أصر الرجال على ألا تعوقهم فى تقدمهم لتحرير أرض سيناء بعد أن نجحت القوات المسلحة المصرية فى عبور المانع المائى لقناة السويس، واقتحام مواقع خط بارليف القوية، ثم تثبيت وتأكيد الانتصار على كل ما أعده العدو من دفاعات شرق القناة.

وإذا كانت معركة العبور قد انتهت ببداية معارك الدبابات والطائرات فى سيناء، فإن عرضنا لمعركة العبور بمراحلها المختلفة ينتهى بانتصارات القوات المصرية على قوات العدو شرق قناة السويس وبتدمير احتياطياته هناك.

غير أننا لا يمكن أن نترك معارك المدرعات والدبابات من غير تعليق، فانه مما يلفت نظر أى مراقب محايد أن خسائر العدو الاسرائيلى خلال هذ ه

المعارك كانت فادحة.. وان الكثير من وحداته قد تفككت بينما استشرت ظاهرة محاولة الهرب بين أفراده خصوصا في الأيام الأولى للمعركة.. وربما يفسر لنا ذ لك أسباب ارتفاع عدد أفراده الذين وقعوا في الأسر. وعندما نتتبع معارك الدبابات التي دارت في الاسبوع الأول من القتال فاننا نجدها تفوق أكبر معارك الحرب العالمية الثانية، وزادت في مجملها على معركة ستالنجراد الشهيرة.

كما أن هناك ظاهرة أخرى هي تلك الأعداد الهائلة من الآليات التي خاضت قتالا ضاريا بصورة لم تعرفها معركة من معارك الحرب العالمية الثانية في أعنف مراحلها، ففي العلمين كانت القوات البريطانية المشتبكة مع قو ات روميل لديها ١٤٠٠ دبابة في مو اجهة دبابات روميل الألمانية الايطالية وعددها ٥٥٠ دبابة. ويقول المراقبون الغربيو ن: إن في معارك اكتوبر ١٩٧٣هاجمت سورية بحوالي ١٤٠٠ دبابة ووضع المصريون في المعركة أكثر من ذلك، وكان لدى اسرائيل حوالي ١٧٠٠ دبابة عند بدء القتال. ولدى العراق حو الى ألف دبابة اشترك بعضها في القتال على الجبهة السورية. ويرى الخبراء أن اشتراك هذه المعدات العسكرية الثقيلة على مساحات صغيرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب بما في ذلك معارك الحرب العالمية الثانية والتي اشتركت فيها امريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا والمانيا فيما بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٤٥. وتؤكد تقارير خبراء الشئون العسكرية أن هناك قدرة قتالية عالية جدا في ادارة معارك الدبابات خلال حرب الشرق الأوسط.

وعلق المراقبو ن العسكريون على معارك الطيران بقولهم إن هناك صورة جديدة تماما تجعل المقارنة صعبة بين عمليات اكتوبر ومعارك الحرب العالمية الثانية ويرجع ذ لك إلى أن العرب لديهم صواريخ سام ٢، ٣، ٦ وربما ٧ أيضا هي صواريخ أرض جو تفوق صواريخ هوك الأمريكية التي لدى اسرائيل، وإن هذه الصواريخ مكنت العرب من أن يتقدموا في المعارك بدباباتهم وإن

يحتفظوا بسلاح الطيران لديهم، وان يتركوا لصواريخ سام الجزء الرئيسى فى مهامهم الدفاعية ضد الطيران.

كما يرى الخبراء العسكريون فى العالم أن الاسرائيليين أساءوا تقدير فاعلية صواريخ سام، وزعموا فى السنوات الماضية أنهم توصلوا إلى طريقة بل وطرق لخداع صواريخ سام، ولكن سير القتال لم يؤكد شيئا من ذلك ولم يثبت ان الاسرائيليين استطاعوا خداع صواريخ سام خلال نشوب القتال.

وأجمع معظم المراسلين الحربيين الذين أتيحت لهم فرصة الذهاب إلى جبهات القتال على أن المعارك كانت بمثابة حملة تأديب لاسرائيل.. وان بالجيوش العربية شراسة ترجع إلى الابتهاج بالنصر، فى حين تسود الاسرائيليين الكآبة نتيجة اكتشافهم أن المصريين والسوريين ليسوا فى صورة الجنود غير الأكفاء كما كان يضللهم قادة اسرائيل..

الفصل السادس

الجبهة الشمالية

اذا كان هذا الكتاب يتعرض بصورة أساسية لمعركة العبور، وما صحبها من عمليات وما تلا ذلك من معارك وتحركات.. فان احداث الجبهة الشمالية فى سورية تدخل فى صميم كل عرض للأحداث فى الجبهة المصرية. لقد كانت المعركة منذ الدقيقة الأولى معركة واحد ة.. وكان العمل والحركة من الجبهتين يتم بصو رة متكاملة وليس مجرد تنسيق وكانت التقارير القادمة من الشمال تروى ان المقاتل السورى وكان يخوض معاركه العنيفة وهو يردد دائما ..، ما اخبار الجبهة المصريه؟، وهكذ ا كان هذا نفسه هو الذى يحدث على الجبهة المصرية حيث كان كل فرد يردد سؤالا واحد ما اخبار جبهتنا الشماليه كل نجاح وكل انتصار يتحقق فى الشمال ينعكس أثره على الجبهة المصرية.

كما كانت انتصارات الجيش السورى منذ الساعات الأولى للقتال ذات اثر فعال بالنسبة إلى معنوياتنا هنا وربما كان لها انعكاساته على أرض العمليات .. وبالتالى كانت معارك الجبهة الشمالية جزءا من معركة عبور قناة السويس وما بعد عبور قناة السويس.

وكان علينا أن نتابع ونعيش مع تقارير القتال القادمة من الجبهة الشمالية من سورية ونفرد لها هذا الفصل.

عندما حانت ساعة الصفر كان الجيش السورى على موعده مع معركة التحرير. وكان العدو الاسرائيلى قد بدأ بالاعتداء على المواقع السورية الأمامية، وحاولت بعض أسراب طائرات العدو الاسرائيلى من القاذفات المقاتلة اختراق السماء السورية وردت المدفعية السورية على هذا الاعتداء. وقامت المقاتلات الاعتراضية السورية بالتصدى للطائرات المغيرة ودارت معركة جوية انتهت بانسحاب الطائرات الاسرائيلية.

ونجحت القوات السورية فى ايقاف كل الهجمات الاسرائيلية على المواقع السورية وبدأت فى شن هجوم مضاد حيث دارت عدة معارك استطاعت خلالها القوات السورية تحرير عدة مواقع متقدمة على جبل الشيخ فى هضبة الجولان. وقالت التقارير إن الشعب السورى انصرف إلى أعماله العادية محتفظا بهدوئه العادى بينما كانت هناك بعض التجمعات حول أجهزة الراديو لمتابعة آخر التطورات العسكرية. واشتركت البحرية السورية فى القتال منذ اللحظات الأولى عندما اقتربت بعض الزوارق الاسرائيلية من الشواطئ السورية فى منطقة اللاذقية فاشتبكت معها القوات البحرية السورية والمدفعية الساحلية ودارت معركة بحرية استمرت حوالى ساعتين انتهت بانسحاب زوارق العدو تاركة ستة زوارق اسرائيلية دمرتها البحرية السورية ومن بينها سفينة القيادة. واستخدمت البحرية السورية الصواريخ والطوربيد وأصيب لها زورق طوربيد واحد وكانت اصابته متوسطة. ويبدو أنه لم يكن للعملية البحرية التى لجأ اليها العدو فى اللاذقية طوال اليوم الأول للقتال هدف عسكرى محدد، سوى محاولة استعراض امكانياته فى الوصول الى ميناء سورية الرئيسى، ومحاولة رفع معنويات افراده عن طريق بيانات تضعه فى صورة المهاجم والقادر على ضرب الميناء السورى.. وربما كان هذا هو هدف العدو ايضا من تكرار مهاجمة الميناء السورى، وليس أكثر من ذلك لأنه لا يستطيع طبقا لجميع الامكانيات المتاحة له أن يقوم بأى عمليات انزال على الساحل السورى الذى يقع فى أقصى شمال البحر المتوسط، ولا يستطيع حتى أن يوهم بالقدرة على

ذلك حتى يسحب جزءا من القوات السورية الى جبهة أخرى فى الشمال..
ورغم تكرار عمليات الهجوم البحرى الاسرائيلى على الساحل السورى فإن العدو لم يتمكن من القيام بعملية خاصة هناك ينزل بها عددا من أفراده بحيث يحقق غرضا دعائيا أو معنويا.

ولهذا فعلينا أن نركز اهتمامنا فى عرض معارك الجبهة السورية التى دارت فى الجولان وما صحب ذلك من عمليات جوية واسعة قام الدفاع الجوى السورى خلالها بواجبه على خير وجه حتى انه أذهل المراقبين هنا وهناك. وسجلت تقارير المراسلين الأجانب فى لبنان بطولاته، حيث كانت بعض الطائرات الاسرائيلية تضرب فى سماء سورية وتسقط محترقة على الأرض اللبنانية وفى مرتفعات الجولان اتخذ الرد السورى على العدوان الاسرائيلى صورة هجوم واسع على مواقع العدو والمناطق التى يحتلها واستطاعت المدرعات والقوات الميكانيكية السورية فى اليوم الأول للقتال أن تحرر بعض المواقع التى كان يحتلها العدو فى منطقة جبل الشيخ، وأن تطهر هذه المواقع أيضا..

وعندما ننظر إلى خريطة المنطقة نجد أن كلا من القوات السورية والقوات الاسرائيلية تقف فوق الهضبة نفسها دون أن تحتكر أى من القوتين ميزة للارتفاع عن الأخرى وهذا أبرز ما تحقق لاسرائيل فى يونيو ٦٧ عندما تمكنت من أن تنتقل من مواقعها الواطئة «المنخفضة» لتركب حافة الهضبة السورية لكى تبقى للقوات السورية ميزة لا تتوافر للعدو فى هذه المنطقة وهى أن خطوط امداد وتموين وتدعيم الجيش السورى اقصر من خطوط العدو ولا تنتقل من منخفض إلى مرتفع، بينما خطوط العدو الطويلة نسبيا عليها أن تصعد حافة الهضبة مع كل عربة أو وحدة تدفع بها لامداد قواته أو تدعيمها، واذا تركنا الحديث عن ميزات المواقع فى الجبهة السورية إلى محاولة لعرض وتحليل سير العمليات نجد أن هناك ظاهرتين رئيسيتين برزتا فى الموقف منذ اللحظة الأولى وهما:

أولا: أن عنصر المبادأة كان فى جانب القوات السورية منذ الساعة الأولى للمعركة وأن ذلك أعطى الجيش السورى دفعة قوية استمرت بعد ذلك رغم محاولات العدو.

ثانيا: عندما فقدت قوات العدو عنصر المبادأة ثم القدرة على تحويل العمليات إلى اندفاع هجومى نحو العمق السورى لجأت منذ البداية إلى القيام بنشاط جوى هائل لم يعرف من قبل الا فى الحروب الفيتنامية - على أمل أن تحقق لها الغارات الجوية عناصر النجاح لهجماتها (المعاكسة) أو المضادة وهذا ما استطاع الدفاع الجوى السورى أن يحوله إلى استنزاف مستمر لطائرات العدو ينتهى بفشل محاولات القوات المعادية الانتقال إلى موقف الهجوم.

ونتيجة لاحتفاظ القوات السورية بعنصر المبادأة واستمرارها فى الحركة، وفرض معركة طويلة على العدو، يقف منها موقفا مدافعا، استمر سير العمليات فى الليلة الأولى واليوم الثانى للقتال محققا نجاحا كبيرا للخطة السورية. وواصلت القوات السورية التقدم إلى مواقع جديدة فى مرتفعات الجولان.

واعترف راديو اسرائيل بان القتال كان مريرا فى الجبهة الشمالية. وان المستعمرات الاسرائيلية قد تعرضت لقذف المدفعية والطيران السورى وواصل راديو اسرائيل اعترافه بمصرع ٢٥ اسرائيليا وإصابة أعداد كبيرة منهم. وقام الطيران بدور رئيسى وفعال فى المعركة منذ بدايتها حيث تصدت المقاتلات السورية لطائرات العدو عندما اغارت على المواقع السورية فى الجولان وتمكنت الطائرات السورية من اسقاط عشر طائرات اسرائيلية وقد اثبت الطيارون السوريون مهارة كبيرة فى تفوق القتال الجوى سجلتها تقارير المراسلين والمراقبين.

كان تركيز النشاط الجوى للعدو على الجبهة السورية واضحا رغم أنه كان يقوم فى الوقت نفسه بغارات متكررة وعنيفة على الجبهة المصرية، استهدفت فى بدايتها المعابر المصرية فوق قناة السويس وعاود الطيران الاسرائيلى

الاغارة على المواقع السورية فى الجولان وتصدت له اسراب الطائرات المقاتلة الاعتراضية السورية التى تحملت واجبا كبيرا خلال معارك الطيران وسجلت التقارير أن الروح المعنوية للطيار السورى قد ارتفعت عندما بدأ يدخل فى معارك طويلة مع الطائرات الاسرائيلية تنتهى باسقاطها بينما كان لذلك أثره العكسى بالنسبة للطيار الاسرائيلى ضاعف منها سقوط ١٨ طائرة للعدو فى معركة واحدة، بينما فرت باقى الطائرات الاسرائيلية..

وفى نهاية اليوم الثانى للقتال سجل الطيران السورى ووسائل الدفاع الجوى أروع صفحات القتال عندما تمكنت قواته من اسقاط عدد كبير من طائرات العدو فى ذلك اليوم. واستمر القتال فى الجبهة الشمالية لليوم الثالث على التوالى فوق هضبة الجولان حيث تقدمت القوات السورية ببسالة فوق مرتفعات الهضبة ويعتبر استرداد القوات السورية للجزء الأكبر من القطاع الأوسط فى الجولان هو أهم أسباب دفع العدو باعداد هائلة من الطائرات إلى اهداف سورية خاصة بعد أن استطاعت القوات المسلحة السورية احباط الهجمات المضادة التى قام بها العدو، وتدمير عدد كبير من دباباته، كما تمكنت قوات الطيران السورى من ضرب الاحتياطات التى حاول العدو تعزيز قواته بها. وواصلت القوات السورية تقدمها لليوم الرابع حتى مشارف مدينة القنيطرة وهى منطقة استراتيجية مهمة فى المرتفعات السورية وتعتبر عقدة للطرق الجبلية هناك وتضم مفارق المسالك الجبلية ذات القيمة التكتيكية الكبيرة.

وبدأت معارك الطيران تأخذ شكلا جديدا.

واتجهت أسراب الطائرات الاسرائيلية لضرب الأهداف المدنية فى دمشق بعد أن عجزت عن ضرب القوات المسلحة السورية. واستشهد عدد كبير من المدنيين. ولكن هذه الغارات الجنونية أدت إلى تنبيه الرأى العام العالمى ولفت نظره إلى عجز العدو عن مواصلة الدفاع والهجوم والقتال ضد قواتنا المسلحة فلجأ إلى الأهداف المدنية فى محاولة يائسة لخفض الروح المعنوية للشعب السورى.

الا أن الأهداف التى أصيبت فى دمشق كانت أهدافا (دبلوماسية) حيث سقطت القنابل الاسرائيلية على سفارتى الهند وباكستان ومبنى المركز الثقافى السوفيتى. وكان من بين الذين لقوا مصرعهم زوجة خبير باكستانى وأحد مراقبى الأمم المتحدة وزوجته وابنته وزوجة وأولاد السفير الباكستانى ومدير مكتب الأمم المتحدة. وأدت غارات العدو على الأهداف المدنية فى دمشق الى تزايد بل تضاعف شهود العيان من المراقبين الاجانب الذين توالت تصريحاتهم مؤكدة بطولة وتفوق الدفاع الجوى السورى. وأكد عشرات من الصحفيين والدبلوماسيين الأجانب فى تقارير رسمية وبرقيات صحفية أن عشرات من الطائرات الاسرائيلية تسقط كل يوم بفعل الصواريخ السورية المضادة للطائرات (أرض - جو).

ووصف أحد الدبلوماسيين الغربيين أكثر من مشهد رآه بنفسه قائلا: ان الصواريخ السورية تنطلق مع كل غارة لتظل تلاحق الطائرات السورية ثم يتحول مشهد السماء إلى لوحة سريالية تنتشر فيها بدون نظام الألوان الحمراء والبرتقالية التى تتهاوى على اثرها الطائرات الاسرائيلية. كما شهد عشرات من الدبلوماسيين والصحفيين الاجانب حطام اكثر من عشر طائرات اسرائيلية سقطت على الارض اللبنانية فى الايام الاربعة الاولى للقتال بعد أن اصابتها وسائل الدفاع الجوى السورى.. وبالتحديد صواريخ ارض - جو من طراز سام. كما كان لأسراب الطائرات السورية دورها فى معركة الطيران حيث احبطت القوات الجوية السورية فى اليوم الرابع للقتال محاولة قامت بها طائرات العدو عندما حاول تشكيل معاد فى المساء التسلل إلى منطقة الزلف.

وظلت معارك الطيران مستمرة لليوم الخامس على التوالى حيث كانت تشكل أهم وأبرز احداث القتال على الجبهة الشمالية.. ودارت معركة جوية فوق القطاع الاوسط من الجبهة وتمكنت الطائرات السورية من اسقاط طائرة من طراز ميراج ،وبعد نصف ساعة من هذه المعركة تمكنت المدفعية السورية المضادة للطائرات من اسقاط طائرة سكاى هوك انفجرت فوق هضبة الجولان.

وكانت المعركة الجوية الثانية عندما حلق تشكيل معاد يضم أربع طائرات فوق القوات السورية وكان ذلك بالمنطقة الجنوبية ولكن وسائل الدفاع الجوى السورى دمرتها جميعا.

وعاد العدو إلى الاغارة على المنشآت المدنية فى حمص وطرطوس واللاذقية فاشتبكت معه الطائرات السورية واسقطت له ٦ طائرات. واستمر النشاط الجوى المعادى فى عمليات محمومة حيث دارت فى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين معركة جوية ضارية بين عدة تشكيلات اسرائيلية وبين المقاتلات السورية التى اسقطت طائرة من طراز ميراج..

وبعد الظهر اسقطت وسائل الدفاع الجوى السورى طائرتين اسرائيليتين احداهما من طراز فانتوم هبط ملاحاها بالمظلة ثم اسقطت وسائل الدفاع الجوى السورى ثلاث طائرا ت ضمن تشكيل يتكون من اربع طائرات فانتوم حاول الاغارة على مطار دمشق الدولى.. ومرة أخرى وقد اصبح من الصعب احصاء هذه الغارات حاولت عدة تشكيلات معادية الاغارة على مدينة دمشق فتصدت لها المقاتلات السورية واشتبكت معها فى معركة جوية كبيرة على الحدود السورية اللبنانية بينما عجزت الطائرات الاسرائيلية عن الاقتراب من اهدافها ثم كانت بعد ذلك اكبر معركة جوية دارت خلال الاسبوع الاول للقتال عندما حاولت طائرا ت العدو فى الساعة الرابعة من بعد الظهر قصف عدد من المطارات السورية فتصدت لها المقاتلات السورية وكانت معركة قتال جوى عنيف انتهت بسقوط ١٤ طائرة للعدو.. وهكذا كان العدو يحاول مع أول ضوء تركيز جهده الجوى على جبهة القتال السورية. كما شملت محاولاته اهدافا مدنية، وخاضت الطائرات السورية المقاتلة ووسائل الدفاع الجوى معارك بطولية وعنيفة ضد الطيران الاسرائيلى وكبدته فيها خسائر كبيرة دون ان يتمكن الطيران الاسرائيلى من تحقيق اهدافه.

وعلى جبهة الجولان بدأت قوات العدو هجماتها المضادة ودارت معارك ضارية حين حاول العدو جلب احتياطاته بالتتابع لوقف تقدم القوات السو رية.

وصدت القوات السورية ما وصل منها إلى ميدان القتال وتكبد العدو الاسرائيلى خسائر كبيرة.

وبدأت اسرائيل تشعر أن غاراتها الجوية الكثيفة التى شملت الجبهة السورية والاهداف المدنية داخل سورية لم تحقق الهدف منها ولم تؤد الى النتائج التى تتوقعها خاصة بعد أن ازداد تماسك الجبهة السورية نتيجة فشل الهجوم الاسرائيلى المضاد على المناطق المحررة فى الجولان، وبعد وصول طلائع الجيش العراقى إلى أرض المعركة.

وأمام ذلك اضطر العدو مع فجر اليوم السادس للقتال العودة إلى مواصلة غاراته الجوية الكثيفة على جبهتنا الشمالية رغم كل خسائره السابقة التى ارتفعت الى أرقام كبيرة لم يكن أمام العدو سوى ذلك حتى لا يضطر الى الاستسلام لموقف دفاعى فى الجولان، بينما هو يرفض دائما ان يكون مدافعا - بل كما قلنا - غير قادر على البقاء مدافعا.

وكان العدو يهدف من وراء النشاط الجوى الواسع على الجبهة السورية الى الوصول لحالة من الهدوء النسبى فى الجولان تمكنه من تقديم معاونة جوية اكبر لقواته التى تواجه معارك ضارية بالدبابات فى سيناء. ومن أجل ذلك دفع العدو بمجموعات كبيرة من الطائرات الى أتون النيران المشتعلة فى سماء الهضبة السورية على أمل أن تتمكن هذه الطائرات فى الغد من التفرغ للعمل على الجبهة المصرية.

وبالإضافة إلى هذا النشاط الجوى الكبير كانت المعارك البرية والبحرية فى الجبهة الشمالية مستمرة.

فى البحر.. استمرت محاولات العدو فى قذف الاهداف المختلفة على الساحل السورى مستخدما الزوارق والسفن ذات التسليح المتوسط.

ولكن معارك الساحل لم تؤد الى ضرب النشاط الجوى السورى بعيدا عن ارض القتال فى الجولان، وتولت التعامل مع قطع العدو البحرية وحدات

للمدفعية السورية وبعض الزوارق، حتى ان العدو اضطر الى الانسحاب بعد معركة ضارية استمرت ساعتين.

وبالنسبة للمعارك الجوية استمرت الطائرات الاسرائيلية فى الاغارة على المواقع والمطارات السورية لتواجه اسراب المقاتلات الاعتراضية السورية ووسائل الدفاع الجوى.. وباتت هذه المعارك مستمرة بشكل لا ينقطع - باستثناء الليل - حيث تجنب العدو فى معظم الوقت القيام بأى نشاط جوى واسع ليلا.

وامام استحالة تحقيق الهدف من كل هذه الغارات الجوية الاسرائيلية على سورية امام صلابة الدفاع الجوى السورى، ويقظة الطائرات الاعتراضية السورية وسلامة قواعدها، بدأ العدو يتجه باعداد كبيرة جدا من الطائرات الى المطارات السورية وقواعد الدفاع الجوى، فى محاولة لوقف نشاطها وتعويقها ولو لفترة محددة تكفى للقيام بعمليات جوية أخرى على الجبهة فى سماء هادئة نسبيا ولتقديم العون للقوات البرية الاسرائيلية فى الجولان والتى كانت - على ما يبدو - فى اشد الحاجة الى هذا العون.

ولكن استمرار الطائرات الاسرائيلية فى قصف المواقع السورية ووسائل الدفاع الجوى والمطارات لم يكن له أثر كبير، بل إن خسائر العدو من الطائرات حافظت على معدل ارتفاعها!

وكان لعدم نجاح هذه الغارات الاسرائيلية على المطارات، ووسائل الدفاع الجوى أثره فى عدم تقديم عون جوى اسرائيلى مؤثر لقوات العدو على هضبة الجولان وكان لذلك بالطبع أثره على فشل الهجوم الاسرائيلى المضاد الكبير الذى شنه العدو على موقع الجيش السورى فى الجولان والذى كان - وللمرة الثانية - قد بدأ بعد ظهر اليوم السادس للقتال - وتصدى الجيش السورى للهجوم المعاكس (المضاد) وتمكن من صده بينما خسر العدو ٦١ دبابة خلال مراحل هذا الهجوم وانتهى به الامر إلى الانسحاب وكنوع من «التغطية» لهذه النتائج اتجه العدو - كعادته دائما - إلى القيام بإحدى العمليات الخاصة بعيدا عن أرض المعركة.

وكانت عمليته الخاصة من ذلك النوع الدعائى الذى لا ينعكس له أثر مباشر على أرض القتال.

فى منتصف ليلة ١٢ ـ ١٣ اكتوبر أو فى اللحظات الاولى من اليوم السابع قامت مجموعة من الزوارق والسفن الحربية الاسرائيلية فى حماية مجموعات من طائرات الهليوكبتر بقصف مرفأ طرطوس. ولكن القوات البحرية ووسائل الدفاع الجوى السورى اشتبكت معها فى معركة بحرية استمرت ما يقرب من ساعة ونصف ساعة ودمرت خلالها القوات السورية ٣ زوارق للعدو وطائرة هليوكبتر.

ومع أول ضوء.. كانت طلقات الطيران الاسرائيلى قد بدأت وتمكن الدفاع الجوى السورى من اسقاط اربع طائرات للعدو الاسرائيلى وبعد ساعة واحدة قامت المقاتلات السورية باسقاط طائرتين معاديتين فوق المنطقة الجنوبية من بالجبهة.. وبعد ساعتين من ذلك اسقطت وسائل الدفاع الجوى السورى طائرة اسرائيلية فوق الجولان. واستمرت المعارك الجوية بين المقاتلات السورية ووسائل الدفاع الجوى السورية فى المعركة الأولى ٦ طائرات، معادية.

بينما دارت المعركة الثانية عند قيام تشكيلات،العدو الجوية بالاغارة على بعض المطارات السورية فاشتبكت معها وسائل الدفاع الجوى السورى بنيرانها المركزة والكثيفة.

واثناء هذه المعارك الجوية التى دارت بصورة متكررة وعلى فترات متقاربة، نلاحظ أن المعارك البرية قد بدأت منذ فجر اليوم السابع للقتال بين القوات السورية وقوات العدو على طول الجبهة الشمالية. تتخذ صورة عنيفة، ودارت معركة ضارية فى القطاع الشمالى من الجبهة اشتركت فيه الدبابات والمدفعية، وأفادت تقاريرها أن الجيش السورى تمكن من تدمير أربعين دبابة اسرائيلية وعشرين عربة مجنزرة. وقالت التقارير الواردة من الجبهة الشمالية: ان اسرائيل ظلت تركز هجماتها الجوية الشرسة طوال الاسبوع الاول من

الحرب على الجبهة السورية وبالذات القطاع الشمالى فى محاولة لإنجاح هجماتها المضادة واستعادة عنصر المبادأة فى الجولان.

واستمر شن الهجمات المضادة على الجيش السورى واستخدام العدو وحداته المدرعة بكثافة تدعمه بطاريات المدفعية وتعاونه الطائرات القاذفة المقاتلة. كما استعان العدو فى بعض مراحل هذه الهجمات المضادة بالطائرات الهيلوكبتر.

وحقق العدو الاسرائيلى فى الجولان بعض النجاح المحدود خلال احدى هذه الهجمات المضادة، الا ان ارتفاع خسائر الطيران الى أرقام ضخمة ساعد القوات السورية على كسر هجماته وتثبيته لتظل محتفظة بالمبادأة فى الجولان. وحاول العدو أن يستغل بعض النجاح المرحلى فى الجبهة الشمالية ليشن حربه النفسية التى برع فيها. واذاع راديو اسرائيل ان القوات الاسرائيلية تمكنت من احتلال مدينة «سعسع» على الجبهة السورية.

واصدرت القيادة الاسرائيلية عدة بيانات قالت فيها ان القوات الاسرائيلية فى طريقها الى دمشق وانها على بعد ٣٨ كيلو مترا من العاصمة السورية!

ويجب أن تدرك أن البيانات الاسرائيلية نفسها قد كشفت عن الكذب الاسرائيلى عندما قال احد هذه البيانات ان القوات الاسرائيلية على بعد ٨ كيلو مترات من دمشق، ثم جاء البيان الثانى ليزعم انهم على بعد ٢٣ كيلو مترا من العاصمة السورية والبيان الثالث بانهم على بعد ٣٥ كيلو مترا من دمشق وجاء البيان الرابع الذى أعلن أن قوات اسرائيل تتقدم نحو العاصمة السورية وأنها على بعد ٣٨ كيلو مترا منها.

وقد تم دعم القوات السو رية فى الجولان بعدة ألوية من الجيش العراقى الذى كان قد وصل بالفعل الى جبهة القتال بينما سبقته اسراب الطائرات العراقية واشتركت فى المعارك منذ ايامها الاولى كما بدأ اللواء المدرع الاردنى فى تحمل واجبات قتالية على الجبهة السورية.

واستمرت معارك الطيران فى الجبهة الشمالية. وهاجم العدو الارض السورية عدة مرات فى يوم واحد .

وكانت أولاها المعارك اليومية العنيفة التى دارت بين القوات السورية وقوات العدو فى القطاع الشمالى من الجبهة وتمكنت خلالها القوات المدرعة السورية والمدفعية بالاشتراك مع السلاح الجوى السورى من صد هجوم اسرائيلى استهدف بعض النقاط الامامية المتقدمة ودمر للعدو عددا كبيرا من الدبابات والآليات والمواقع.

وبعد احباط الهجوم الاسرائيلى المضاد قامت وحدات من الدبابات والمشاه السورية تعاونها مدفعية الميدان السورية وتشكيلات من الطائرات القاذفة بمهاجمة قوات العدو فى عدة مواقع من هذه الجبهة واشتبكت معه فى معارك طويلة وأنزلت بالعدو خسائر كبيرة من بينها ٥٠ دبابة و٣ بطاريات مدفعية. وعدد من المدافع المضادة للدبابات.

بينما قامت القوات السورية المتمركزة فى القطاعين الجنوبى والأوسط بعدة هجمات على مواقع العدو بغرض تدمير قواته وان كانت الهجمات السورية فى هذين القطاعين قد وصفت بأنها هجمات محدودة، إلا أنها أسفرت عن تدمير ١٥ دبابة للعدو وعدد من المدافع المضادة للدبابات.

وحاول العدو تعزيز ومساندة قواته فى الجبهة الشمالية اثناء خوضها تلك المعارك فدفع بطائراته فى محاولة لمساندة القوات المدرعة ولكن وسائل الدفاع الجوى السورى اسقطت له ٣ طائرات.. وقامت الطائرات القاذفة السورية بعدة غارات متتالية على مواقع المدفعية الاسرائيلية وعلى مواقع تجمعات العدو.

وبدأ الهجوم السورى الكبير وبدأت معه مرحلة جديدة من مراحل التقدم السورى على الارض المحررة.. واعلن الرئيس حافظ الاسد نجاح القوات السورية فى طرد العدو من جبل الشيخ والقنيطرة وتل الفرس.

الفصل السابع

مع الاسرى

فى احدى ضواحى القاهرة اعدت القوات المسلحة المصرية معسكرا خاصا لاستقبال واقامة اسرى العدو الاسرائيلى الذين بلغ عددهم فى اليوم الاول للقتال حوالى ١٠٠ اسير.. ثم اخذ العدد يتزايد مع كل ساعة من ساعات القتال حتى وصل عددهم فى نهاية الاسبوع الاول من المعركة الى عدة مئات من الاسرى بينهم عدد من الطيارين وبعض الجرحى. وداخل معسكر الاسرى يعيش افراد العدو اياما لا يتابعون فيها انباء الحرب التى انتهت بالنسبة لهم. وهم طبقا لاتفاقية جنيف يعيشون تحت قيادة رئيسهم وصاحب اكبر رتبة عسكرية بينهم وهو العقيد اسير عساف ياجورى الذى كان قائدا للواء الاسرائيلى المدرع ١٩٠ والذى تم اسره فى سيناء فى اليوم الرابع للقتال اى يوم ٩ اكتوبر ١٩٧٣.

وقصة اسر ياجورى تبدأ مع معارك الدبابات فى سيناء والتى بدأت منذ اليوم التالى للقتال. كانت قواتنا قد تقدمت حوالى ١٥ كيلو مترا داخل سيناء وبعد ان دمرت جميع المواقع الحصينة. وحاول العدو ايقاف تقدم القوات المصرية فدفع اليها بقواته المدرعة، ودارت عدة معارك بين المدرعات المصرية والاسرائيلية، حيث قامت القوات المدرعة بمعاونة تشكيل من قواتنا الجوية بالاشتباك مع اللواء ١٩٠ المدرع واستطاعت ان تدمره تماما، وتأسر

قائده العقيد عساف ياجورى الذى يقال ان المدرعات المصرية كانت متفوقة فى القتال وان دبابته اصيبت اصابة مباشرة بنيران الدبابات المصرية مما نتج عنه خروج العقيد عساف ياجورى هو ومن معه من افراد طاقم دبابة القيادة ليسلموا انفسهم للقوات المصرية التى قامت بنقله الى الخطوط الخلفية.

وعقد العقيد عساف ياجورى مؤتمرا صحفيا ونشرت له احاديث عن المعارك الدائرة أذيعت على شاشة تليفزيون جمهورية مصر العربية. وقال انه كان مكلفا بقيادة لواء مدرع عليه ان يصد الهجوم الذى تقوم به القوات المدرعة المصرية فى القطاع الجنوبى واعترف بان وحدته لم تحقق هدفها لانها كانت معركة صعبة.

وعندما سئل العقيد ياجورى عن نو ع المعاملة التى يلقاها فى الاسر قال ان معاملة الضباط الاسرى كريمة، وسئل عما اذا كان يريد نقل رسالة الى اهله فقال انه يريد ان ينقل لزوجته واولاده انه بصحة جيدة.

وفى معسكر الاسرى حيث مئات من افراد العدو الاسرائيلى نرى نماذج اخرى من اسرى العدو، بينهم افراد كانوا ضمن قو ات سلاح المدرعات الاسرائيلى ايضا لو انهم غير الذين عملوا تحت قيادة اسيرنا الاول العقيد ياجورى.

ويظل الافراد الاسرى يتحدثون عن قصصهم وعن أحداث الحرب قبل اسرهم.. وعن الاعمال التى كانت موكلة الى وحداتهم .. ولا شئ آخر غير ذلك عن الحرب، فقد توقفت احداث المعارك فى أذهانهم عند نقطة واحدة تختلف باختلاف يوم اسر كل منهم وهو يوم نهاية القتال بالنسبة له.

وعندما نقترب من العريف اسير دافيد دارخيم لنستمع الى كلماته، فاننا نجد حديثه يبدأ دائما باليوم الاول للقتال يوم السبت ٦ اكتوبر.. وبالتحديد بعد الظهر.

فبعد ظهر ذلك اليوم ـ وكما يروى هذا الاسير ـ دفعت القوات الاسرائيلية بوحدات مدرعة تحركت لشن هجوم مضاد على القوات المصرية التى عبرت القناة فى القطاع الجنوبى.

وكان العريف ديفيد دارخيم ضمن تشكيل الدبابات التى دمرتها قواتنا. وقد رأى هو ثلاث دبابات اسرائيلية من حوله قد اصابتها المدرعات المصرية خلال تقدمها للالتفاف حول دبابات العدو.

تقدمت القوات المصرية وقامت بأسر دارخيم الذى سارع برفع يديه. وفى رأى هذا الاسير أن عبور القوات المصرية كان مفاجأة كبيرة وغير متوقعة بالنسبة له ولجميع زملائه. وقد اشار الى أن المقاتلين المصريين كانوا يقاتلون بروح معنوية عالية وان النيران المصرية كانت شديدة ومركزة حتى انه رأى جميع من حوله بين مصاب واسير.

ونترك سلاح المدرعات الاسرائيلى لندخل الى مواقع خط بارليف (سابقا) مع اسير من اسراه وهو احد افراد المشاة الاسرائيلى شميس باروخ..

ويردد باروخ دائما نفس الكلمات .. اننى لم اكن اقاتل .. لقد سلمت نفسى ولم يكن معى سلاح.. اننى قدمت نفسى رافعا يدى الى أول جندى مصرى رأيته.. قد كنت داخل الموقع فى القطاع الشمالى شرق القناة. وفوجئت بالمعركة وأنا جالس.. لم يكن أحد منا نحن الخمسة الذين كنا داخل الموقع يتوقع شيئا مما حدث.. فوجئنا بقذيفة مصرية تقع على موقعنا وفوجئنا بأن القوات المصرية عبرت القناة ودخلت الموقع.. كنا نحن الخمسة قد قسمنا انفسنا.. اثنان للمراقبة وبقيت أنا مع زميلى داخل الموقع.. وعدما دخل الجنود المصريون الموقع سلمت لهم نفسى.

ويقول باروخ إنه من اليهود الشرقيين (آسيوى) وان ذلك ينعكس على حياته فى اسرائيل وعلى وضعه فى الجيش الاسرائيلى.

ان التفرقة واضحة جدا فى المعاملة فاليهودى الاوروبى طلباته تجاب، بينما يعمل اليهود الشرقيون «كالحمير» على حد تعبيره ويعيشون فى حجرات حقيرة.. حتى فى الجيش فانهم آخر ممن يحصل على الاجازات بعكس اليهود الاشكنازيين!

ويتحدث باروخ بوصفه أحد أفراد خط بارليف ـ الذى كان حصيننا فيقول انه كان يتصور ان خط بارليف اقوى من ذلك بكثير.. وانه غير قابل للاقتحام، وانه شاهد معارك المدفعية وقذائفها ولكنه لم ير الطائرات المصرية وان استطاع ان يشهد بنفسه سقوط طائرتين اسرائيليتين.

ومع استمرار المعارك فى سيناء يزداد عدد الاسرى الذين قامت قواتنا المسلحة بأسرهم.

والدكتور مان دانييل نموذج آخر من الأسرى الاسرائيليين، لقد كان يعمل طبيبا مدنيا فى مستشفى اسرائيلى عندما استدعى للخدمة، وكان الدكتور دانييل فى موقع قرب الضفة الشرقية وأنه بقى فى الموقع عدة ساعات بعد بدء القتال دون أن يكون له حول ولا قوة، كما لا يستطيع بسبب استمرار المعارك أن يقدم أى اسعافات مجدية للجرحى الاسرائيليين.. وقال: إن المياه نفدت من الموقع الذى كان بداخله، بينما لم يتلق الموقع أى نوع من الإمدادات. وعندما تقدمت القوات المصرية لأسر من فى الموقع كان هو لا يدرى ماذا يجرى من حوله ولهذا وعلى حد تعبيره فانه قد استراح إلى ترك الموقع والوقوع فى أسر القوات المصرية. وعن نظرية الأمن الاسرائيلى يقول إنه لم يعد يؤمن بنظرية الأمن الاسرائيلى التى يتشدق بها القادة الاسرائيليون، وانه ضد هؤلاء الساسة.. بل وضد السياسة بصفة عامة!

وقال: إن كل ما يعرفه عن المعارك يتلخص فى أنه قد عرف أن المعارك دائرة.. بين القوات المصرية وجيش اسرائيل. كما علم أن الموقف فى غير صالحهم.. ويكرر مرة أخرى أنه طبيب وأنه ضد الحرب.. وأنه من دعاة

السلام! وأن ذلك معروف عنه فى اسرائيل وفى أماكن عمله وخدمته، ولكن القيادة الاسرائيلية التى تعمل بكل طاقاتها من أجل التوسع والقتال واحتلال الاراضى لا تهتم كثيرا بمعنويات المقاتل الاسرائيلى ولكن كل ما يهمها هو تحقيق نصر رخيص سرعان ما يتبدد.

وداخل معسكر الأسرى الإسرائيليين اكثر من طيار اسرائيلى اسير.. والملازم طيار جور شاب فى الرابعة والعشرين، كان يعمل بوحدات الاستطلاع الجوى بسلاح الطيران الاسرائيلى.. وغادر قاعدته مع زميل له فى مهمة استطلاعية قرب قناة السويس.. وكانت النيران هناك فى انتظاره..

ويقول الطيار الأسير إنه فقد اتصاله بزميله قائد الطائرة الأولى فى التشكيل.. ويؤكد أنه لا يعرف كيف أسقطته الطائرات المصرية كل ما يذكره انه وجد طائرته وقد اصيبت لتهوى فى البحر قرب الشاطئ ويبدو - فى رأيه - ان القوات المصرية كانت تراقبه لأنها تمكنت من انتشاله بسرعة ليجد طريقه حيث التقى بزملاء آخرين سبقوه إلى معسكر الأسرى الاسرائيليين ويكرر جور - مرة أخرى - أنه أحد طيارى الاستطلاع، ولم يشترك فى القتال ولم يسبق له طوال خدمته بسلاح الطيران، والتى استمرت عاما ونصف العام أن اشترك فى أى قتال!.. ويؤكد أنه استاء جدا عندما سمع عن قيام الطائرات الاسرائيلية بضرب مصانع مدنية ومدرسة للأطفال فى مصر.. وأنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا لأنه يتلقى الأوامر وينفذها وهذا كل شىء بالنسبة له.

ويكرر الطيار الأسير نفس الكلمات التى تسمعها دائما - وبنفس ألفاظها تقريبا - من باقى الأسرى.. ويقول إن احدا لم يتوقع أن تعبر القوات المصرية قناة السويس وأن تقتحم خط بارليف المنيع.. اننى مندهش. لقد كان هناك اجماع على أن خط بارليف شىء لا يمكن لأية قوة أن تقتحمه.

وهناك صورة أخرى لموقف الأسرى فى مصر يجب أن نعرض لها وهى صورة الأسرى الاسرائيليين الجرحى فى مستشفياتنا.. لقد سقط المئات من

جرحى العدو.. واستسلموا وكان على القوات المصرية أن تنقلهم إلى مستشفياتنا ولم يكن ذلك غريبا بالنسبة للمقاتل المصرى الذى وجد أمامه عدوا إسرائيليا مثقلا بالجراح كان فى استطاعته أن يقضى عليه أو يتركه لقدره ولكنها الحضارة الانسانية التى حققت التاريخ على امتداد آلاف السنين وربما يكون ذلك مدلول الكلمات التى قالها الرئيس أنور السادات.

«إننا لسنا دعاة ابادة كما يزعمون».

الباب الثالث

حديث الأبطال

الفصل الأول

طائرات.. فوق أم خشيب

لم تكن المرة الأولى التى التقى فيها بصديقى الطيار الذى أعرفه منذ ١٢ سنة التقينا خلالها عدة مرات بل وكان هو قائد قاذفة القنابل النفاثة التى ركبتها من قاعدة غرب القاهرة الجوية ذات يوم عندما كنت أقوم باعداد تحقيق صحفى عن القاذفات المصرية من طراز تيبيلوف (ت ى ١٦ ـ ذات المدى البعيد).

ولكن الأمر هذه المرة كان مختلفا.. لقد أصبح «أنيس» بطلا من أبطال أكتوبر.. وعندما التقيت به لأستمع إلى تفاصيل العمليات المثيرة التى اشترك فيها كان لقاؤنا هذه المرة فى قاعدة أخرى أدخلها لأول مرة، بل وأسمع عنها لأول مرة.

قلت له إننى أعمل محررا عسكريا منذ حوالى عشرين عاما وأعترف أننى لم أكن أعرف أن فى هذه المنطقة قاعدة جوية.

قال إن هذه القاعدة واحدة من قواعد جوية أنشئت قبل معركة أكتوبر ولم تستخدم إلا عندما حانت ساعة الصفر. إن المطار لا يمكن أن يظل سرا لأن أمره ينكشف مع أول طائرة تقلع منه أو تهبط فيه.. ومع ذلك فإن تقدم وسائل الاستطلاع التكنولوجية والالكترونية سهلت اكتشاف المطارات بسرعة وبدقة..

لهذا فان السر الذى يمكن الاحتفاظ به هو مقدار القوة الجوية التى تستخدم هذه القاعدة ومكان القاعدة التبادلية فى خطة العمليات والنية المبيتة فى هذا الاستخدام وهدفها..

المهم أن كل ما يدور حول هذه القاعدة كان سرا صغيرا بين أسرار كثيرة وضخمة استطعنا أن نحتفظ بها فى أضيق الحدود..

هل تصدق أننا انطلقنا من هذه القاعدة ضمن أول موجة من طائراتنا لتهاجم مواقع العدو وقواعده الجوية ومراكز سيطرته فى سيناء وعدنا إلى القاعدة ليبدأ الفنيون فى إعادة ملء الطائرات.

ومازال هتاف «الله أكبر» الذى قوبل به الخبر يدوى فى أذنى.. أننى لن أنساه أبدا.. ويومها حطم هؤلاء الرجال الارقام العالمية فى سرعة اعادة الملء وحطموا الرقم الاسرائيلى الذى كان العدو يزهو به، والذى كان قد حطم به الرقم العالمى. وهنا فى هذ ه القاعدة تم اعداد الطائرات للطلعات التالية، وتزويدها بالذخيرة والوقود وباقى التجهيزات فى ثلثى الوقت القياسى الاسرائيلى وهو حوالى نصف الرقم العالمى المسجل لإعادة الملء..

وردا على عشرات الأسئلة التى كنت أوجهها بدأ بطل القاذفات يروى تفاصيل القصة المثيرة..

كنا نعيش داخل القاعدة قبل بدء المعركة بخمسة أيام لم يغادر أحد منا القاعدة . لم نكن نعرف الساعة المحددة للعمليات ولكننا كنا نعرف أن الوقت قد حان..

وكنا قد أتممنا بالفعل جميع مراحل الاعداد والتلقين على أساس الاشتراك فى المناورات السنوية حيث تتم عدة عمليات للأسلحة المشتركة تقوم القوات الجوية فيها بدور رئيسى. وعندما كنا نلتقى التلقين للطلعات المختلفة لم نكن نعرف أن اليوم هو «ى - ٥» (ى ناقص ٥ يعنى قبل موعد المعركة بخمسة أيام - وكان العد التنازلى للمعركة قد بدأ).

وبالنسبة لقصة العد التنازلى فان درجة استعداد القوات المسلحة المصرية قد رفعت إلى الحد الاقصى من الساعة الثامنة صباح يوم الاثنين أول أكتوبر ١٩٧٣ . وطبقا لحالة الاستعداد القصوى هذه فقد تم وجود جميع القيادات على اختلاف مستوياتها فى مراكز القيادة والسيطرة. وعرف يومها أن ذلك قد تم لتنفيذ مشروع استراتيجى تعبوى - تدريبى وهو ما يعرف خارج الوسط العسكرى بأنه مناورات شاملة لكل وحدات القوات المسلحة.

.. وكنا فى هذه القاعدة - مثلما فى سائر القواعد الجوية - نقوم بالمهام الروتينية العادية التى نقوم بها فى الأيام العادية ومنها الدوريات والطلعات الروتينية.. وفى هذا الجو تلقى قائد القاعدة - وقادة القواعد المختلفة، والقادة المختصون تعليمات القيادة العامة التى تحدد التوقيتات الرئيسية لبداية العملية الهجومية.. مع تعليمات صريحة بمراعاة سرية النوايا. وطبقا لهذه التعليمات والتوقيتات كانت الساعة المحددة لتمام الاستعداد الكامل هى السادسة صبا ح الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى ذلك اليوم بدأت المعركة بالنسبة لنا نحن الطيارين لقد فتح الدولاب السرى فى الغرفة الخاصة بالقاعدة وأخرجت الوثائق والخرائط الخاصة بالعمليات لتأخذ مكانها فى غرفة التلقين منشورة أمام أعيننا بدلا من خرائط ووثائق المشروع التدريبى التى كانت موضوعة هناك..

وكان أول أمر نتلقاه فى هذه الحرب هو ضبط ساعاتنا جميعا طبقا لتوقيت واحد - ولأقرب ثانية، على أن يكون ضبط الساعات جميعها على اشارات ضبط الوقت التى ستذاع من اذاعة القاهرة - البرنامج العام - فى تمام الثانية عشرة ظهر السبت ٦ أكتوبر الخالد..

وعرفنا بعد ذلك أن ضبط الساعة الرئيسية للعمليات فى كل من مصر وسورية تم على هذه الاشارات فى تلك اللحظة بالذات لضمان التوقيتات الدقيقة مع الجبهة السورية.

وطبقا لتعليمات العمليات كان على أن أكون ضمن أول طلعة طيران فى هذه المعركة العظيمة لاشترك بطائرتى فى توجيه ضربة جوية مفاجئة ومركزة ضد أهداف العدو. وكان لابد أن تعبر جميع الطائرات قناة السويس متجهة شرقا إلى أهدافها فى تمام الساعة ١٤٠٥- أى الثانية وخمس دقائق بعد الظهر. وأعلن فى التلقين النهائى للعمليات أن س = ١٤٠٠، ى= ٦ أكتوبر، أى أن ساعة الصفر هى الثانية بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر.

وبعد هذه الساعة بخمس دقائق كانت ٢٠٠ طائرة مصرية تعبر قناة السويس لتوجيه الضربة الجوية المفاجئة..

ويلتقط الحديث الطيار وجدى ليشرح أهمية التوقيتات بالنسبة لهذه العملية. ويقول بطل أكتوبر إن الطائرات المصرية والسورية قد قامت فى وقت واحد بضرب أهداف العدو فى سيناء والجولان، ومهاجمة مطاراته وقواعده الجوية ومراكز سيطرته فى الجبهتين فى لحظة واحدة حتى يمكن لعنصر المفاجأة أن يلعب دوره. وقد نجح ذلك تماما فى الجبهتين وكانت خسائرنا أقل بكثير من خسائر العدو..

وفى مقابل ذلك قمنا بضرب وتدمير ثلاث قواعد جوية للعدو فى سيناء وهى «المليز» و «تمادة» والقاعدة الرئيسية فى العريش..

وفى الوقت نفسه قامت أسراب طائراتنا من القاذفات، والقاذفات المقاتلة بتدمير عشرة مواقع صواريخ اسرائيلية من طراز «هوك» أرض جو- وهى صواريخ مضادة للطائرات مما أتاح لنا المزيد من المرونة وحرية الحركة خلال الطلعات التالية..

وخلال تلك الطلعات أو الغارات الجوية المصرية فى اليوم الأول على سيناء استطاعت طائراتنا أن تدمر للعدو موقعى مدفعية بعيدة المدى وثلاث مناطق شئون إدارية ومحطات الرادار الاسرائيلية..

وربما كان أهم هدف أصابته غاراتنا على سيناء هو مراكز القيادة والسيطرة الجوية للعدو فى سيناء فى جبل يعلق وأم مرجم وأم خشيب، بل وبالذات وبصفة خاصة مركز الاعاقة الالكترونية (الشوشرة) فى أم خشيب..

هناك.. قرب وادى الجدى وبالتحديد عند جبل أم خشيب كان العدو قد أقام مركزا اليكترونيا للإعاقة أو ما يعرف بالشوشرة على أجهزتنا الالكترونية وراداراتنا.. وربما لم ننس أن العدو استفاد كثيرا من هذه الوسائل خلال أحداث ١٩٦٧.

وقد ضمت منطقة جبل أم خشيب أحدث وأرقى ما وصل إليه العلم الحديث من وسائل الإعاقة الالكترونية بالاضافة إلى اجهزة خاصة - أمريكية الصنع - مخصصة لتضليل الطائرات وبث أهداف وهمية فى الجو لإرباك الرادارات..

وكان العدو يمنع تحليق الطائرات فوق هذه المركز الالكترونى الخطير..

ولكن فى يوم ٦ أكتوبر كانت هناك طائرات فوق أم خشيب .. طائرات مصرية - غير مضللة وتعرف طريقها وهدفها جيدا - وقصفت هذه الطائرات أم خشيب بجميع أنواع القنابل ودمرتها حتى أن العدو ظل غير قادر على استخدامها بعد ذلك وحتى وقف اطلاق النار، حيث كانت قاذفاتنا المقاتلة تقوم ما بين ثلاث وأربع طلعات طيران على نفس الهدف..

وتم بعد ذلك توجيه عدة غارات جوية أخرى إلى الأهداف الاسرائيلية شرق القناة كما تم قصف الطائرات التى حاول العدو استخدامها..

واستخدمت فى الوقت ذاته ولأول مرة فى تاريخ الحروب - الصواريخ الموجهة أرض - أرض فى ضرب الأهداف المعادية فى عمق سيناء وكان ذلك نوعا مكملا لدور الغارات الجوية المصرية فى أعماق سيناء بالقاذفات والقاذفات المقاتلة..

وقد فوجئ العدوبالصواريخ المصرية تصيب أهدافها بدقة بالغة وتدمر له حشوده المدرعة فى الطاسة ومتلا وأم مرجم .. وتعيد ضرب جبل أم خشيب..

وأعلن العدو أنه فوجئ بهذا السلاح.. ويمكن هنا أن ننقل ما نشره العدو دون أن نؤكد أو نصحح ما جاء في تعليقاته..

«استخدمت القوات العربية أسلحة حديثة لم يسبق استخدامها في الحروب من قبل، وتأتي في مقدمة هذه الاسلحة الصواريخ أرض - أرض التي استخدمت على الجبهتين المصرية والسورية. وبدأت سورية باستخدام صواريخ من طراز «فروج ٧» التي أصابت أهدافا إسرائيلية اصابات مباشرة.. ويبلغ مدى هذه الصواريخ ٧٠ كيلو مترا ويحمل رأسا متفجرا يزيد على ٥٠٠ كيلو جرام (ويمكن استخدامه في حمل رأس ذرى).

وكان من المعروف أن مصر تملك صواريخ مداها أقل من هذه الصواريخ وهي من طراز «فروج ٣» الذي يحمل رأسا متفجرا يزن ٢٥٠ كيلو جراما.. إلا أن القوات المصرية حققت مفاجأة باستخدام صواريخ أخرى من طراز «سكود» يزيد على ٢٠٠ كيلو متر ويصل إلى ٣٠٠ كيلو متر تقريبا ويحمل رأسا متفجرا يزيد وزنه على ضعف وزن رأس الصواريخ الأولى وهو يعمل بالوقود السائل ويستخدم في ضرب المدن والحشود والمعسكرات الموجودة في العمق كما استخدمته مصر في ضرب المطارات..»

- هل معنى ذلك أن للسلاح قيمته الأولى؟

وتأتي الاجابة من قاعدة القاذفات المصرية عندما يروي البطل «عثمان» أحداث الأيام التي سبقت المعركة..

لقد طورنا الطائرات المصرية.. وزودنا طائراتنا بتجهيزات ومعدات لم تكن في تصميمها الاصلي بحيث تناسب الدور الذي تقوم به والواجب الذي تخصص له مما يضاعف من كفاءتها ويزيد من تأثير عملياتها..

وقد أعد رجال القوات الجوية قبل المعركة، بالتعاون مع خبراء سلاح المهندسين وأجهزة المعلومات ووحدات الاستطلاع، ميادين تدريب مصغرة على شكل نماذج كبيرة «ماكتات» تماثل تماما القواعد الجوية المعادية وأهداف

العدو التى سنقوم بمهاجمتها. وزودت هذه «الماكتات» بنماذج لمعدات وأسلحة العدو التى سنتعامل معها.

وفى ميادين التدريب هذه كان الطيارون يتدربون على عمليات الدخول والاغارات على هذه الاهداف واتجاه دخول الطائرات، والسرعات المحددة لكل مرحلة والارتفاعات المتغيرة خلال الدخول والانقضاض والقصف والتخلص والعودة.. إلى غير ذلك من التفاصيل الدقيقة لكل عملية. وخلال مراحل الاعداد والتدريب للضربة الجوية المصرية المفاجئة والمركزة، كان الطيارون يواجهون صعوبات ومشاكل عديدة ومتجددة. ورغم كل شئ فقد واجهنا كل نقص وضاعفنا ساعات التدريب، ووضعنا فى اعتبارنا دائما عنصر الاقتصاد فى القوى والتكاليف..

وخلال مراحل الاعداد اشتركت طائراتنا فى المشروعات والبيانات التدريبية على «معارك الأسلحة المشتركة، وهى تعد أرقى أشكال الحرب الحديثة، وخلال هذه العمليات التدريبية قامت طائرات القوات الجوية من مقاتلات وقاذفات مقاتلة بعمليات مشتركة مع القوات المدرعة لتدعيم وحدات مدرعة فى عمليات هجومية وفى معارك تصادمية بالاضافة إلى معاونتها فى عمليات الاختراق والتقدم المدرع ـ وهذا ما تحقق بالفعل بعد ذلك على أرض العمليات فى سيناء..

وهكذا كان الرجل المصرى خلف السلاح، ليكون السلاح بالرجل، وليس قيمة الرجل بالسلاح.

ونماذج من ذلك بعد بدء العمليات كثيرة جدا وتضم قصصا عديدة ومثيرة..

فبعد توجيه الضربة الجوية المركزة والمفاجئة ظهر اليوم الأول للعمليات كان على الطيارين المصريين أن يكرروا هجماتهم الجوية عدة مرات على نفس الاهداف وعلى أهداف أخرى.. وقد تكررت الضربة الجوية الأولى بعد

عدة أيام من بدء العمليات ولكن بصورة أقل طبعا وكان ذلك بهدف تعطيل قواعد العدو واستغلال ارتباكه وتقديم المعاونة الجوية لقواتنا البرية والبحرية ..وخلال هذه الفترة كان سرب من طائراتنا يهاجم القاعدة الجوية الرئيسية للعدو فى سيناء.

وخلال عمليات القصف أصيبت طائرة من طائراتنا وكان على الطيار البطل «أحمد» أن يتخلص من المعركة فى حماية باقى طائرات التشكيل ليتجه إلى الغرب محاولا الهبوط أو قافزا بمظلته الواقية ـ طبقا لنوع ومدى الاصابة التى لحقت بطائرته.

ولكنه لم يفعل..

لقد علا صوته عبر جهاز اللاسلكى يبلغ عن اصابة طائرته ولم ينتظر ارشادات أو أوامر ولكنه أعقب ذلك بصيحات شجاعة «الله أكبر .. الله أكبر» .. واتجه بطائرته المصابة إلى أرض القاعدة الجوية المعادية حيث كانت هناك خمس طائرات للعدو ليصطدم بها بطلنا الشهيد ويستشهد بين حطام طائرات العدو وكان نتيجة هذه الإغارة الجوية المصرية على هذا المطار أن العدو ظل لمدة أربعة أيام كاملة غير قادر على استخدامه.

وهناك قصة أخرى بطلها يقف معنا الآن ولكنه مازال مصمما على عدم الإباحة باسمه أو التصريح بأمره رغم أننا كلنا نعرف قصته. لقد أصيب خلال الأيام الأولى للعمليات بأعراض مرض فى معدته يمنعه بالتأكيد من الاشتراك فى العمليات أو الصعود بطائرته. وجاءه الطبيب وقرر له أجازة مرضية وأشر بذلك على أوراقه. واستطاع أن يخفى ذلك تماما وظل مشتركا فى العمليات إلى أن انكشف أمره ومنع من الطيران بالأمر.. ويومها بكى لأول مرة فى حياته..

وخلال هذه المرحلة من العمليات ضرب الطيارون المصريون جميع الأرقام العالمية فى ساعات الطيران .. وبلغ عدد طلعات بعض الطيارين ٦

طلعات وهى بالحروف - حتى لا يختلط الأمر على القارىء - ست طلعات قتال فى اليوم للطيار الواحد.. وهو رقم أسطورى مذهل.

وهذه القصة سمعتها من أصحابها

داخل القاعدة الجوية.

وأكد لى بعد ذلك الفريق حسنى مبارك - قائد القوات الجوية المصرية - أنه خلال إحدى المعارك الجوية كان يتم إعادة ملء الطائرة والطيار داخلها - ودون أن يخرج من طائرته - ينطلق للاشتراك فى المعركة مرة أخرى..

وهذا الأمر حدث فى مصر فى اكتوبر ٧٣ لأول مرة فى تاريخ الطيران الحربى فى العالم.

وبمناسبة إعادة الملء فقد تم رسميا تسجيل الرقم القياسى المصرى فى إعادة الملء ليكون أقل رقم فى العالم وهو بالتحديد أقل من ٥ دقائق و ٤٠ ثانية لإعادة ملء الطائرة - أى تزويدها بالوقود والكشف على أجهزتها واختبارها وتزويد تسليحها بالذخيرة والطلقات.. وقد سجل الفنيون والمهندسون فى القوات الجوية بهذا الرقم المذهل ما يقل عن ثلث الرقم العالمى فى إعادة الملء وأنها بلغت رقما جديدا هو ٧ دقائق و ٣٠ ثانية!

وتلك الأعمال البطولية التى أكدت أن قيمة السلاح بالرجل، وليست قيمة الرجل بسلاحه - تمكنت طائراتنا من أن تضرب عدة مرات أهداف العدو فى سيناء وأبرزها مطاراته ومواقع دفاعه الجوى ومراكز قيادته وتشويشه وسيطرته الجوية ومواقع مدفعيته بعيدة المدى وبعض مناطق شئونه الإدارية لتشمل هذه العمليات مناطق الحسنة وجبل يعلق وجبل المغارة وأم مرجم وأم خشيب وجبل سحابة ورأس سدر وقلعة الجندى بالإضافة إلى حشوده المدرعة شرق رمانة وفى جبل الجدى..

وكان لنجاح الضربة الجوية المفاجئة الناجحة أثرها الكبير فى انعدام خسائرنا تقريبا خلال عمليات العبور التى وفرت لها عملياتنا الجوية قدرا بالغا من التأمين.

ونترك الموجة الإولى من أفرادنا تعبر القناة بعد ١٥ دقيقة من بدء الضربة الجوية وتحت ستر نيران كثيفة من مدفعيتنا، لنعود إلى قاعدة جوية أخرى محلقين مع طائراتنا العائدة من مهمتها التاريخية الساعة ١٤٢٠ متخطين قناة السويس فى رحلة العودة من الشرق إلى الغرب، وتحتها طلائع خمس فرق مشاة مصرية تعبر القناة، وتضم هذه الفرق الخمس ٨٠ ألف جندى مصرى من أشجع جنود العالم..

وندخل هذه المرة احدى قواعد المقاتلات المصرية لنعيش مع أبطالها ومع طائراتهم الميج ٢١ أياما سيظل التاريخ يخلدها..

فى قاعدة المقاتلات عشرات من الأبطال .. يعيش بعضهم فوق الأرض ويعمل أخرون تحت الأرض ويحلق الطيارون منهم فوق السحاب.

والتقى بالمقاتل طيار نبيل وأعيش معه ومع المقاتل طيار فريد وعشرات الأبطال الذين يملأون القاعدة، قصة أطول معارك القتال الجوى.. لقد جاء دور المقاتل الجوى بطائرته «ميج ١٧» أو «ميج ٢١» بعد بدء العمليات ونجاح العبور وخلال معارك سيناء..

ومع هؤلاء الرجال يمضى الوقت بسرعة ولا يستطيع القلم أن يلاحق الكلمات السريعة.. بل وكل ما حولى يمتاز بالسرعة وهو أبرز ميزات الطائرات الحديثة ومعارك القتال الجوى التى مهما طالت فان أطولها يستغرق عادة ما بين عشر دقائق وربع الساعة.. ولكننا فى اكتوبر شاهدنا معارك جوية طويلة بلغت احداها «٥٠» خمسين دقيقة! واشتركت فيها ٧٠ طائرة مصرية من قواعد جوية متعددة!.. وهنا لابد أن تظهر علامة تعجب كبيرة!..

ويروى البطل قصص زملائه متجاهلا نفسه وبادئا من بدايتها الطبيعية.. وكانت هذه البداية الطبيعية مع أول ضوء من فجر يوم الأحد السابع من أكتوبر.

كانت قيادة العدو قد اتجهت ـ كرد فعل مباشر وسريع للصدمة ـ إلى محاولة توجيه ضربة جوية إلى مطاراتنا لاخراج القوات الجوية المصرية من المعركة

ولتوفير انفراد قواته الجوية بسماء المعركة للاستفادة من عنصر التفوق الجوى الذى كان العدو يتمتع به..

وكانت المحاولة فى فجر يوم ٧ أكتوبر عندما هاجمت الطائرات الإسرائيلية ٧ مطارات مصرية فى وقت واحد مستخدمة أسراب طائرات «الفانتوم» الشهيرة وتشكيلات من «سكاى هوك»..

ولم يكن هذا الهجوم الجوى الاسرائيلى بالطبع يتمتع بأى نوع من المفاجأة.. لقد كانت طائراتنا فى الجو تحول هذا الهجوم إلى معارك جوية.. وفى بعض الأحيان ينجح العدو فى الوصول إلى المطار المصرى وقصفه ولكنه كان دائما يواجه طائراتنا بعد ذلك خلال رحلة العودة.. وفى معظم الأحيان كان الاعتراض الجوى من طائراتنا يحول بين الطائرات المهاجمة وبين هدفها.

وقد كان للأعمال الباهرة التى أنجزتها القوات المسلحة قبل المعركة أثرها حيث أقامت شبكة هائلة من المطارات فى كافة أنحاء مصر تستوعب تشكيلات القوات الجوية وتشكل قواعد تبادلية جاهزة لها وبالتالى تظل قادرة على القيام بالمهام الخطيرة والعديدة التى كلفت بها القوات الجوية المصرية.. كما وفر سلاح المهندسين حماية ضخمة ومتجددة لهذه القواعد..

ولكن العدو - وقد تاه وسط هذه الشبكة الضخمة من المطارات - ركز على محاولة ضرب عشرة مطارات مصرية بالتحديد وهى عريضة، وبنى سويف، وقويسنا، وأبو حماد، وشبراخيت، وطنطا، والمنصورة، وجناكليس، والقطامية، والصالحية.

وفى اليوم الأول للهجوم الجوى الإسرائيلى المضاد حاول العدو مهاجمة ٧ مطارات من هذه المطارات العشرة، وكان ذلك فجر السابع من اكتوبر. وتحولت محاولة العدو الهجومية إلى معارك جوية فوق الدلتا وخسر العدو فى هذه المعارك ٢٥ طائرة فى مقابل ٦ طائرات مصرية سقطت خلال هذه المعارك الرهيبة.. وتكررت هذه المعارك الجوية أربعة أيام على التوالى..

وكانت بعض طائرات العدو تتمكن فى الوصول إلى المطار التى تهدف مهاجمته لتصيبه بعملية هجومية «متعجلة» يترتب عليها بعض الإصابات المحدودة التى يتم إصلاحها خلال ساعات..

وأروع مثل بارز هنا هو قيام العدو بمهاجمة مطار المنصورة خمس مرات بحوالى ٦٦ طلعة طائرة، ومهاجمة مطار القطامية ست مرات بحوالى ١٦٦ طلعة طائرة، ومع ذلك فإن مطارى القطامية والمنصورة لم يتعطلا عن الاشتراك فى العمليات الجوية يوما واحدا..

وخلال عمليات تصدى المقاتلات المصرية لهجمات العدو الجوية المضادة كانت عمليات القوات الجوية فى مختلف الميادين مستمرة حيث كانت فى الوقت ذاته أسراب الطائرات المصرية تضرب احتياطات العدو شرق القناة منذ اليوم الثانى للقتال وكانت تقدم معاونة جوية مباشرة للقوات البرية بالإضافة إلى عشرات الطلعات التى قامت بها أسراب الاستطلاع الجوى.. كما تولت طائرات الهليوكبتر عمليات نقل وابرار وحدات الصاعقة إلى أعماق سيناء خلف خطوط العدو واستحكاماته الدفاعية بالإضافة إلى الجهد الجوى الفذ فى منطقة ثغرة الدفرسوار والذى بلغ ٢٥٠٠ طلعة طائرة حمت رأس كوبرى الجيش الثالث وأسقطت للعدو هناك ٣٢ طائرة، وتحملت عمليات إمداد قوات الجيش الثالث شرق القناة..

وخلال أطول معركة جوية والتى استمرت لمدة ٥٠ دقيقة كاملة، برز الطيار المصرى وبطولات رجال القتال الجوى. ولابد أن نذكر هنا بطولات الرجال الذين يقفون وراء الطيار المقاتل وأبرزهم فى البداية الموجه الجوى الذى يظل يرشد الطيار ويوجهه إلى أن يضعه فى أنسب وأحسن موقع من المعركة، والذى يشكل عينى الطيار قبل أن تظهر أمامنا طائرات العدو بالرؤية العادية وكان للدور الكبير الذى قام به الفنيون والمهندسون الفضل فيما حققه رجال القتال الجوى، ويكفى ما قام به هؤلاء الرجال بالنسبة لإعادة الملء وابلغ ما تعبر عنه الأرقام.

وتوافرت للطيار المقاتل بذلك أسباب التفوق..

وجاء دوره ليقدم بطولة فريدة عندما كان يرفض بعضنا أن يغادر طائرته خلال الملء ليحلق بها مرة أخرى ويشترك فى نفس المعركة.. وعندما كانت المعركة الجوية تدور بين طائراتنا وطائرات العدو بمجموع طائرات زاد على ١٣٠ مائه وثلاثين طائره من الجانبين كانت قواعد المقاتلات الجوية تضع لنا فى سماء المعركة «٧٠» سبعين طائرة مصرية.. ودام الاشتباك الرهيب ما يقرب من الساعة أى أكثر من خمسة أضعاف الزمن الذى تستغرقه المعركة الجوية عادة..

وكان تساقط «الفانتوم» التى كانت تتمتع بشهرة أسطورية يعطينا دفعات قوية، خاصة بعد أن تمكنا فى اليوم الأولى للقتال الجوى - وهو اليوم الثانى للعمليات - من إسقاط ٢٥ طائرة معادية وأكملنا خلال الاسبوع الأول للحرب ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) طلعة طيران فى ٧ أيام.

ويقطع صوت طيار آخر الصمت الذى وجدته مخيما على .. حيث سرحت عيناى فى الافق.. ويسألنى البطل: فيم تحملق؟ وبدأت أنا أجيب.. لقد تذكرت لقائى بأحد الأسرى الاسرائيليين وهو الملازم طيار جابيم كلاى الذى قال لى انه اشترك فى معركة جوية قصيرة بين المقاتلات المصرية وطائرات الفانتوم.. وشاهد الطائرات المصرية تسيطر على السماء، وثلاث طائرات فانتوم اسرائيلية تسقط، ثم قال: «اننى لم أكن أتصور أن الطائرات المصرية قادرة على مهاجمة طائراتنا ولكننى أيقنت أن سلاح الطيران المصرى على أعلى مستوى.. لقد كنا فى وهم» .

وعدت أسأل من جديد فى محاولة لاستعادة المبادأة .. وكان سؤالى عن قصة المعركة الجوية التى دارت فوق بور سعيد بين الطائرات الاسرائيلية والطائرات الاسرائيلية - أى بين طائرات العدو بعضها البعض..

كان ذلك عقب تحذير وجهه الجنرال بنيامين بليد قائد القوات الجوية الاسرائيلية إلى الطيارين الاسرائيليين والقواعد الجوية قال فيه إن أجهزة

المعلومات الاسرائيلية قد توصلت إلى أن لدى مصر طائرات من طراز ميراج الفرنسية الصنع، وأن مصر ستقوم باستخدامها فى المعارك الجوية، وأن هناك معلومات تشير إلى احتمال قيام مصر بطلاء هذه الطائرات باللون المستخدم فى سلاح الجو الاسرائيلى، وأن تضع عليها علامات اسرائيلية ونجمة سداسية مما يحيس عنها جميع أنواع النيران ـ المصرية والاسرائيلية على السواء، وبالتالى فانها تستطيع بذلك أن تنزل كارثة عسكرية بالمواقع أو الطائرات الاسرائيلية.

وتلقى طيارو الميراج من الاسرائيليين هذا التحذير بنوع خاص مع التأكيد عليهم بتجنب الوقوع فى خديعة مصرية..

.. ثم اشتركت بعد ذلك طائرات الميراج الاسرائيلية فى عملية هجومية سريعة على القطاع الشمالى من الجبهة.. وانقسمت الطائرات الاسرائيلية إلى قمسين يتولى أحدهما حماية الآخر.. وبدأ القسم الأول فى مهاجمة الهدف.. وكان واضحا منذ البداية أن الخوف يسيطر على الطيارين الاسرائيليين ونتيجة تزايد سقوط الطائرات الاسرائيلية بفعل صواريخ الدفاع الجوى ونتيجة المعارك الجوية العنيفة التى تفوقت فيها المقاتلات الاعتراضية المصرية. وعندما انطلقت النيران المصرية فى مواجهة الطائرات الاسرائيلية اتجهت هذه الطائرات بسرعة هربا من النيران.. وجاء انسحابها فى ارتباك وعجلة، وبحيث غيرت كثيرا من ارتفاعها.

وفوجئت باقى الطائرات الاسرائيلية «ميراج» بطائرات أخرى «ميراج» تأتى مبكرا جدا عن اللحظة المناسبة وعلى ارتفاع مختلف تماما، فأطلقت عليها صواريخها ورشاشاتها.. بينما رأت الطائرات الأولى نفسها عرضة لهجوم جوى معاد..

ودارت المعركة بين الطائرات الاسرائيلية بعضها البعض للحظات.. وسقط من التشكيل كله ٤ طائرات ميراج..

وكان أول بلاغ عن هذه المعركة يخرج من قائد التشكيل ليبلغ قيادته عن نشوب معركة جوية عند بور سعيد وعن قيام تشكيله بإسقاط طائرتين مصريتين، وعن إصابة طائرتين من التشكيل..

وصدر من تل أبيب عن هذه المعركة بيان عسكرى ذكر أن الطائرات الاسرائيلية قد أسقطت طائرتين مصريتين فى معركة جوية، ولم يذكر البيان شيئا عن خسائر اسرائيل التى لابد أنهم اكتشفوا بعد ذلك انها بلغت ٤٤ طائرة.. أما بالنسبة للطائرات المصرية فلم يكن لها وجود فى سماء هذه المعركة..

وستظل دائما هذه الحكاية هى النكتة المفضلة عند أبطال هذه القاعدة من الطيارين..

الفصل الثانى

أحاديث الطوبجية

يعتز رجال المدفعية باسم «الطوبجية»..

وكثيرا ما تسمع أحدهم يصف زميلا له قائلا إنه طوبجى قديم أو طوبجى ممتاز..

وربما يرجع سبب ذلك إلى عراقة هذا السلاح الذى برز منذ وقت بعيد وكان خلال فترة الاحتلال البريطانى، سلاحا مصريا متفوقا، حتى أن جوائز التدريب فى ذلك الوقت كان يحتكرها الطوبجية أو رجال المدفعية الذين كانوا يتفوقون على الوحدات البريطانية. وقد دفع ذلك سلطات الاحتلال إلى استخدام وحدات المدفعية المصرية فى الحرب العالمية الثانية.

ولسلاح المدفعية فى مصر شعار يردده رجال المدفعية باعتزاز وهم يقولون «.. المدفعية فى كل مكان». وبالفعل .. أينما تنتقل على طول الجبهة تجد المدفعية دائما فى كل مكان..

وقد كانت المدفعية بالفعل خلال معركة اكتوبر فى كل مكان .. كما كانت أيضا البادئة الحرب..

وانطلقت أولى نيران هذه المعركة الخالدة من فوهات المدافع المصرية فى تمام الساعة ١٤٠٥.

وكان هناك بطول الجبهة حوالى ٢٠٠٠ «ألفى» مدفع مصرى تنتشر على طول خط المواجهة تم توزيعها على جبهة عرضها ١٨٠ كيلو مترا بحيث توجه نيرانها إلى أهداف محددة تم اختيارها بدقة وذكاء..

وفى الساعة السادسة صباح يوم ٦ أكتوبر وهى الساعة التى تعرف باسم «س - ٨» أى قبل ساعة الصفر بثمانى ساعات تلقى القائد العام للقوات المسلحة تمام المدفعية من اللواء الماحى - مدير سلاح المدفعية فى ذلك الوقت.. وكان هذا يعنى أن جميع الوحدات التى تتبعه - والتى تضم أكثر من ألف مدفع ميدان ومثلها مدفع هاون وكتائب الصواريخ التكتيكية «أرض/أرض» - قد أكملت استعدادها وتوجيهها نحو أهدافها وتم تزويدها بالذخيرة والمعلومات..

وفى الساعة ١٤٠٥ فتحت جميع هذه المدافع نيرانها على طول الجبهة.. واستمر الضرب متواصلا وبغزارة حوالى ساعة كاملة، بالتحديد خمسين دقيقة.. وكان عدد دانات (قذائف) المدفعية التى تنطلق منها لتصيب أهدافها يبلغ ١٧٥ دانة فى الثانية الواحدة أى أكثر من عشرة آلاف (١٠٠٠٠) دانة فى الدقيقة..

ويروى العميد أبو غزالة - الذى كان قائدا لمدفعية الجيش الثانى يومها - قصة العشرة آلاف انفجار فى مواقع العدو خلال أول دقيقة من الحرب الساعة ١٤٠٥.. وتأتى كلماته بدقة وبأرقام تجعل من الصعب على الخيال أن يلاحق هذه الصورة الرائعة.. وكانت أولى ضربات المدفعية موجهة أساسا فى البداية إلى جميع وسائل المواصلات التليفزيونية واللاسلكية للعدو. وفى الثانية نفسها كانت جميع مواقع المدفعية على طول جبهة قناة السويس مشتركة فى أقوى وأضخم تمهيد نيرانى عرفته هذه المنطقة من العالم.. ولم يتمكن العدو أمام مفاجآته بهذه الكميات الاسطورية من النيران أن يرد أو حتى ينزل مراقبيه من فوق نقط المراقبة.

وبدأت البلاغات تصل عن نتائج ضربات المدفعية وعن الخسائر التى أوقعتها بالعدو.. وكانت هناك منذ اللحظة الأولى عشرات البلاغات ولكن كان

أهم هذه البلاغات جميعها وأبعدها أثرا فى اللحظات الأولى للمعركة هو نجاح المدفعية فى فتح جميع الثغرات المخططة فى موانع الاسلاك الشائكة وفى الألغام وحول النقط المنيعة لخط بارليف، وعلى الحد الأمامى المائل للسد الترابى وهو الذى سيتخطاه أفراد المشاة بعد دقائق وتتعامل معه وحدات المهندسين لإعداد المعابر والكبارى.

وكان ذلك كله قد تم فى الدقائق الأولى للمعركة.. تلك الدقائق القليلة التى ستظل أثمن وأغلى دقائق عرفتها الحرب الحديثة.

وكان هذا أيضا هو دور المدفعية الكبير فى الفترة من الساعة ١٤٠٥ إلى الساعة ١٤٢٠ وهى اللحظة المحددة لعبور قوات المشاة المانع المائى لقناة السويس مستخدمين قوارب المطاط.. وبدت القوارب تغطى صفحة القناة وتنقل طلائع فرق المشاة الخمس إلى الضفة الشرقية التى كانت أسيرة، وفى تلك اللحظة كانت أسراب الطائرات المصرية تعود من الشرق بعد أن وجهت إلى أهداف العدو ضربتها الجوية المفاجئة..

وبذلك.. واعتبارا من الساعة ١٤٢٠ أصبح واجب المدفعية لا يتضمن ضرب الحافة الشرقية للقناة.. فقد أصبح هناك الآن أبناء مصر الذين نجحوا فى اقتحام القناة والاستيلاء على الساتر الترابى للضفة الشرقية، بينما استمرت المدفعية فى ضرب حصون خط بارليف واحتياطيات العدو التكتيكية أى القريبة من الخط الأول.

ويأخذ المقاتل «مصطفى» أحد ضباط المدفعية خيط الحديث لينقل صورة الأحداث التى شهدتها الدقائق التالية للعبور..

وسبق الموجة الأولى لعبور المشاة عمليات خاصة تحملت قوات الصاعقة مسئولياتها.. ولحق ذلك عمليات أخرى خلدت سلاح المهندسين المصرى..

أما بالنسبة للمدفعية فقد كانت هناك ثلاثة نطاقات توجه إليها نيرانها منذ اللحظة الأولى للمعركة.. وكان النطاق الأول هو الحد الأمامى لقواتنا شرق

القناة، وكانت مواقع خط بارليف والاحتياطي الذي يليها مباشرة تشكل هذا النطاق.

أما النطاق الثاني فقد كان أبعد من ذلك قليلا حيث احتياطيات العدو وأماكن مدرعاته وبطاريات مدفعيته.. أما النطاق الثالث في العمق فقد وجهت اليه الصواريخ المصرية بتعليمات مباشرة من قائد سلاح المدفعية.

وأهم ما يجب ذكره هنا..

وهذا ما كرره في اعتزاز كل متحدث عن عمليات المدفعية خلال معارك أكتوبر - أن ضباط ملاحظة المدفعية عبروا القناة إلى الضفة الشرقية مع أول موجة لقواتنا وفي الدقائق الأولى للمعركة..

وكان لذلك أثره الكبير في دقة توجيه نيران المدفعية بعد ذلك. . وعند الحديث عن عبور ضباط المدفعية مع الموجة الأولى لقواتنا يجب أن نذكر هنا أن القادة والضباط كانوا مع جنودهم منذ بداية العبور إلى الضفة الشرقية التي كانت أسيرة، ولذلك فانه - مع التأكيد على قلة الخسائر في الافراد خلال العبور إلى حد خيالي - فان نسبة الخسائر في الضباط إلى نسبة الخسائر في الافراد تعد أعلى نسبة خسائر في العالم. وسيظل التاريخ يذكر لجيش مصر أنه صاحب أعلى نسبة خسائر في الضباط بالنسبة للأفراد..

وبالنسبة للقادة فقد كان هناك جدول زمني موقوت ينظم لحظات عبورهم..

ففي الساعة ١٤٣٥ وبعد مرور ١٥ دقيقة على عملية الاقتحام التي قام بها أفراد الموجة الأولى عبر جميع قادة كتائب المشاة - والتي تتبع فرق المشاة الخمسة التي انتقلت إلى سيناء في اليوم الأول للحرب.

وفي الساعة ١٥٠٥ أي بعد ساعة واحدة على بدء المعركة عبر إلى الضفة الشرقية قادة ألوية هذه الفرق الخمس، وكان معهم قادة المدفعية المماثلون لهم في الرتبة.

وبعد مضى ساعة ونصف الساعة على بدء الاقتحام قام قادة فرق المشاة وقادة مدفعياتها بعبور القناة إلى سيناء..

ولكى تزداد الصورة وضوحا يجب أن نذكر أن قائد الفرقة هو فى رتبة «لواء» وقادة الألوية عادة فى رتبة «عميد» وهى أعلى الرتب العسكرية، وأصحابها بالتالى فى الحلقة الخامسة من عمرهم..

وكان لعبور كبار الضباط إلى الضفة الشرقية خلال الساعة الأولى للعمليات أثره الكبير فى تحقيق النجاح نتيجة اكتمال السيطرة على القتال وعلى نيران فرق المشاة والمدفعية.

وفى مقر قيادة احدى كتائب المدفعية المصرية - والموجودة حاليا فى سيناء - شرق قناة السويس، يروى القائد الأحداث التى عاشها بعد أن تم تنفيذ التمهيد النيرانى طبقا للتخطيط الموضوع له تماما، والذى تحققت نتائجه بصورة تزيد عما توقعه أحد وترتبت عليه خسائر كبيرة بين أفراد العدو ومعداته..

تمكنت نيران المدفعية خلال الدقائق الأولى للمعركة من تدمير وهدم النطاقات الخارجية فى قلاع خط بارليف الحصينة.. وقد تركزت النيران على مداخل ومخارج هذه الحصون، وتم توجيهها بواسطة التنشين المباشر.

ومنذ البداية نجحنا فى اسكات مدفعية العدو وفى شل حركة جميع احتياطياته القريبة - والتى تعرف باسم الاحتياطيات التكتيكية - لدرجة أنه لم يستطع احتياطى واحد منها أن يتحرك لمنع عبور قواتنا، كما لم تتمكن دبابة واحدة معادية من التحرك إلى أعلى الساتر الترابى طبقا لما هو مخطط لها من قبل، أو حتى احتلال احدى المصاطب المجهزة لها لتعترض بنيرانها طريق قواتنا العابرة، كما لم يتمكن مدفع واحد من مدافع العدو من توجيه طلقة نيران فى اتجاه الغرب إلا بعد مضى ساعة كاملة من بدء العبور.. وكان ذلك فى نطاق الجيش الثالث الميدانى.

وخلال هذا الوقت الثمين تابعنا إطلاق النيران الكثيفة على النقط الحصينة لخط بارليف وقلاعه القوية إلى أن وصلت القوات المخصصة لاقتحامها إلى مسافة ٢٠٠ متر منها حيث بدأت قوات المشاة والصاعقة اقتحامها وتدميرها بأسلحة الأفراد، وحصار ما أبدى مقاومة منها. وقد بلغ مجموع أوزان الذخيرة التى أطلقتها مدفعيتنا خلال مرحلة التمهيد النيرانى ٣ ملايين كيلو جرام أى ٣ آلاف طن..

ويلتقط أحد الرجال خيط الحديث ليروى قصة بطل آخر:

لقد كنت بين ضباط ملاحظة المدفعية الذين كان لهم شرف العبور إلى شرق القناة مع أفراد الموجة الأولى للعبور..

ومن شرق القناة كنا نقوم بتوجيه نيران المدفعية وتصحيح الضرب بينما كان رجال المشاة والصاعقة يقتحمون الموقع الحصين لخط بارليف شمال النقطة التى اتخذتها للملاحظة..

واستولى الرجال على دبابة سليمة للعدو..

ونقلنا نقطة ملاحظتى إلى فوق دبابة العدو.. وهكذا أصبحت نقطة تصحيح وتوجيه المدفعية المصرية تعمل من فوق دبابة اسرائيلية. وخلال هذه الفترة كان موقع العدو يبدى مقاومة فى وجه الجماعات التى بدأت تقتحمه. وطبقا للخطة الموضوعة لمثل هذه الحالات، وعلى أساس التعليمات التى يحملها هؤلاء الرجال قام أفراد الجماعة باحكام الحصار حول هذه النقطة، وتركوها خارج المعركة لتسقط مع الوقت..

وأوشكت الشمس أن تغيب عندما بدأ البطل ـ الذى شاهدت استشهاده بعد ذلك ـ يتكلم كان هذا البطل الذى لم أعرف اسمه ولكنه فقط واحد من شهدائنا ـ كان صائما وسمعته يقول للرجال إنه سيفطر اليوم فى الجنة.. وقام البطل قبيل لحظة الغروب، وانضم له عدد آخر من الرجال.. وتحركوا بهدوء وحذر إلى داخل الممر المؤدى للموقع الحصين.. وارتفعت أصوات الطلقات فجأة.. وبدأ

العدو يوجه نيران رشاشاته إلى صدور الرجال. ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد ارتفع صوت انفجارات القنابل اليدوية التى أسقطها الأبطال داخل الموقع.

وانهارت مقاومة أفراد العدو داخل الموقع. وارتفعت صيحات الرجال مع غروب شمس هذا اليوم من رمضان، تردد «الله أكبر .. الله أكبر» وبدأ اقتحام الموقع الحصين، واستسلم من بقى بداخله من أفراد العدو.. واستشهد هذا البطل ليفطر بالفعل بعد استشهاده فى الجنة.. بينما الذين عاشوا من رجاله لم يتناولوا ليلتها أى افطار حتى تم اقتحام الموقع بالكامل.. وتسحر الرجال داخل هذا الموقع من خط بارليف.

وبسقوط خط بارليف فى اليوم الاول للمعركة، توقفت عمليات المدفعية وتوقف توجيه نيرانها إلى المواقع الحصينة للعدو حيث ترك الأمر بعد ذلك لسادة المعارك من أبطال المشاة والصاعقة والمهندسين.. واستمرت نيران المدفعية تزحف أمام القوات الأخرى التى تابعت تو سيع رءوس الكبارى شرق القناة، وهنا يتحتم أن نذكر سرا لم يكن العدو الاسرائيلى يعرفه أو يدر عنه شيئا... لقد كان بعض رجال المدفعية المصرية منذ البداية داخل خطوط العدو ووراء استحكاماته الدفاعية يختفون حول أهدافه المهمة وبطاريات مدفعيته وبعض مناطق حشوده المدرعة. وكان هؤلاء الرجال يتولون من هذه النقط القريبة جدا من أفراد العدو - والتى تدخل ضمن نطاقات نيراننا - توجيه نيران المدفعية المصرية إلى تلك الأهداف التى يرونها رأى العين.. ويصححون ضربات مدافعنا لتصيب أهدافها بدقة بالغة. وهكذا كان رجال المدفعية داخل مواقع العدو يقومون من هناك بادارة النيران..

وبعد أن اكتملت المرحلة الأولى للعبور بوصول فرق المشاة المصرية إلى سيناء واتمام سيطرتها على الأرض التى تستقبل العتاد الثقيل والتى يطلق عليه اسم «رأس الكوبرى» .. بدأ عبور المعدات الثقيلة فوق المعابر والكبارى إلى شرق القناة.

وضمت هذه المعدات الثقيلة وحدات المدفعية المصرية طبقا للتخطيط الموضوع.

وجاء اليوم التاسع من أكتوبر لتتم قواتنا مهمتها الأولية بنجاح ولتنجح تشكيلات فرق المشاة فى توسيع وتعزيز رءوس الكبارى المحددة لها، وفى صد وتدمير هجمات العدو المضادة والمركزة التى شنها بقوات بلغت ثلاثة ألوية مدرعة وثلاث كتائب دبابات ووحدات قواته المرتدة من الهجمات الفاشلة التى سبقت ذلك..

وتلقينا دفعة معنوية ونفسية بالغة فى ذلك اليوم، حيث أتمت الفرقة الثامنة عشرة التى كان يقودها العميد أركان الحرب فؤاد عزيز غالى (اللواء فؤاد غالى الآن) تحرير مدينة القنطرة شرق وتطهيرها من أفراد العدو.

واكتملت ثقتنا فى توفيق الله، بنجاح عظيم آخر، حيث تعاونت نفس الفرقة الثامنة عشرة مشاة مع الفرقة الثانية مشاة بقيادة العميد أركان الحرب حسن أبو سعدة (اللواء حسن أبو سعدة الآن) ومع احتياطيات الجيش الثانى من الأسلحة المضادة للدبابات (م/د) التى دفعها العميد أركان الحرب عبد الحليم أبو غزالة قائد مدفعية الجيش الثانى فى نفس اتجاه الفرقتين، وتمكنت هذه القوات المتعاونة من صد ضربات مضادة قوية للعدو على هذا القطاع، وكانت قيادة العدو قد خصصت لهذا الهجوم لواءين مدرعين وكتيبة دبابات مستقلة.

وتم تدمير معظم القوات المعادية المشتركة فى الهجوم المضاد ومن بينها جميع دبابات اللواء الاسرائيلى المدرع ١٩٠، وأسر كل من بقى حيا من أفراده..

وقبل أن ينتهى حديثنا مع رجال المدفعية .. أو الطوبجية يأتى صوت هادئ لمقاتل بطل - تعمد ألا يتحدث عن نفسه - رغم أن أولى كلماته كانت ..«أريد أن أقول شيئا»..

قال: لقد حاول العدو أن يو حى لأجهزة الاعلام الاجنبية بمغالطة مكشوفة عندما دفعها إلى ترديد نقد غير علمى لتطورات المعركة على الجبهة

المصرية. لقد ادعوا أنه كان علينا أن نستفيد من عامل السرعة أكثر مما حدث. وأن نقوم بتطوير الهجوم فور نجاح عملية العبور لننطلق بسرعة إلى عمق سيناء. وتحاول هذه الكلمات أن تصور وقفتنا بعمق ١٠ أو ١٥ كيلو مترا شرق القناة - وهى التى تسمى وقفه تعبوية - بأنه قصور.. ولكن الرد ببساطة على ذلك يأتى بمراجعة نتيجة هذه الوقفة..

إن هذه الوقفة لم تكن فترة سكون بل كانت فترة عمل نشط وإنجاز كبير بدليل أنه أتاح لنا صد جميع هجمات العدو المضادة - والتى كانت متوقعة ومحسوبا حسابها فى التخطيط - من أفضل الأوضاع الممكنة ومن أنسب أماكن القتال بالنسبة لنا، لأن ذلك جاء عقب عملية عبور أضخم مانع مائى فى تاريخ الحروب واقتحام أقوى خط دفاعى عرفته المعارك.

ونتيجة هذا التنفيذ الجيد للتخطيط السليم تمكنت قواتنا خلال هذه الوقفة التعبوية من تدمير حوالى ٥٠٠ دبابة للعدو، واسقاط أكثر من ٩٠ طائرة، بالاضافة إلى فرض الاستسلام على ما تبقى من مواقع خط بارليف الحصينة التى حاصرتها قواتنا منذ اليوم الأول للقتال..

وكان لهذه الوقفة التعبوية أهداف أساسية فى الخطة الهجومية المصرية، ومن هذه الأهداف ضمان ثابت وتعزيز رءوس الكبارى التى أمنتها قواتنا حتى ولو كان فى سبيل ذلك بعض الخسائر، لأن من الأفضل أن ننزل بالعدو أكبر خسائر ونحن فى موقع ثابت. وكذلك نوفر لقواتنا التجهيزات الهندسية لتتجنب كشف قواتنا البرية فى العراء دون سواتر أو دفاعات تواجه بها الهجمات الجوية المعادية. كما أن رءوس الكبارى التى يتم تعزيزها تشكل قواعد قوية تستند إليها قواتنا عندما تبدأ فى تطوير الهجوم.

ومن أهداف هذه الوقفة أيضا توفير الدفاع الجوى عن قو اتنا المتمركزة فى رءوس الكبارى مع إسقاط أكبر عدد ممكن من طائرات العدو التى تهاجمها وتوفير مزيد من القدرات لقواتنا الضاربة بنقل عناصر الدفاع الجوى

الصاروخى خلفها. كما تضمنت أهداف هذه الوقفة تحقيق الاتزان الاستراتيجى - أى على كل أنحاء مسرح العمليات - بوجود مؤخرات الجيوش الميدانية واحتياطيات القيادة العامة قرب القناة، واستكمال الامدادات الادارية والفنية وسد جميع احتياجات القوات كلها قبل دفع عجلة الهجوم إلى الشرق.

الفصل الثالث

علماء.. بالزى العسكرى

هناك فكاهة يرددها المقاتلون فى الجبهة تقول:

اذا رفعت أى حجر فستجد تحته أحد المهندسين..

ووراء هذه الكلمات مئات من القصص التى يعتز بها سلاح المهندسين والتى حطمت إلى الأبد أكذوبة التخلف الحضارى التى حاولت إسرائيل فرضها على حركة التاريخ.

ومن بين حوالى ٨٠٠ ألف مقاتل تضمهم القوات المسلحة المصرية نجد آلاف العلماء يرتدون الزى العسكرى ودورهم الرئيسى فى القتال هو اعمال الفكر وابتكار أحسن أساليب التطبيق العلمى للنظريات العلمية.. ومع ذلك فقد كان هؤلاء العلماء ضمن أول نسق يعبر قناة السويس ظهر اليوم السادس من أكتوبر.. بل وسبقت بعض عناصر المهندسين بداية المعركة، وعبرت القناة بين وحدات الصاعقة قبل ساعة الصفرساعات طويلة ويروى المقاتل مهندس محمد قصة هذا العبور المبكر:

تم دفع بعض الجماعات الخاصة الى الحدود الأمامية لمواقع خط بارليف المواجهة لنقط العبور مهمتها التسلل بهدوء لافساد تدابير العدو التى أعدها

لمواجهة أي عبور مصري وأخطرها دفع النابالم من مواسير ملاصقة للحافة الشرقية للقناة بحيث تشتعل لتغطى سطح القناة بالنيران وتحول دون أى محاولة لعبورها..

وسبق دفع هذه الجماعات الطليعية، دراسات دقيقة لهذه التجهيزات المعادية وكيفية عملها مع تحديد كامل لأماكنها.. واستطاعت هذه الجماعات الخاصة ـ والتى كانت تضم بالطبع عناصر المهندسين والصاعقة ـ أن تقطع الخراطيم بآلات خاصة أعدها المهندسون. وأن تسدمواسير النابالم بمعجون اسمنتى أعده أيضاً المهندسون. ونجحت مهمة رجال العبور المبكر لدرجة أن بعض المواقع حاولت استخدام النابالم ودفعه الى سطح القناة ولكنها فشلت تماما مما دعا العدو إلى تكذيب أمر هذه التجهيزات الجهنمية... ولكن قواتنا استولت على الخزانات، واعترف أسرى خط بارليف بهذا المخطط.. وكان بينهم المهندس المختص باعداد وصيانة خزانات النابالم وأنابيبها.

وعندما حان التوقيت المحدد وجاءت الساعة ١٤٠٥ ظهر اليوم السادس من أكتوبر كانت طائراتنا تنطلق الى عمق سيناء ودانات المدفعية تتساقط على الأهداف المعادية، بينما رجال سلاح المهندسين يقومون بفتح الثغرات فى الساتر الترابى المقام على الضفة الغربية للقناة لإعداد الطرق أمام أسلحتنا الثقيلة التى ستدفع إلى شرق القناة عبر الممرات والكبارى. وكان سلاح المندسين هو الذى أقام هذا السد الترابى من قبل لتوفير وقاية كاملة لقواتنا من نيران العدو ومراقبيه. وهكذا أقاموا هذا السد من قبل.. ثم كان عليهم عندما حانت اللحظة التاريخية أن يتولوا هم أيضا ازالته وكان من بين ما قاموا بتجهيزه على الضفة الغربية للقناة من قبل، شبكة طرق متصلة تؤدى الى ضفة القناة وتصلها بأعماقنا. وبلغ مجموع أطوال هذه الطرق ٢٠٠٠ كيلو متر، أى حوالى ثلاثين ضعف طول القناة نفسها أو عشرة أضعاف طول الطريق من القاهرة إلى الاسكندرية..

وقبل أن يتفرع بنا الحديث بين أعمال المهندسين وانجازاتهم يجب أن نستمع الى حديث مدير سلاح المهندسين عندما وقف يعرض موجزاً لأعمال سلاحه فى المعركة فى مؤتمر خاص عقد بمقر القيادة العامة، وقدر لى أن أشهده.

وأسمح لنفسى هنا أن أنقل بالحرف جزءا من حديث مدير سلاح المهندسين:

تمت أعمال التجهيز الهندسى على مراحل، وباستغلال طاقات الشركات المدنية للإنشاءات وشركة استصلاح الأراضى وبعض هيئات وزارة الرى. وبلغت تكاليف التجهيز الهندسى فى الجبهة فقط ٣٠ مليون جنيه.

وأبرز الأعمال التى تم انجازها إنشاء ساتر ترابى على الضفة الغربية لتحمى قواتنا، واعداد مرتفعات خرسانية يمكن لدباباتنا وأسلحتنا المضادة للدبابات احتلالها لتعلو بذلك فوق الساتر الترابى على ضفة القناة الشرقية. وباستخدام خمسة ملايين متر مكعب من الرمال والأتربة تم تعلية الساتر الترابى الأمامى على الضفة الغربية للقناة. وقد استمرت الشركات المدنية بعمالها المدنيين فى تنفيذ هذه الأعمال حتى بدء المعركة الساعة ١٤٠٥. وكان هذا ضمن خطة خداع حتى لا يلحظ سحب العمال المدنيين من الجبهة قبل بدء المعركة.

ولتوفير القدرة على المناورة للقوات المصرية تمت اقامة شبكة طرق مطورة يبلغ طولها ألفى كيلو متر فى الجبهة فقط، كما أقيمت ستائر على جانبى هذه الطرق وفى مواجهتها لتمنع العدو من مراقبة تحرك قواتنا عليها. وجهزت عشرات المخاضات على ترعة الاسماعيلية وترعة السويس لتربط بين ضفتى الترعة، بالاضافة إلى الكبارى التى أقيمت فوق هذه الترع لتتيح لقواتنا سرعة الحركة وإن قلل من قيمة الكبارى بعض الشىء تعرضها للقصف والتدمير أثناء غارات العدو الجوية.

واستعدادا للخطة الخالدة التى ستقام فيها الكبارى فوق قناة السويس قام سلاح المهندسين بتجهيز ساحات إسقاط وحدات الكبارى على الضفة الغربية

للقناة، وعلى مسافات متساوية بطول قناة السويس كله، حتى لا يستطيع العدو أن يلاحظ أماكن عبور القوات الرئيسية أو اتجاه الهجوم.

وإذا كان كل عمل هندسي يتطلب تأمينا هندسيا، فإن على المهندس العسكري أن يطوع علمه ومعداته لتتماشى مع كل ما تفرضه ظروف المعركة العسكرية.

ولم يكن الجهد العلمي المبذول في الإعداد للمعركة مقصورا على التجهيزات الهندسية ونشاط سلاح المهندسين.. لقد كان العلم والابتكار المصري في موقعه من المعركة منذ البداية. وقبل أن نعود الى مواقع المهندسين نستعرض دور العلم في المعركة منذ بدء الاعداد لاطلاق الطلقة الأولى الساعة ١٤٠٥ يوم ٦ أكتوبر..

مع بداية ١٩٧٣ كان الجندي المصري قد استوعب بالفعل الأسلحة الحديثة والأجهزة الالكترونية المعقدة، وبدأ بذلك مرحلة جديدة من مراحل العسكرية المصرية وهي مرحلة عمليات الأسلحة المشتركة.. واستكملت القوات المسلحة المصرية تسليحها خاصة في مجال الدفاع الجوي الصاروخي، بالإضافة الى معظم احتياجاتها من الأسلحة البرية ومن أجهزة الكشف الالكتروني عن الأهداف وكذلك معدات العبور.

ورغم نجاح أغلب صفقات التسليح مع الاتحاد السوفيتي - وأقول أغلبها - فإن ذلك وحده لم يكن كافيا. كان لابد من خطة تعرضية استراتيجية لعمل هجومي كبير.. وكان لابد أن تستهدف هذه الخطة تحرير سيناء.

واصطدمت الخطة المنشودة بالمانع المائي لقناة السويس، والسد الترابي الضخم الذي أقامته إسرائيل على الضفة الشرقية، ومن ورائه مواقع خط بارليف الحصينة. واستبدت الافكار شبه الخيالية التي تبحث في ابرار بحري جوي ضخم شمال سيناء وثبت استحالة نجاحها. ثم قيل نفس الشيء عن خطة القناة ومهاجمة مواقع خط بارليف.. ووصفها الخبراء بأنها ضرب من المستحيل.

بل وأجمع الخبراء الاجانب الذين استعانت بهم مصر على استحالة العبور بعملية هجومية، وأكدت إسرائيل استحالة نجاح أى هجوم يستهدف خطها الدفاعى شرق القناة. وقال رئيس أركان حربها: إن مواقع خط بارليف هى قبور المصريين..

ولم تختلف كلمات الاصدقاء عن هذا المعنى كثيرا.. وأجمع الخبراء السوفيت على أن نجاح الهجوم المصرى يتطلب استخدام القنابل الذرية التكتيكية، وأنه بدونها لا يجوز اعداد خطة هجومية (!)

وربما يعلن حتى الآن، ان القيادة العسكرية المصرية استعانت بالعقل الالكترونى فى اعداد حسابات عملية هجومية مفاجئة تعبر بها القوات المسلحة المصرية قناة السويس وتهاجم مواقع خط بارليف وجاءت محصلة حسابات العقل الالكترونى تؤكد أن مشاكل العبور ستبقى مشاكل يصعب حلها؟

.. وبعد أن استغنت مصر عن الخبراء السوفيت، ورفضت أن يبقى تحرير أرضها مشكلة بلا حل، كان على القيادة العامة للقوات المسلحة، وعلماء عملياتها، أن يعتمدوا على أنفسهم فقط ودون عقل الكترونى..

وأعلن الرئيس أنورالسادات ذلك عندما قال يوم ١٨ يناير ١٩٧٣ فى حديثه الى ضباط وجنود احدى الوحدات العسكرية: «عليكم أن تثبتوا أن العسكرية المصرية يمكن أن تؤكد للعدو والصديق على السواء أنها لا تقبل الاستسلام، وأنها قادرة - وهى معتمدة على نفسها وعلى قدراتها وروحها القتالية - على انتزاع الحق العربى والانتصار فى يوم الثأر».

وقال القائد الأعلى يومها:

«ان هناك لحظات تاريخية تواجه الأمم.. إذا لم تقبل فيها التحدى فقدت كل شىء.. ونحن هذه الأيام نواجه هذه اللحظات التاريخية، فإما أن نقبل التحدى أو نفقد كل شىء».

وعندما كان الرئيس السادات يعلن ذلك، كان الإعداد للعملية المنشودة مستمرا ليلا ونهارا..

كانت هناك خطة للإعداد..

وكانت هناك خطة للعمليات..

وبالنسبة للإعداد كان على قواتنا أن تستعد وتتدرب على القيام بدورها فى العمليات وعلى عبور هذا المانع المائى الكبير الذى يعد من أكبر الموانع الطبيعية فى العالم ولو أنه كان عملا صناعيا فى الأصل شقه المصريون بسواعدهم، ومن الظلم أن نشبه عملية اقتحام قناة السويس بعمليات عبور أخرى قام بها أى جيش من قبل.

وكان على قواتنا البرية أن تبدأ فى التدرب على عمليات الاعداد للعبور والتدرب على انشاء معدات العبور من كبار ومعابر وغير ذلك

وأعد سلاح المهندسين ميادين للتدريب على العبورحول نهر النيل وكان التدريب يشمل اعداد الكبارى والمعابر واقامتها تحت النيران. وأجرى المهندسون تجارب ودراسات حول كيفيةالتعامل مع ردم الرمال الذى بناه العدو على الضفة الشرقية، بادئين بكيفية الوصول الى قمته وفتح الثغرات فى جداره، وحتى عبور الدبابات والمعدات الثقيلة الى الضفة الأخرى.

وعاش الرجال فى تجارب دائمة مع هذا السد الترابى الذى ظل يشكل مشكلة صعبة.. بل ،وفى غاية الصعوبة. واستفاد المهندسون من نتائج ودروس معارك المدفعية (الاستنزاف) وثبت لهم أن دانات المدافع ليست قادرة على فتح الثغرات فى السد الترابى.. بل وأجريت تجارب بالمدفعية على نماذج لهذا الردم. وأحضر سلاح المهندسين أتربة من نفس النوع المستخدم فى هذا السد الترابى وقاموا ببناء ردم مماثل تماما وجعلوا ارتفاعه ٢٠ مترا وهو متوسط ارتفاع الردم المقام شرق القناة، ثم أطلقوا عليه مختلف أنواع المدفعية وبمختلف العيارات وأنواع الذخيرة ومن مسافات مختلفة..

ولم ينجح ذلك فى فتح ثغرة واحدة فى السد الترابى.

وبدأت سلسلة تجارب الانفجارات والنسف. واستخدمت مختلف «العبوات» والألغام وعلى أعماق مختلفة داخل الردم. وكانت نفس النتيجة حيث ترتفع الرمال فى الجو عقب الانفجار لتعود مرة أخرى الى مكانها أو لتصنع بدورها ردما جديدا فى المكان نفسه، ومن بين عشرات التجارب التى أجريت، تم تجربة مضخة مائية قوية وجهت مياهها ـ التى ترفعها من أسفل وتدفعها بقوة ـ إلى نموذج السد الترابى المقام فى سلاح المهندسين ونجحت التجربة وانهارت الرمال وفتحت الثغرات..

وتم تطوير هذه المضخة بحيث توفر لقواتنا طلمبات تربينية تعمل بالوقود العادى ويمكن تحميلها على قوارب أو يحملها الافراد، ولا نحتاج لتيار كهربائى.. وهكذا ظهر لأول مرة فى العالم سلاح جديد أطلق عليه المقاتل المصرى اسم «المدفع المائى».

ومن أمثلة المشاكل وكانت هناك عشرات المشاكل الأخرى التى كان على سلاح المهندسين أن يوفر لها حلا مصريا، مشكلة تسلق الافراد للسد الترابى فى اللحظة الأولى والخطيرة للعبور. فعند وصول الأفراد إلى الضفة الشرقية للقناة كان عليهم أن يتسلقوا الحاجز الترابى ليحتلوا قمته حتى قبل أن تنطلق المدافع المائية تفتح الثغرات فى هذا السد. وكان على هؤلاء الافراد أن يحملوا معهم أسلحتهم وذخائرهم إلى قمة الحاجز الترابى. وكان تسلق هذا الروم المرتفع الى ٢٠ مترا فى المتوسط بحمولة كبيرة من الذخيرة وفى وقت قياسى يجرى حسابه بالجزء من الثانية عملا خارقا.

وأجريت التجارب فى سلاح المهندسين على نموذج الحاجز الترابى الذى أقيم بالحجم الطبيعى وارتفاعه الحقيقى.. وجربت طريقة الونش الرافع الذى تثبت بكرته فى قمة السد ثم يتم جذب طرفه ليرتفع الطرف الثانى الى أعلى السد حاملا الأسلحة والذخيرة، بينما الافراد يتسلقون السد بمفردهم..

وأسفرت هذه التجربة - رغم نجاحها - عن مشاكل جديدة تتسبب فى ارباك الافراد فضلا عن تجريدهم من الاسلحة الرئيسية فى أدق لحظات المعركة.. وأجريت تجارب أخرى تقضى بتسلق الافراد للحاجز الترابى بكمية محدودة من الذخائر بينما يخصص افراد آخرون لنقل الذخائر على مراحل.. وبالتناوب. وكانت الساعة تقيس زمن كل تجربة.

ثم كانت تجربة اخرى باستخدام عربة يد صغيرة يضع فيها الفرد ذخائره ويسحبها معه الى قمة السد الترابى. واعلنت لجنة قياس الوقت أن أكثر هذه التجارب نجاحا كان «عربة اليد».

وتم على الفور وضع تصميم ونماذج لهذه العربة البدائية وتم تصنيع أعداد كافية منها تم نقلها إلى مناطق التدريب.. ثم الى جبهة القتال.

ونرفع حجرا آخر لنجد تحته - كما يقولون - أحد المهندسين.. والحجر هذه المرة بعيد عن خطوط القتال.. فى أعماق أرضنا حيث تنتشر القواعد الجوية المصرية.. وحيث يتولى سلاح المهندسين حل مشاكل أخرى من نوع جديد..

كان على سلاح المهندسين أن يقوم بتنفيذ أعمال هندسية على نطاق واسع لتوفير عناصر الأمن والسلامة لقواتنا الجوية وتحقيق صمودها أمام أى هجمات معادية.

ومن أجل ذلك تم تطوير شبكة المطارات والقواعد الجوية وانشاء مطارات جديدة، واعداد ممرات تبادلية فى جميع المطارات والقواعد الجوية، كما تم تجهيز ملاجئ محصنة للطائرات من الخرسانة المسلحة زودت ببوابات من الصلب، تم اعدادها باسلوب علمى مبتكر وتصميم هندسى مصرى بحت تفخر به العقلية العلمية المصرية، مما دعا قوات حلف وارسو إلى نقله وتعميمه فى قواعدهم والاستفادة من الابتكار المصرى الخلاق..

وقد تكلف هذا العمل ملايين الجنيهات وتضافرت فيه جهود الشركات المدنية وسلاح المهندسين وشمل عمليات حفر وردم بلغ مجموعها ٢٤ مليون متر مكعب، مع صب خرسانات عادية ومسلحة تزيد على ٢ مليون ونصف مليون متر مكعب من الخرسانة ومثلها من الحجارة وما يزيد عنها من المواد الاسفلتية..

وشكل المهندسون وحدات هندسية لكل مطار تضم جماعات قادرة على توفير حاجة مطارها من الأعمال الهندسية خلال القتال، واستعادة كفاءته فورا عند تعرضه للقصف الجوى خاصة فيما يتعلق بإزالة القنابل الموقوتة التى لم تنفجر..

وكان لدى هؤلاء الرجال مشاكل من بينها مشكلة اصلاح الممرات بعد قصفها بقنابل الطائرات بسرعة تتيح للطائرات أن تنطلق من قاعدتها وتعيد المطار الى مكانه فى المعركة. واشتركت وزارة البحث العلمى فى الأبحاث التى تهدف لإيجاد حلول جذرية لهذه المشكلة، وتوصل علماء مصر الى ابتكار خلطة تستخدم فى رصف المساحات المصابة من الممر، بالإضافة الى تصميم ألواح من الصلب تصلح فى معالجة الممرات المصابة، وأمكن تصنيع هذه الألواح فى مصر.

وبالنسبة لمشكلة إزالة القنابل التى تنفجر والتى تحتوى على أجهزة تفجير موقوتة تهدف إلى منع رجالنا من اصلاح ما تم تدميره فقد شكل سلاح المهندسين وحدات خاصة لهذا العمل تولت هذه المسئولية الضخمة فى كل مطار وقاعدة جوية، وقد تمكنت هذه الجماعات من رفع ١٦ ألف قنبلة منها ألف قنبلة وزنت الألف رطل ومزودة بأحدث أنواع الشراك الخداعية الخبيثة.

ونرفع حجرا آخر فى مواقع الدفاع الجوى لنجد المهندسين أيضا تحت كل حجر..

ففى مجال الدفاع الجوى أتم المهندسون بناء مئات من قواعد الصواريخ..

وشملت عمليات الانشاء فى الدفاع الجوى أكثر من ١٢ مليون متر مكعب

من الحفر والردم، وحوالى ٢ مليون متر مكعب من الخرسانة، وأربعة آلاف كيلو متر من الطرق أى حوالى عشرين ضعف طريق القاهرة ـ الاسكندرية، وقد تكلفت هذه الإنشاءات ٨٠ مليون جنيه.

ونعود مرة أخرى إلى الجبهة.

ونتابع حديث المقاتل مهندس شوقى لننتقل مع أول نسق من قواتنا إلى سيناء..

وفى الساعة ١٤٢٠.. وبينما طائراتنا تعود من مهمتها الناجحة.. كانت الموجة الأولى من قوات الهجوم تعبر القناة ومعها عناصر المهندسين العسكريين. وكان على المهندسين أن يؤمنوا مرور المترجلين فى حقول الألغام المعادية. وعادت القوارب تنقل الموجات التالية، ومعها عبرت مجموعات أخرى من المهندسين عليها أن تحدد محاور الثغرات فى الساتر الترابى وتجهز الأرصفة للمعديات والكبارى.. ثم جاء عقب ذلك الدور على عناصر المهندسين التى تحمل مضخات المياه أو المدافع المائية لتبدأ فتح الممرات..

وفى الساعة ١٦٢٥ أى بعد بدء المعركةبحوالى ساعتين، كانت ٨٠ وحدة هندسية قد عبرت القناة فى قوارب خشبية مزودة بالخراطيم والمدافع المائية التربينية..

وبدأ العمل.. وتوالت البلاغات عن نجاح الطلمبات أو المدافع المائية فى ازالة الساتر الترابى، وبدأ تثبيت أرضيات الممرات التى كان الوحل المبتل عندها يبلغ عمقه مترا أو أكثر.. واستخدمت شكاير الرمل والحجارة والقضبان الحديدية وألواح الصلب والشباك المعدنية فى تثبيت الارضيات.. ثم تقدمت آلات الجرف خارجة من معدياتها لتزيح الطبقة الموحلة وتصل الى القشرة الصلبةالتى تتحمل مرور الدبابات.

وبدأت الاسلحة الثقيلة تتقدم فوق الطرق المحددة لها وطبقا للجداول الزمنية التى سبق وضعها..

وحل الظلام لتستمر الأعمال بنفس النظام الموضوع..

وسارت مراحل نقل المعدات والأسلحة الثقيلة بنجاح كامل فى قطاعات الجيش الثانى، ولكنها اصطدمت بمشاكل طارئة فى قطاع الجيش الثالث. لقد كان تجريف المياه فى قطاع هذا الجيش أكثر صعوبة بسبب صلابة الساتر الترابى مما أثر على كفاءة المدافع المائية، وعلى زيادة عمق الوحل المترتب على عملية التجريف مما تطلب مواد اضافية لتثبيت الأرضيات.. كما أن ذلك كان يتم تحت قصف شديد مركز من طائرات العدو ومدفعيته.. وكاد قمر العاشر من رمضان يتسبب ليلتها فى زيادة أثر المد والجزر قرب منطقة التقاء قناة السويس بالبحر الأحمر وهى أكثر مناطق القناة تأثرا بالمد والجزر، وكان تأخر التركيبات وزيادة الزمن الذى استغرقه العمل فيها يعطى فرصة لمضاعفة آثار سرعة التيار العالية.

وقد أدى ذلك كله الى تأخر اقامة كبارى الجيش الثالث لمدة ٧ ساعات، وأمضى المهندسون ليلتهم فى عمل شاق وسباق مع الزمن استمر ست عشرة ساعة تم خلالها اقامة عشرة كبارى ثقيلة وعشرة كبارى مشاة وأعداد كافية من المعديات، واستطاعت الدبابات المصرية والأسلحة الثقيلة أن تعبر القناة وتصل الى مناطق رءوس الكبارى فى الوقت المناسب.

وركز العدو نيران مدافعه وهجماته الجوية على صفحة القناة محاولا منع قواتنا من العبور. وكان سلاح المهندسين قد استعد لذلك ببناء معابر هيكلية امتصت ضربات العدو، كما خصصت جماعات لإصلاح المعابر ظلت تعمل بصورة متواصلة الى أن تمكنت من إصلاح المعابر التى أصيبت أكثر من خمس مرات..

بقى رقم سجله التاريخ لسلاح المهندسين المصرى وهو مليون ونصف مليون لغم قام المهندسون بزرعها خلال معارك اكتوبر، كان من بينها نسبة كبيرة فى منطقة الثغرة..

واذا أردنا أن نسجل كل ما حققه سلاح المهندسين فإن علينا أن نرفع كل حجر يصادفنا لنجد تحته أحد رجال المهندسين يروى قصة بطولة رائعة..

الفصل الرابع

أبطال ساعة الصفر

بدأت عملياتهم قبل صدور أول بيان عسكرى..

واستمروا فى القتال بعد آخر بيان عسكرى..

وفى ساعة الصفر الساعة ١٤٠٥ كانوا هم أول من عبر قناة السويس وأول من رفع علم مصر على الضفة الشرقية.. وفى الوقت نفسه كانوا ساعتها داخل خطوط العدو ووراء استحكاماته الدفاعية..

إنهم الصاعقة..

واذا كانت عمليات اكتوبر تبدأ الساعة ١٤٠٥ ظهر يوم ٦ اكتوبر فإن عمليات الصاعقة تبدأ قبل ذلك بيوم كامل عندما عبروا القناة يوم ٥ أكتوبر.

ويروى بطل من أبطال العبور المبكر قصة عمليات «ى - ١» (ى ناقص واحد تعنى اليوم المحدد لمعركة بيوم واحد).

كان لابد من عمليات تمهيدية مبكرة تسبق مرحلة العبور.. وكلفت وحدات الصاعقة بهذه المهمة الدقيقة وكان أهم ما يحرص عليه الرجال يومها ألا يشعر العدو بشىء حتى لا يتنبه لما أعد له..

وتحت ستر الظلام تم دفع جماعات الصاعقة الى الضفة الشرقية داخل قوارب المطاط التى عبرت بهم القناة بعد أن غاب القمر فى الثلث الأول من

الليل.. وكان على هذه الجماعات أن تقوم بآخر عملية استطلاع قبل بدء المعركة ظهر اليوم التالى.. كما كان عليها أن تبطل سلاح النابالم الرهيب الذى أعده العدو ليواجه به أى عملية عبور تقوم بها القوات المصرية بدفع السائل الملتهب الى سطح الماء ليحولها الى صفحة من الجحيم..

وقبل الفجر عادت آخر هذه الجماعات.. وكان أهم نجاح بالنسبة لهم أن المهمة قد تمت دون أن يتنبه العدو أو يشعر بهم.. بينما تم سد أنابيب النابالم المتصلة بالقناة، واكتملت صورة موقف العدو فى مواقع خط بارليف وتم التأكد من أن شيئا غير عادى لا يحدث فى مواقعه.. وأنه لم يعرف ولم يستعد لمواجهة عمليات ظهر اليوم التالى..

وجاء يوم «ى»..

وقبل أن تحين ساعة العبور بدقائق بدأ إيراد وحدات من الصاعقة فى أعماق العدو وبين خطوطه لتتحمل مسئولية تعطيل احتياطيات العدو عن نجدة خط دفاعه الأول على الضفة الشرقية للقناة، ولتوفر لقواتنا بذلك حماية ضرورية خلال اللحظات الأولى والخطيرة للمعركة.. وتولت طائرات الهيلوكوبتر المصرية نقل هذه الوحدات الى حيث يجب أن تكون، بينما كانت جماعات أخرى من الصاعقة فى طليعة النسق الأول للعبور.

وبالنسبة للعمليات خلف خطوط العدو، فقد تولت المجموعات الأولى شغل قوات العدو وفى معارك جانبية فى عمق سيناء حالت دون تحركها السريع لنجدة خطها الأول على الضفة الشرقية للقناة، والتحمت هذه المجموعات مع احتياطيات العدو شرق خط بارليف فى قتال بطولى استخدم خلاله العدو الأسلحة الثقيلة بينما كانت قوات الصاعقة تستخدم الرشاشات والقنابل اليدوية والأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات.

ويروى العميد نبيل شكرى قائد قوات الصاعقة - فى حديثه خلال المؤتمر الذى عقد بمقر القيادة قصة الرجال الذين «ركبوا» مفارق الطرق فى سيناء،

حيث نصبوا كمائنهم لأرتال (طوابير) المدرعات الاسرائيلية التى تحركت لتوفر الدعم السريع للخط الأول، فاصطدمت بمعارك جانبية اختارت الصاعقة مكانها وتوقيتها.. وعطلت بذلك الدعم الاسرائيلى بل وأنزلت بهم خسائر عديدة فى الافراد والمعدات.. ويشبههم قائدهم برجال المرور عندما يضيئون النور الأحمر فيوقفون تحرك العدو بقولاته (قوافله) وأسلحته..

وتكمل ذلك حكاية مضيق متلا التى وقعت أحداثها صباح اليوم التالى للقتال عندما أبلغت قيادة قوات العدو فى متلا رئاستها فى الساعة الثامنة صباح ٧ اكتوبر بأنها محاصرة وأن الدبابات المصرية تحيط بها من كل جانب، وأنها لا تستطيع أمام ذلك أن تفعل شيئا..

وقصة متلا بدأت عندما عبرت قواتنا البحيرات المرة، ثم اندفعت بعض الدبابات البرمائية المصرية نحو عمق سيناء، فاتجهت سرية ميكانيكية برمائية نحو مضيق الجدى، بينما اتجهت سرية أخرى نحو مضيق متلا لتهاجم أهداف العدو الخلفية، وتدمر موقعا للرادار عند ممر متلا.. بينما كانت وحدات الصاعقة تطلق نيرانها على العدو فى المنطقة مما جعل العدو هناك يرتبك ويتصور أنه محاصر بالدبابات، وتسبب ذلك فى ارباك تحركات العدو بل وتوقفت تحركاته عبر ممر متلا تماما لأكثر من يوم كامل.. وعادت هذه القوات المدرعة لتنضم بعد ذلك الى قواتنا الرئيسية شرق القناة..

وهناك حكاية أخرى يرويها رجال الصاعقة جرت أحداثها فى أقصى شمال الجبهة وتماثل تماما هذه الحكاية التى وقعت فى الجنوب.. ففى أقصى الشمال عند منطقة بور فؤاد كان لنا قطاع من الأرض ظل طاهرا من العدو منذ هزيمة ١٩٦٧ ولم يستطع العدو أن ينال منه بفضل صمود قواتنا فى رأس العش وسرى بور فؤاد

وبقيت لنا قوات على بداية الطريق الساحلى شرق بور فؤاد والمتجه شرقا حتى العريش، بينما أقام العدو قلعة حصينة له فى هذا المكان لتتصدى لأى

تقدم مصرى هناك. ويزداد اهتمام العدو بهذه المنطقة حيث الطريق الساحلى يؤدى مباشرة الى «رمانة»، وفيها مركز قيادة العدو..

وعندما حانت ساعة الصفر كان على قوات الصاعقة أن تشن هجوما مخادعا فى هذه المنطقة بحيث يبدو للعدو وكأنه هجوم رئيسى يجذب اهتمامه بعيدا عن الهجوم الرئيسى والحقيقى الذى يتم فى أصعب مناطق الهجوم المتوقع على طول القناة.. وبالمواجهة.

وكان طبيعيا أن وجه العدو قدرا كبيرا من احتياطياته ومن مدرعاته فى هذا الاتجاه حيث طريق القوات المصرية يمتد بمحاذاة الساحل الى مقر قيادة العدو فى «رمانة».

ودفع العدو احتياطياته المدرعة الموجودة فى رمانة لنجدة موقعه الحصين الموجود شرق بور فؤاد والذى يتوسط الطريق منها الى «رمانة»، وصحت توقعات القيادة المصرية عندما وجه العدو مجهوده الجوى الى هذه المنطقة، وتمكن هذا الهجوم المخادع من تحقيق الأهداف حيث جذب اهتمام العدو اليه وجذب ايضا جزءا كبيرا من مجهوده الجوى الذى كان متأثرا منذ البداية بعد الضربة الجوية المصرية المفاجئة على قواعد سيناء.. ووفر ذلك كله عنصرا آخر من عناصر النجاح لقواتنا التى كانت تقتحم القناة من أصعب أماكنها بالمواجهة.

وبقيت قوات الصاعقة شرق الموقع الحصين للعدو متماسكة ومتشبثة بالأرض لتعطل نجدات العدو. وتحول دون وصول احتياطياته لنجدة موقعه الذى بات محاصرا من الغرب حيث قوات بور فؤاد، ومن الشرق حيث قوات الصاعقة، وكان الافراد يوجهون صواريخهم المضادة للدبابات من أماكن تمركزهم فى الكمين المصرى المعد من حول الطريق، بينما تجلت بطولات خارقة لبعض الأفراد.

وحقق الأبطال بذلك أروع استشهاد فى تاريخ الحروب. وظل هذا الطريق مقطوعا على العدو ٤٨ ساعة كاملة كانت فى الواقع أكثر كثيراً مما هو مطلوب، وتحقق بالتالى أكثر مما كان متوقعا..

وبعدها عاد الرجال متسللين عبر خطوط العدو نفسه ومتخطين موقعه الحصين شرق بور فؤاد.. واستطاعوا أن ينضموا بالتالى الى قوات قطاع بورسعيد بعد أن حققوا المهمة التى أوكلت اليهم بنجاح يزيد عما كان متوقعا..

وبينما كان ذلك يحدث.. كانت قوات من الصاعقة تنقلها طائرات الهيلوكبتر الى أعماق العدو فى سيناء.. كانت جماعات الصاعقة تعبر القناة تحت ستر نيران المدفعية لتبث الالغام والشراك فى مصاطب دبابات العدو.. وكان هؤلاء الرجال يشكلون طلائع الزحف الهائل وكانوا أول من رفع أعلام مصر على مواقع خط بالريف.. ومن ورائهم انطلقت الموجات التالية من أفراد المشاة حتى اكتمل عددهم عند آخر ضوء إلى ٨٠ ألف جندى مصرى سقطت تحت أقدامهم مواقع العدو الحصينة.

وتنطلق الكلمات سريعة من أفواه الرجال الذين اعتادوا السرعة والعمل الخاطف، لتلخيص هذه اللحظات التاريخية فى عدد متواضع من الكلمات..

لقد استطاعت مجموعتى أن تتسلق الساتر الترابى المرتفع خلال الخمس دقائق الأولى من المعركة.. واستخدمت فى ذلك سلالم الحبال.. بل وتسلقه بعض الرجال بأيديهم،، واستولوا على مصاطب الدبابات التى أعدها العدو لمدرعاته.. وبثوا كميات كبيرة من الالغام المضادة للدبابات فى الطرق المعدة لتقدم المدرعات الاسرائيلية.. وفى الوقت نفسه فتحت مجموعات أخرى من رجالنا ممرات فى حقول ألغام العدو.. وقام بعض الابطال بفتح هذه الممرات داخل حقول الالغام بأجسادهم..

وبينما كانت مجموعات من رجال الصاعقة تشترك فى مهاجمة قلاع بارليف.. وبعض هؤلاء الرجال يلقى بنفسه على فتحات (مزاغل) الرشاشات

الاسرائيلية ليصيد بجسده طلقاتها.. كانت مجموعات أخرى من الصاعقة تندفع فى اتجاه الشرق لتقيم كمائن الدبابات لاحتياطيات العدو المدرعة ولتمنعها من التقدم لنجدة قوات خطه الأول المنهار..

وقبل آخر ضوء اليوم الأول للقتال كانت مجموعات الصاعقة فى مواقعها شمال وجنوب سيناء فوق جبالها ووسط وديانها بعد أن نقلتهم طائرات الهليوكبتر إلى المواقع المحددة لهم وراء خطوط العدو..

واستمر هؤلاء الرجال هناك يقطعون على العدو طريق المناورة ويتمسكون بمواقعهم عند الممرات وحول المضايق الجبلية..

وتبرز هنا حكاية مثيرة من حكايات الصاعقة..

انها حكاية «مضيق سدر» حيث كانت هناك وحدة من رجال الصاعقة تمكنت من السيطرة على هذا المضيق المهم وبقيت متمسكة به. وتمت لهذه القوات السيطرة تماما على الممر ومنع العدو من التحرك عبره أو حتى الاقتراب منه منذ اليوم الأول للقتال وفى ٢٢ اكتوبر ـ اليوم الذى تم فيه صدور قرار وقف اطلاق النار.

وعلى مدى ١٦ يوما لم تعبر هذا الممر عربة معادية واحدة.. حتى صدرت الأوامر المشددة لهؤلاء الرجال بالارتداد غربا والانضمام الى باقى وحدات الجيش الثالث الميدانى..

وشهد القطاع الجنوبى من سيناء نشاطا فذا للصاعقة ـ وربما كان هذا القطاع الجبلى هو أكثر مناطق سيناء التى تناسب عمليات الصاعقة بما توفره المرتفعات وصخور الجبال من بيئة ممتازة للعمليات الخاصة..

ومن وسط الجبال ومن الصخور التى تمركزت داخلها وحدات الصاعقة انطلق الرجال يشنون غاراتهم الهجومية الجريئة على وحدات العدو فى بلاعيم والطور وأبو زنيمة وأبو رديس.. واضطر العدو أمام هذه الهجمات إلى دفع

قوات كبيرة من مدرعاته ووحداته الميكانيكية لتتولى حماية أهدافه فى هذه المناطق.. وأدى ذلك بالتالى الى حرمان العدو من قوات كثيرة كانت مخصصة للاشتراك فى عمليات الهجوم المضاد التى شنها العدو على رءوس الكبارى المصرية شرق القناة.. كما تمكنت وحدات الصاعقة هناك من فرض حصار حقيقى على الجزء الأكبر من قوات العدو فى جنوب سيناء بالإضافة الى جذب المزيد من قواته الى هناك..

وفى أبو رديس وشيراتيم وسدر وأبوزنيمة تولى الرجال ـ الذين اخترقوا دفاعات العدو وفرضوا وجودهم خلف خطوطه ـ مهاجمة منشآت ومستودعات البترول، لتكتمل بذلك خطة حرمان العدو من الاستفادة ببترول سيناء خلال المعركة، بينما الاسطول المصرى يحكم الحصار البترولى على العدو عند مضيق باب المندب..

واذا كانت كلمات رجال الصاعقة المتواضعة لا توفيهم حقهم.. فلنترك الطيار نبيل ـ من أسراب الهليوكوبتر ـ يروى عنهم بعض العمليات..

يقول الطيار نبيل الذى اشترك فى عمليات انزال رجال الصاعقة فى أعماق العدو، والذى ساهم بطائرته الهليوكبتر فى امدادهم طوال أيام القتال أن سيناء كانت مليئة برجال الصاعقة منذ الساعات الأولى للحرب. لقد تولت أسراب الهليوكبتر إنزالهم فى عمق العدو حيث تولوا قطع خطوط العدو ومواصلاته وتدمير منشآته ومعسكراته ومراكز الاعاقة والشرشرة التى كان قد أقامها فى سيناء..

وتسبب ذلك فى ارباك للعدو شل تفكيره تماما خلال الساعات الأولى من القتال حيث فوجئ بالقوات المصرية خلف تحصيناته ومواقعه.. كما فوجئ بإمكانيات القوات الجوية المصرية فى القيام بعمليات الابرار الجوى بمثل هذه الضخامة التى تمت بها... وسهلت هذه العمليات مهمة القوات البرية المصرية فى اقتحام النقط الحصينة للعدو، كما كبدته خسائر كبيرة فى أفراده وفى معداته.

ويقول الطيار نبيل:

بعد أن نجحت عمليات العبور واحتلال رءوس الكبارى شرق القناة، قمنا بإنزال قوات أخرى فى مناطق متفرقة فى سيناء حيث تولت احتلال النقط الحاكمة وبعض المرتفعات المسيطرة على الطرق..

وقامت أسراب الهليوكبتر بعدة عمليات إمداد للقوات الخاصة وقوات الابرار الجوى والمظلات والتى كانت تواصل نشاطها القتالى فى أعماق العدو..

وأبرز ما يجب أن أسجله هنا لرجال القوات الخاصة المصرية الذين أنزلوا فى أعماق العدو كمين المدرعات الذى أعدوه بالقرب من مقر قيادة قائد المدرعات الاسرائيلية.. فهناك.. وعلى مسافة قريبة من مقر قيادة القوات المدرعة المتمركزة فى سيناء قامت الهليوكبتر المصرية بعملية إبرار لوحدة من وحدات القوات الخاصة المزودة بالأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات..

وتحرك الرجال فوق الأرض ليسيطروا على النقط الحاكمة التى تشرف على طريق المدرعات الاسرائيلية، ومن فوق هذه النقط الحاكمة أعد الرجال عدة كمائن للمدرعات الاسرائيلية حالت دون مرور دباباته الى الغرب لشن هجوم مضاد على قواتنا فى سيناء..

وخلال أحد هذه الكمائن..

كان طابور المدرعات الاسرائيلية يتقدم ليدخل فى الكمين المصرى..

وصبر الرجال حتى أصبح طابور الدبابات المعادية بالكامل داخل الكمين..

ثم توالت فجأة النيران من الجانبين لتصيب مؤخرة ومقدمة الدبابات الاسرائيلية فى وقت واحد.. ولتنهال بعد ذلك صواريخنا المضادة للدبابات تخترق دروع العدو الذى دمرت دباباته وهى على بعد أمتار قليلة من مركز القيادة..

وخلال هذا الكمين قتل عدد كبير من أفراد العدو وعلى رأسهم قائد المدرعات الإسرائيلية فى سيناء «الجنرال ابراهام ماندار».

الفصل الخامس

رجال الفهد

كان على الرجال الذين عبروا القنال الساعة ١٤٠٥ يوم ٦ اكتوبر أن يواجهوا هجمات العدو المضادة التى سيستخدم خلالها - وبصفة مؤكدة - أسلحته الثقيلة وطائراته، بينما هم مجردون من الأسلحة الثقيلة، وكان عليهم أن يصدوا هجمات العدو بأسلحة خفيفة ومحدودة الى أن يتم اعداد الكبارى ومعابر الدبابات لتعبر عليها أسلحتنا الثقيلة بعد حلول الظلام، أو بعد ذلك اذا تأخر إعداد بعض الكبارى عن الوقت المتوقع..

وقد حدث ذلك بالفعل - خاصة فى قطاع الجيش الثالث - واستغرق اعداد الكبارى وقتا يزيد على الوقت المحدد بسبب الظروف الخاصة التى واجهتها قوات هذا الجيش، وطبيعة الأرض التى كانت تدخل فى نطاق الجيش الثالث الميدانى..

ورغم أن العدو بدأ مقاومة عملية العبور بقصف شديد على مناطق تمركز وحدات العبور واستخدام طائراته ومدفعيته فى ضرب طرق تحركها ومناطق الاسقاط والممرات، الا أن عملية اقامة الكبارى تمت فى قطاع الجيش الثانى الميدانى فى ست ساعات كما كان مخططا لها تماما، وتأخر بعضها إلى ٩ ساعات..

أما فى قطاع الجيش الثالث فقد كان من المقدر الانتهاء من اقامة هذه الكبارى فى ٩ ساعات فقط ولكنها تأخرت عن الموعد المقرر لها ٧ ساعات أخرى ليتم انشاء الكبارى فى هذا القطاع بعد حوالى ١٦ ساعة، نتيجة ما واجه هذه العملية من ضربات معادية بالطائرات والمدفعية بالاضافة الى صلابة التربة التى استخدمت «المدافع المائية» فى تجريفها وبسبب تغيير مناسيب مياه القناة نتيجة الجزر والمد مع وجود تيار سريع عند المنطقة القريبة من نقطة التقاء القناة بمياه البحر الأحمر..

وسواء انتهى اعداد المعابر فى الوقت المحدد، أو فى زمن أكثر من الذى كان متوقعا.. فإن ٥ فرق مشاة مصرية تضم حوالى ٨٠ ألف جندى مصرى كان عليها أن تواجه أسلحة العدو الثقيلة لمدة تتراوح ما بين ٦ ساعات و١٦ ساعة - فى قطاع الجيش الثالث - وحتى يتم عبور الدبابات والمعدات الثقيلة الى الضفة الشرقية للقناة. وكان أهم وأبرز ما يواجه جندى المشاة المصرى شرق القناة خلال هذه الفترة هو الطائرات المعادية، والدبابات الاسرائيلية السريعة التى سيدفع بها العدو فى هجمات مضادة وخاطفة تجاه قواتنا المجردة من السلاح الثقيل - الى حين.

«بالنسبة للطائرات يأتى الحديث عنها فى فصل لاحق.. أما عن الدبابات فقد كان على رجل المشاة المصرى أن يواجهها بسلاحه الخفيف..

ولذلك كان منذ البداية أن تعبر القناة اللحظة منذ الأولى للمعركة الساعة ١٤٠٥ مجموعات اقتناص الدبابات المزودة بصواريخ م/د اى مضادة للدبابات ليقف كل رجل منهم فى مواجهة دبابات العدو بسلاحه الصاروخى الخفيف. وبالفعل تم دفع هذه الجماعات الى الضفة الشرقية للقناة تحت ستر النيران التى أطلقتها المدفعية المصرية والتى بلغ مجموع أوزانها خلال فترة التمهيد النيرانى ٣ آلاف طن.

وبدأ هؤلاء الرجال فى اعداد كمائنهم على طرق اقتراب مدرعات العدو من القناة لتشل الحركة المدرعة للعدو، وتمنع دباباته من التدخل فى عمليات الاقتحام.

ويصف أحد الذين ساهموا فى صنع هذا العمل العظيم نتائج عمليات وحدات اقتناص الدبابات قائلا: إن أعمال تلك القوات خلال تحركاتها.. وبالتالى فشلت قوات العدو فى كل محاولاتها لنجدة مواقع خط بارليف وقواتها فى القنطرة شرق، الى أن تم الاستيلاء على معظم النقط الحصينة وحتى قيام الفرقة الثامنة عشرة مشاة قبل منتصف ليلة ٧ ـ ٨ اكتوبر بتحرير مدينة القنطرة،

كما استولت هذه الفرقة بقيادة العميد أركان الحرب فؤاد عزيز غالى (اللواء فؤاد عزيز غالى الآن) على ٧ حصون قوية للعدو هى كل ما يدخل فى نطاق هجومها من نقط بارليف.

ونجحت هذه الوحدات الخفيفة فى صد جميع هجمات العدو المدرعة التى شنها مستخدما احتياطياته من العمق، وكبدتها خسائر كبيرة فى الدبابات ومنعت وصول مدرعاته الى مواقع المشاة المصرية غرب القناة الى أن تم انشاء رءوس الكبارى بعمق ٨ و١٠ كيلو مترات فى اليوم الثامن من اكتوبر.

وهكذا كان التفوق للرجل فى مواجهة الدبابة..

وكان من نتائج هذه العمليات ذات الأثر البالغ أن شكلت الولايات المتحدة الامريكية لجانا فنية لدراسة عيوب الدبابات الأمريكية التى قد تكون سببا فى ارتفاع عدد الدبابات الاسرائيلية التى دمرها رجال اقتناص الدبابات المصريون بسلاحهم الخفيف.

ورغم أنه كان سلاحا جديدا فى هذه المعركة.. الا أنه لا يزيد على كونه طرازا من الصواريخ المضادة للدبابات التى يملك العدو أنواعا مشابهة لها.. ولذلك فان قيمة هذا السلاح تتركز فى الرجل الذى يستخدمه، خاصة أن استخدامه يحتاج إلى شجاعة بالغة وكفاءة عالية حيث يتم توجيهه بالعين

المجردة عندما تكون الدبابة قريبة الى الحد الذى يسمح بتوجيه السلاح إليها بينما تكون هى قادرة بأسلحتها الرشاشة ومدفعها الرئيسى على ضرب أهداف أبعد بكثير وأصعب..

ولهذا فقد كان اشتياقى كبيرا إلى لقاء واحد من هؤلاء الرجال والتقيت بواحد منهم ..

رقيب مجند محمد ابراهيم عبدالمنعم المصرى..

وأعجبنى اسم المصرى.. ذلك «المصرى» الذى أوقف مصانع أمريكا حتى يتكشف لها عيوب الدبابات الامريكية التى يدمر العشرات منها كل يوم سلاح «المصرى»..

والمصرى فلاح من شنبارة مركز ديرب نجم بالشرقية واستطاع هذا الفلاح أن يدمر ٢٦ دبابة اسرائيلية، بالاضافة إلى ما دمره زملاؤه.

ويروى المصرى قصته مع دبابات العدو.. ويبدأ من ساعة العبور.

«.. كان الرائد صلاح أول من أبلغنا بأن اليوم هو يوم الثأر والشرف.. كنا فى حالة طوارئ.. وفى الساعة الثانية الا عشر دقائق قال لنا الرائد صلاح ستسمعون الآن صوت طيران وانفجارات مدفعية.. انها طائرات مصر ومدفعية مصر.. وبعدها سنعبر جميعا الى الضفة الشرقية للقناة لنحرر الأرض وندمر العدو.

.. وكان دورى فى العبور قد حان بعد ذلك بنصف ساعة، وبالتحديد الساعة ١٤٢٠ شعرت أن شيئا يدفعنى الى الأمام.. شيئا غامضا لا أعرف سره.. لم أشعر بالخوف وأنا داخل القارب فوق مياه القناة رغم أننى شعرت بالخوف قبل ذلك وبعد ذلك.. ولكننى لحظتها كنت فى حالة خشوع ربما يرجع سببه إلى الأصوات التى ترتفع من الضفة الشرقية ومن الضفة الغربية معا تردد فى وقت واحد.. الله اكبر.. الله أكبر.. وعلا صوتنا معهم من فوق

القناة.. ولم تهدأ مشاعرى الا عندما سالت حبات الدموع فوق وجهى.. وبعدها لم يعد لدى وقت للاحساس بأى شىء.

ورغم أننى لم أشتبك يوم السبت (٦ اكتوبر) مع أى دبابة للعدو الا أننى كنت أعد موقعى على تبة عالية وراء أحد مواقع خط بارليف.. وعلى مقربة منى اتخذ زميلى «عبدالمعطى» موقعه، وأصبحنا معا قادرين على قطع طريق تقدم دبابات العدو لنجدة مواقعه أو التى قد يدفعها لشن هجوم مضاد على قواتنا التى عبرت القناة. وتم تقسيم المنطقة التى تضم الطريق المحتمل مرور دبابات العدو منه بينى وبين «عبدالمعطى» حتى لا يحدث تداخل بيننا ولا نصيب معا دبابة واحدة وتفلت أخرى..

وفى الساعة العاشرة صباح اليوم التالى - الأحد ٧ اكتوبر - ظهر طابور دبابات معادية يتجه نحونا فوق الطريق الذى حددته احتمالاتنا.. وصح ما توقعناه. وبلغ مجموع الدبابات المعادية أمامى حوالى ٣٠ دبابة وكان عبدالمعطى أول من اشتبك معها بينما كنت أقوم بتحديد المسافة فى انتظار دخولها إلى مرمى سلاحى. وانتظرت اقترابها وهى تتحرك بسرعة.. ورغم أن مشاعرى لحظتها كانت مزيجا من الفرح لمواجهة العدو.. والاضطراب الذى كان صاحب اللحظة التى عشت طويلا أنتظرها وأترقبها.. إلا أننى حرصت على الابقاء علي أعصابى هادئة متجنبا تأثرها بمشاعرى..

وأصبحت الدبابة الأولى فى المرمى.. ووجهت الصاروخ الى أضعف نقطة فى الدبابة وهى الخط الذى يفصل بين «البرج» وجسم الدبابة. وأطلقت الصاروخ الأول..

وهزنى ما رأيت كثيرا. ولكننى استعدت هدوئى فى ثوان.. لقد طار برج الدبابة فى الهواء.. واشتعلت النيران فيها.. وتعالت صيحات من حولى والافراد فى الموقع من ورائى وهم يرددون «الله أكبر.. الله أكبر». وكانت أصواتهم تهز الجبال وليس فقط تحرك المشاعر.. وكان علىّ أن أظل محتفظا بالهدوء.

وكـان يسـاعـدنى من داخل حـفـرة الموقع اثنان من زمـلائى بقـومـان «بالتعمير» وتجهيز الصاروخ ليصبح دورى هو توجيه القذيفة الصاروخية نحو الهدف وإطلاقها.. وصاح الرجلان معا من داخل الحفرة.. اضرب.. اضرب.. واستـمر اطلاق الصـواريخ على باقى الدبابات حتى بلغ مـا أصبتـه ٨ دبابات دمرت تماما..

وقـمنا بنقل مـوقـعنا الى نقطة أخـرى على نفس التـبـة التى اخـتـرناها لتمركزنا.. وكانت النقطة الجديدة أكثر قربا الى طريق دبابات العدو..

وظهرت ٥ دبابات للعدو كـانت ضمن الدبابات التى ابتعدت عن الطريق من قبل. وعندما أطلقت طلقتى الأولى لتصيب أقرب دبابة منها الى موقعى - وفى أقل من دقيقة واحدة - كانت باقى الدبابات تفر هاربة.

وساد الهدوء أرض المعركة بينما استمر الدخان يتصاعد من دبابات العدو المدمرة حول الطريق وتحت تبتنا التى أطلقنا عليها اسم «تبة الفهد».

وفى منتصف نهـار نفس اليوم وبالتـحديد الساعة ١٢٠٠ من يوم ٧ اكتوبر ظهـر قول دبابات يـتـقـدم نحـونا مـن نفس الطريق. وتكررت القصـة.. وتوالت اصـابـة دبابات العـدو الواحـدة وراء الأخـرى.. ولكننى لاحظت سـاعـتـهـا أن الدبابات المعـاديـة قـد بدأت تتـحـرك بحـذر.. وربما فى جبن. وهذا زاد من صعوبة الأمر بالنسبـة لى قليلا.. فقد أصبح علىّ أن أتصيد الدبابة بمجرد ظهـورها اذا كـانت قـريبـة من منحنى الطريق.. أو انتظر دخـولهـا المرمى اذا كانت بعيدة. وبدأ يتكشف لى وجود دبابات للعدو داخل (حفر أى «مخندقة» داخل خنادق). وكـان من الصعب اصابة هذه الدبابة اصابةمبـاشرة.. وبقيت انتظر حتى تبدأ فى الحركة ليظهـر جسم الدبابة أمـامى وهى داخل المرمى لأطلق عليها الصـاروخ. واستطعت بذلك أن أصـيب ٩ دبابات أخرى ليكتمل عدد الدبابات التى دمرتها يوم الأحد ٧ اكتوبر ١٨ دبابة معادية.

وكانت سرعة اطلاق سلاحنا على دبابات العدو، والانتقال فى لحظات من دبابة مدمرة الى دبابة أخرى سليمة.. لا يعطينى فرصة للتأمل أو حتى ملاحظة مشاعرى أو تذكرها..

ولكننى أمضيت بعد ذلك فترة طويلة دون أن أشتبك مع دبابات العدو التى لم تعد تقترب من مواقعنا على هذه التبة. وأعطانى ذلك فرصة للتمعن.. كان إحساسى يجمع بين إحساس بالغ بالفخر.. والراحة النفسية مع مزيج من النشوة. ولم تلبث أن تحولت الى شوق متزايد لمزيد من العمل.. وكانت رؤيتنا لنتيجة عملنا فى نفسى لحظة هذا العمل تزيد من حماسنا، لتتحول مع ساعات الهدوء الى حنين بالغ لرؤية دبابات العدو من جديد.. وتدميرها.

ومع سقوط جميع نقط خط بارليف الحصينة، وتقدم قواتنا شرقا وزيادة عمق الأرض المحررة فى سيناء انتقلنا الى موقع جديد لنعد من هناك كمائن لدبابات العدو قرب الحد الامامى لقواتنا. وكان قد بدأ وصول أسلحتنا الثقيلة الى سيناء، وتسلمت موقعى الأول وحدة صواريخ مضادة للدبابات محملة على عربات.. وعندما رأيت عرباتنا المصرية لأول مرة فوق أرض سيناء - بعد أن أمضيت يومين لأأرى فيهما الا دبابات العدو - لم أستطع أن أمنع نفسى من الاتجاه إلى عرباتنا.. وتقبيلها.

وحان موعد لقائنا الجديد بدبابات العدو صباحا يوم ١٠ أكتوبر عندما ظهرت ثلاث دبابات معدية تتجه غربا. وأطلقت أول صاروخ نحو الدبابة التى فى المنتصف.. وأصبتها.. بينما اتجهت الأخريان الى التحرك للخلف بسرعة فى محاولة للهرب وهما تطلقان ستائر الدخان من حولهما حتى لا أتمكن من التنشين عليهما.. ولكننى استطعت أن أوجه سلاحى نحو الدبابة الأولى قبل أن يصبح الدخان من حولها كثيفا فيمنعنى من رؤيتها.. وأصبتها.. ولكن الثالثة استطاعت أن تفرهاربة. وبدأت أحاول الحد من شعورى بالفرح.. فأصبحت أردد لزميلى فى الجفرة جملة واحدة بقيت أرددها حتى عادت دبابات العدو

الى الظهور.. كنت أقول لهما أننا لانستطيع أن نفرح لأننا أصبنا دبابتين من ثلاث.. ان علينا أن نأسف لنجاح الثالثة فى الهروب.. ويقى أحد الزميلين مصرا على اعتبار هذه الكلمات مجرد مزاح..

ولكننى لم أستمر غارقا فى هذا الشعور طويلا.. فقبل أن ينتهى النهار عادت دبابات العدو الى الاقتراب من نقطة اقصر من الأولى وان كانت حركتها تكشف عن احساس بوجود كمين الدبابات المصرى قريبا منها.. وقررت أن أنتظر هذه المرة حتى تقترب أكثر..

وبعد أن أصبحت معظم الدبابات داخل المرمى بدأت فى الاطلاق نحوها جميعا على التوالى..

ولاحظت ساعتها شيئا جديدا.. لقد أصبح تجهيز الصاروخ يتم بسرعة أكثر مما كان يحدث عادة.. ربما كان الخوف من الدبابات المعادية التى اقتربت منا أكثر مما حدث من قبل. أو شعورنا بأن هذه الدبابات ترانا وتوجه أسلحتها نحونا، ربما كان ذلك سببا فى سرعة اعادة التعمير التى لاحظتها حتى أننى طلبت من أحد زميلى أن يعد بالارقام طوال الفترة التى يستغرقها اعادة التعمير واعداد الصاروخ الجديد.. وصح ما توقعته.. لقد اختصر الزمن وقل الوقت بحوالى ٢٥ ثانية.. وبفضل ذلك لم تتمكن أى دبابة أن تصيبنا بينما استطعنا نحن يومها أن نصيب ٦ دبابات تم تدميرها بالكامل.

ولابد أن نستبعد أن اختصار زمن اعداد الصاروخ واعادة التعمير الى هذا الحد الكبير يرجع الى تكرار استخدامنا له طوال الفترة من ٧ أكتوبر حتى ١٠.. اننى لا أوافق على أن هذا هو السبب فقد سبق أن أمضينا سنتين ونصف السنة - ٣٠ شهرا كاملا - نتدرب على هذاالسلاح، ونستخدمه خلال عمليات تدريبية تتم فى جو العمليات الفعلية..

ربما كانت المعنويات.. ورؤية النصر ونتائج عملنا تبدو فى نفس اللحظة.. أو قد يكون الخوف من تسليح دبابات العدو التى تنطلق نحونا.. لست أدرى.

الملاحظة الأخيرة التى استطعت أن أشعر بها منذ أول لقاء مع دبابات العدو - وأكدتها مشاهدتى بعد ذلك - هى أن العدو يتجه الى الهرب عندما يرى دبابة له قد أصيبت.. وحتى اذا لم يهرب فإن مشاعر التردد والخوف والاضطراب تسيطر على كل تصرفاته.. ومازلت أذكر آخر دبابة أصبتها..

ولقد اكتشفت الدبابة موقعى.. ووجهت نحونا النيران.. ولكن فى اضطراب جعل ضرباتها تطيش وتخطئنا فلا تصيبنا. ولكننا لم نخطئها ودمرناها.. ليكتمل عدد الدبابات المعادية التى وفقنى الله فى تدميرها ٢٦ دبابة، وليشرفنى قرار منحى أعلى وسام عسكرى فى مصر وهو وسام نجمة سيناء..

.. وتركت المقاتل «المصرى» وأنا أشعر حقا بأنه يستحق عن جدارة «نجمة سيناء».

الفصل السادس

أبطال المدرعات

ام.٦.. هى أحـدث وأقـوى طـراز من الدبابات الامـريكيـة «باتون»، ولا يفوقها حتى الآن غير طراز معدل منها يحمل اسم م.٧.

وعندما حصلت إسرائيل على هذه الدبابات طراز (أ م) وتم تدريب رجالها على استخدامها، وقاموا بعدة عمليات تدريبية مشتركة بين وحداتهم المدرعة المزودة بهـذه الدبابة وبالتعاون مع السلاح الجوى الاسرائيلى، قالت القيادة الإسرائيلية يومها: إن سلاحها المدرع أصبح أقوى من أن يقهر خاصة أن هذا النوع من الدبابات يناسب ظروف العمليات فى الصحراء.. وليس لدى العرب سوى دبابات سوفيتية من طراز «تى» T، وهى متخلفة وثقيلة بالنسبة للدبابات الاسرائيلية..

ونسى العدو أن السلاح ليس بقيمته..

ولكن السلاح بالرجل الذى وراءه..

وكانت عمليات أكتوبر..

وتفوق السلاح فى يدالعرب..

ودارت أطول وأعنف معارك الدبابات فى التاريخ.. ودمرت مئات الدبابات الاسرائيلية بينما ترك العدو عشرات من دباباته طراز «ام» سليمة، ليقودها رجالنا غنيمة تركها رجال المدرعات الاسرائيلية الذين ادعوا انهم يشكلون أكفأ سلاح مدرع فى تاريخ الحروب..

وقبل أن نتحدث عن معركة الدبابات الرهيبة فى سيناء يجب أن نبدأ بقصة الـ ١٢٠ دبابة الاسرائيلية التى دمرت شرق «القنطرة شرق» بالكامل فى ثلاث دقائق..

والقصة يرويها اللواء حسن أبوسعده الذى أدخل دبابات العدو فى كمين من قواته وأنهى عليه بالكامل ليقع القائد أسيرا بين يدى قواتنا..

بعد أن نجحت قواتنا فى اقتحام خط بارليف، والاستيلاء على كل الدشم الحصينة وتدمير احتياطيات العدو شرق القناة. وأحرزت المفاجأة الاستراتيجية، لجأ العدو الى تنفيذ عملية هجوم مضادة بالمدرعات فى محاولة لتحقيق الاختراق فى القطاع الشمالى من الجبهة والوصول الى الضفة الغربية والقيام بعملية التفاف حول قواتنا هناك..

واختار العدو لذلك أكفأ وحداته المدرعة التى كانت تتمركز فى بير سبع وتضم حوالى ١٢٠ دبابة «باتون ـ أم. ٦٠» الامريكية الشهيرة..

.. وتحرك اللواء الاسرائيلى المدرع يوم ٧ أكتوبر من مكان تمركزه فى بير سبع متجها الى رفح والعريش عبر الطريق الساحلى ليواصل طريقه الى الغرب. واستمر تحركه طوال الليل ليبدأ هجومه المضاد.

ظهر اليوم التالى. وكانت وسائل الاستطلاع المصرية ترصد تحركاته أولا بأول.. استمر العدو فى التقدم بهدف القيام بمهاجمة قوات الجيش الثانى الميدانى فى منطقة القنطرة شرق.

ويقول صاحب الحديث:

«كنت أعلم من خبرتى بالعدو الاسرائيلى وتجاربى معه أنه سوف يقوم بهجوم ثانوى على أحد أجناب قوتى وبهجوم خداعى على الجانب الآخر ثم يوجه ضربته الرئيسية بكل قوته من الامام مباشرة بغرض الاختراق السريع والوصول الى القناة من أقرب طريق. وأيدنى فى تقديرى للموقف خطة التنصت التى جهزتها للاستماع الى محطات العدو اللاسلكية، وتمكن ضابط اشارة الفرقة من التقاط شبكة قائد اللواء الاسرائيلى باللغة العبرية الذى كان قراره أن يقوم بالهجوم من الامام بالقوة الرئيسية مطابقا لاستنتاجى.

وأعطيت أوامرى للرجال بحيث يكون كل فرد منهم خلال عشر دقائق جاهزا فى مكانه. وبمنتهى الحماس احتلوا مواقعهم المحددة لهم فى هيئة كمين للدبابات على شكل حرف «يو» U.

وكانت خطتى أن أسمح للعدو ببعض الاختراق على الحد الامامى لدفاعاتنا، وأشجعه على دخول الكمين بكامل قوته، ثم بعد ذلك أصده فوق صدرى فى العمق باحتياطيات الفرقة، وكنت أعتمد فى ذلك على كتيبة أثق فيها وأعتمد على كفاءة قائدها وهو المقاتل ابراهيم زيدان، وكان واحدا من الاساتذة فى القتال المتلاحم ضد الدبابات. وكان معنى تدمير مدرعات العدو بالكامل، وتوجيه ضربة قاصمة إليه أن نشل تفكيره وأن نجعله يتردد قبل أن يتخذ أى خطوات أخرى، وبدأ العدو يقترب بمدرعاته من خطوطنا الدفاعية، وتحركت قواته بسرعة فى اتجاهنا على أمل أن يحقق اختراقا سريعا، وأن يشن علينا ذلك النوع من الحرب الذى يعرف باسم «حرب الذعر». ولكن العدو أخطأ فى تقديره لأن هذا النوع من الحروب يوجه عادة لقوات مهزومة وليست لقوات منتصرة استطاعت أن تتمتع بالمبادأة وتحقيق المفاجأة.

وقفت فى مركز قيادتى فوق تبة تشرف على مكان المعركة أرقب العدو من خلال الاستريوسكوب المكبر وقد أعددت لكل احتمال عدته.

ودفع قائد اللواء بسرية دبابات فى اتجاه قواتنا على الطريق شمال فرقتى. وقمنا بتدميرها مستخدمين كافة الاسلحة المضادة للدبابات.

ودفع العدو بسرية ثانية فى نفس الاتجاه لتدعيم سريته الأولى ـ ومن نفس فصيلتها ـ وقمنا بالاشتباك معها وتدمير معظم دباباتها مستخدمين الصواريخ الخارقة للدروع. ثم دفع العدو بسرية ثالثة من نفس الكتيبة فى الاتجاه الآخر ناحية كتيبة البطل ابراهيم، وتظاهرت بتجاوبنا مع خطة العدو ودمرت هذه السرية بالكامل عن آخرها بمجرد ظهورها على الأفق، وكان العدو يحاول بذلك لفت أنظارى الى الجانبين، بينما كان ينوى شن هجوم سريع من المنتصف.

وتقدم العدو بسرعة ٤٠ كيلو متر واقتحم الخندق الأول، وداست الدبابات فوق الحفر والخنادق وبها الجنود الابطال.. ولكننى امتنعت عن صد الهجوم عند الحد الامامى لقواتنا، فاندفعت الدبابات تضرب فى كل اتجاه وأنا أضغط على أعصابى أنتظر اللحظة المناسبة.

وعندما أصبحت كل دبابات العدو داخل الكمين المحكم وبين طرفى الحرف U أصدرت أمرى بالاشتباك، فانهالت مئات الصواريخ الخارقة للدروع والمدافع والقواذف المضادة للدبابات على دبابات العدو المحاصرة، تضربها من الجانبين ومن المنتصف فى لحظة واحدة وخرج ابراهيم زيدان برجاله من الحفر المهدمة والخنادق التى داستها الجنازير ـ وهاجم دبابات العدو من الخلف بالقنابل اليدوية المضادة للدبابات، والقواذف الصغيرة، ووجد العدو نفسه محاصرا فى جيب نيران محكم فأخذته المفاجأة. ولم يتمكن من إطلاق طلقة واحدة وخلال ثلاث دقائق تم تدمير جميع دبابات العدو بالكامل.

وتحرك أحد رجالنا ومعه عدد من الجنود ـ ودفعت مفرزة أخرى ميكانيكية ،والمفرزة تشكيل محدود يهدف الى تحقيق هدف معين، وقام هؤلاء الرجال بضرب دبابة هارية من أرض المعركةوالتى كان بداخلها القائد الاسرائيلى.

وأصيبت الدبابة.. وخرج منها قائد مدرعات العدو لتسرع اليه مركبة قيادة اسرائيلية تلتقطه ـ الا أن مجموعة من جنودى كانت بالمرصاد، وبصاروخ واحد صغير حطمت مركبة القيادة الاسرائيلية فقذف القائد نفسه منها ومعه أربعة جنود. وأمرتهم المجموعة بالاستسلام فرفع القائد الاسرائيلى يديه مستسلما وأمر باقى الجنود بالاستسلام أيضا الا أن أحدهم حاول اطلاق رشاشه «العوزى» فالتحمت معه المجموعة بالسلاح الابيض وقتل ثلاثة جنود اسرائيليين واستسلم الرابع ووقع هو وقائده فى الأسر.

وطلب القائد الاسرائيلى مقابلتى فوافقت رغم مشاغلى ورغم أنى لا أقابل الأسرى فلهم ضباط وأماكن خاصة للتعامل معهم واستقبالهم. وجىء به إلىّ. كان خائفا وسألنى عن مصيره، فقلت له إنك ضابط كبير والحرب قد انتهت بالنسبة اليك فأنت الآن أسير حرب. وسوف تعامل حسب اتفاقية جينيف. وحاول يومها أن يقول كلاما كثيرا. ولكن لم يكن لدى الوقت لأستمع اليه فقد كان علىّ أن أرسله فورا الى المكان الذى سيبقى فيه مع مئات الأسرى الآخرين الذين وقعوا فى الاسر.

وبعد هذه المعركة الفريدة فى تاريخ معارك الدبابات بدأت معارك ضارية أخرى بالدبابات على المحور الأوسط من جبهة سيناء ويروى أحد أبطال تطوير الهجوم المصرى فى ١٤ اكتوبر ١٩٧٣ قصة الظروف التى أحاطت بالمعركة.

وظهر من سير أعمال القتال فى المرحلة الأولى الهجومية الاستراتيجية أن العدو يركز جهوده الرئيسية لإيقاف هجوم القوات السورية كأسبقية أولى، وذلك لعوامل عدة يأتى على رأسها قرب القتال هناك من الأراضى الاسرائيلية، الأمر الذى يهدد العمق الاسرائيلى بصورة مباشرة.

وركزت اسرائيل مجهودها الرئيسى. ودفعت جزءا كبيرا من احتياطياتها التعبوية والاستراتيجية صوب الجبهة السورية. واتضح للقيادة المصرية أيضا

أن العدو سوف يكتفى بتثبيت الجبهة المصرية، وذلك بصفة مؤقتة، لحين إيقاف التهديد السورى وتصفيته قبل أن يحول مجهوده الرئيسى صوب الجبهة المصرية. وظهر ذلك جليا من هبوط هجمات العدو المضادة، وصغر حجمها على الجبهة المصرية فى نهاية المرحلة الأولى، وتحول بعض قوات العدو الى تجهيز خطوط دفاعية جديدة الى الشرق من رءوس الكبارى، بعيدا عن قواتنا.

ولإحباط مخطط العدو، قررت القيادة العامة العمل على اجبار العدو على نقل جهوده صوب سيناء، لتخفيف الضغط عن القوات السورية، وليضطر العدو الى هذ المناورة، تقرر التعجيل بقيام القوات المصرية بالضغط شرقا على العدو فى سيناء، مبكرا عما كان مخططا لها من قبل، اذ كان التخطيط العام السابق يقتضى تطوير الهجوم شرقا بعد اتمام انشاء رءوس الكبارى وتحطيم كافة الضربات المضادة.

ولذلك تقرر أن يقوم الجيشان الميدانيان الثانى والثالث بتطوير الهجوم شرقا بجزء من قواتهما، مع استمرار تمسكهما فى نفس الوقت برءوس الكبارى، بواسطة القوات الاصلية التى كانت موجودة هناك منذ بداية العبور وهى الخمس فرق مشاة.

وفى ساعة مبكرة من صباح الخميس ١١ أكتوبر أتمت أجهزة القيادة العامة المصرية تقدير الموقف والتخطيط لتطوير الهجوم شرقا بجزء من القوات المدرعة والميكانيكية، للوصول الى المداخل الغربية لسلسلة المضايق الجبلية.

وتلخصت فكرة العملية فى استخدام مغارز قوية من القوات المدرعة والميكانيكية للسيطرة على شريحة من الأرض يصل عمقها الى ٣٠ كيلو مترا من القناة حتى المداخل الغربية للمضايق والممرات، وأوكل اليها مهمة تدمير قوات العدو الموجودة هناك، وحرمانه من استخدام الطريق العرضى الذى يقع على هذه المسافة. والذى يوفر للعدو حرية الحركة والعمل ضد رءوس الكبارى.

كما كان على تلك المفارز أيضا أن تمنع تدفق قوات العدو من الشرق الى الغرب عبر تلك المضايق والممرات، وذلك تمهيدا لتحقيق المهمة النهائية وفقا للخطة الموضوعة.

ويرى المراقبون فى هذا القرار مخاطر عدة أهمها خروج القوات المصرية من ستر غطاء صواريخ الدفاع الجوى المتمركزة غرب القناة، وتعرضها بالتالى لضربات العدو الجوية التى بدأت تزداد شدة وكثافة ابتداء من ١٠ اكتوبر،

بفضل وصول الدعم الأمريكى لاسرائيل.. كما كانت ضرورة التمسك برءوس الكبارى على الضفة الشرقية لقناة السويس، وعدم اضعاف القوات الرئيسية الموجودة هناك أو فى غرب القناة تشكل ضرورة مهمة لمحافظة القوات المسلحة على اتزانها الاستراتيجى والتعبوى فى هذه المرحلة الحرجة من المعركة.

ولذلك كانت التوجيهات تركز على استخدام مفارز صغيرة الحجم نسبيا، ولكنها ذات قوة نيران كبيرة، وأن تكون من خارج التكوين الاصلى للفرق المشاة الخمس التى عليها أن تستمر فى التمسك برءوس الكبارى.

وهكذا بدأت عمليات الضغط شرقاً بمفارز مدرعة وميكانيكية لتبدأ معركة الدبابات الرهيبة. وفى الساعة ٦١٥ يوم الأحد ١٤ أكتوبر وجهت القوات الجوية ضربة جوية ضد أهداف العدو المهمة فى سيناء، كما تم تنفيذ ضربة بالصواريخ التكتيكية أرض/ أرض ضد مراكز سيطرة العدو، ومحطات الاعاقة الالكترونية.

وفى نفس الدقيقة فتحت نيران أكثر من ٥٠٠ مدفع ميدان متوسط ثقيل وعربة اطلاق صواريخ، واستمرت النيران تنهمر فوق العدو ومواقعه لمدة ١٥ دقيقة لتمهد الطريق أمام القوات المهاجمة وبدأت المفارز المصرية المدرعة والميكانيكية هجومها فى الساعة ٦٣٠ من يوم الاحد ١٤ أكتوبر ١٩٧٣، وكانت

تضم لواء مدرعا وكتيبة ميكانيكية فى اتجاه ممر متلا الجبلى، ولواء ميكانيكيا فى اتجاه مضيق الجدى، ولواءين مدرعين فى اتجاه المحور الأوسط، ولواء مدرعا فى اتجاه المحور الشمالى.

وتقدمت المفارز فى وجه ستارة عنيفة من نيران العدو، ومن أسلحته المضادة للدبابات التى اعتمد فيهاعلى الصواريخ الامريكية الحديثة الصنع والتى وصلت إليه فى الحال ووجه العدو بسرعة الجزء الاعظم من قواته الجويةلاحباط تقدم قواتنا وايقاف هجومها. كما ركز نيران مدفعيته الثقيلةعلى مواقع صواريخ الدفاع الجوى المصرى.

ورغم المقاومة العنيفة للعدو تمكنت هذه القوات المصرية المدرعة والميكانيكية من التوغل داخل تجهيزات العدو لمسافة تتراوح ما بين ١٢ و١٥ كيلو مترا، وأوقعت به خسائر كبيرة، وحررت بعض المواقع، وأثبتت أن التفوق النوعى فى القتال هو فى جانب المقاتل المصرى.

وازدادت ضراوة المعارك حدة على امتداد يوم ١٤ أكتوبر، واتسعت ساحة القتال فاشتملت على شريحة الأرض التى تقع الى الشرق من رءوس كبارى والجيشين الميدانيين. ولمسافة ١٥ ـ ١٨ كيلو مترا شرقا.

ونتيجة تفوق قواتنا أسرع العدو بتحويل جهد قواته الجوية من الجولان الى سيناء، لينقذ الموقف المنهار الذى تعانيه قواته هناك، وفى نفس الوقت ظهرت للقيادة الاتحادية دلائل قوية تشير الى تحريك العدو للجزء الرئيسى من احتياطياته الاستراتيجية وقواته المعبأة.. وخاصة من المدرعات، صوب سيناء مما خفف الضغط كثيرا على الجبهة السورية..

وبمجرد أن تأكدت المعلومات عن تحريك العدو لقوات برية جديدة من عمق اسرائيل صوب القناة، قدرت القيادة العامة المصرية أن تطوير الهجوم شرقا قد حقق أهدافه العامة فى هذه المرحلة، فأصدرت أوامرها بعودة المفارز داخل رءوس الكبارى لإعادة تنظيمها وتقويتها.. مع تعديل أوضاع بعض

القوات وتدعيمها استعدادا لصد وتدمير الهجمات والضربات المضادة القوية المدرعة التي توقعت القيادة المصرية أن يبدأ العدو شنها.

واستمرت مصادر المخابرات والاستطلاع المصرية تتابع تدفق الامدادات الامريكية على اسرائيل، واتضح للقيادة المصرية أن الولايات المتحدة لم تكتف بتعويض اسرائيل عن خسائرها فقط، بل أيدتها بدعم جديد من الأسلحة والمعدات الحديثة وأهمها الدبابات الباتون والصواريخ المضادة للدبابات، وصواريخ الشرايك والقنابل التليفزيونية، ووسائل الشوشرة والإعاقة الالكترونية..

وبعد نجاح القوات المصرية فى تخفيف الضغط عن جبهة سوريا، واجبار العدو على تحويل مجهوده الجوى الرئيسى الى الجبهة المصرية، وظهور بوادر انتقال اهتمام العدو من الجولان الى سيناء، قررت القيادةتدعيم رءوس الكبارى وتقويتها لتصبح صخرة تتحطم عليها أمواج دبابات العدو التى يدفعها فى هجمات وضربات مضادة قوية طوال يوم ١٥ اكتوبر. وحشد العدو فى مواجهة رءوس الكبارى حوالى ٩ ألوية منها ٦ ألوية مدرعة وبعض الكتائب المستقلة من المشاة والدبابات والأسلحة الأخرى، بالإضافة الى احتياطياته التعبوية والاستراتيجية وقواته الجديدة التى استمر فى تشكيلها فى الخلف، والتى شملت لواءين مدرعين ولواءين ميكانيكيين ولواءمظلات.

وركز العدو هجماته وضرباته المضادة القوية ضد رءوس الكبارى على طول المواجهة. ووجه جهوده الرئيسية بصفة خاصة ضد الجانب الايمن للجيش الميدانى هو اللواء الأيمن للفرقة السادسة عشرة مشاة.

واستمر العدو فى شن الهجمات والضربات المضادة ضد هذا اللواء، ويلقى بقوات جديدة الى المعركة مستغلاً فيض الاسلحة الامريكية التى أصبحت تصل الى العريش بدلا من ميناء حيفا توفيرا للوقت، فأمكنه أن يدفع أربعة

ألوية مدرعة جديدة لتعويض الخسائر الفادحة التى منى بها أثناء ضرباته المضادة ضد ذلك القطاع الضيق من خط الجبهة.

دفع العدو فى هذه المرحلة بحوالى ١٢٠٠ دبابة، هاجمت معظمها القطاع الأيمن للجيش الثانى الميدانى، وتحطم خلال هذا القتال العنيف جزء كبير منها. ولكن العدو تمكن خلال نفس الفترة من ستر عبور بعض القوات الصغيرة، وهى تضم حوالى سرية مشاة ميكانيكية وسرية دبابات برمائية، عبرت الطرف الشمالى للبحيرات المرة عند مطار الدفرسوار المهجور، مستغلا ظلام الليل لتحقيق كسب معنوى يغطى به آثار الأعمال الحربية المجيدة للقوات المسلحة المصرية والسورية، وليرفع من المعنويات الإسرائيلية المنهارة.

وسنتعرض لذلك فى فصل آخر.

الفصل السابع

أبطال الصواريخ

« إن السلاح الجوى الاسرائيلى يتآكل » ..

كانت هذه الكلمات التى تتردد فى اجتماعات القيادة الاسرائيلية طوال الاسبوع الأول للقتال..

وكان وراء ذلك رجال الدفاع الجوى الذين قاموا بدور رئيسى فى كل موقع من مواقع القتال على امتداد الجبهة.. ووراء خط النار فى عمق مصر وحول مطاراتها وقواعدها الجوية وأهدافها الحيوية..

واستطاعت أسلحة الدفاع الجوى المصرى أن تغير أبعادا كثيرة، وأن تصنع مناخا عسكريا جديدا فى المنطقة. امتد أثره الى كل موقع وكل رجل.. بل وشملت آثاره رجل الشارع فى اسرائيل.

وأريد هنا أن أبدأ بقصتى التى أصارع الخجل وأنا أرويها كان ذلك فى اليوم الرابع للقتال.. وكنت أعبر قناة السويس من ضفتها الغربية الى ضفتها الشرقية داخل قارب من المطاط يتجه الى مدينة القنطرة شرق بعد أن حررتها قواتنا بساعات قليلة.. وفى وسط المياه ونحن جميعا ندفع الزورق بمجاديفه القصيرة مرقت فوقنا مباشرة طائرة فانتوم متجهة من الشمال الى الجنوب على ارتفاع منخفض جدا..

ونظرت لمن أنا معهم فى القارب.. وتوقفت ذراعى عن التجديف.. ولم يلاحظ أحد خوفى، بينما بادرنى أحد الرجال قائلاً: «حظك كويس.. الغارات رجعت وحتشوف الفانتوم وهى بتقع ولم أشاهد شيئا.. ولكننى سمعت من بعيد أسلحتنا المضادة للطائرات وهى تنطلق..

وعادت طائرات أخرى معادية بعد وصولنا الضفة الشرقية بثوان.. وكان كل تشكيل يضم طائرتين معاديتين فقط.. واتجهت الى جدار مبنى جمرك القنطرة شرق أنبطح بجواره، لاحتمى من غارات العدو الجوية.. وجاء من يرفعنى من الأرض، وكان صف ضابط من الخدمات الطبية.. وقال لى وهو يبتسم «خلاص.. معدناش بنخاف من الطيارات» ورأيت كل من حولى يقف متتبعا خط سير الطائرات.. وكأنه ينتظر مشهدا لا يريد أن يفوته.. وقررت لحظتها أن أفعل مثلهم لأموت واقفا بدلا من أن أرى مرة أخرى هذه الابتسامة التى يقابل بها خوفى من الطائرات.

ثم كان المشهد الذى لن أنساه..

وانطلق سهم من الدخان يقوده شىء لامع جاء من وسط الأرض شرق مدينة «القنطرة شرق» مخترقا السماء ليتحول فى ثوان إلى كتلة من النيران ذات الألوان الزاهية.. وتصافح من حولى وهم يبتسمون.. وبادرنى رجل الخدمات الطبية قائلا:

«.. شفت ازاى بنفجر الطياره فى الجو..» وعرفت لحظتها.. لماذا لم يعد الرجال يخافون الطائرات؟!.. وعرفت أيضا ماذا يعنى ذلك؟!.. وأيقنت منذ تلك اللحظة أننا انتصرنا.

وترجع أهمية ذلك الذى قامت به الى اعتماد العدو الاسرائيلى منذ البداية على سلاحه الجوى خاصة فى احداث الاثر النفسى وهو أكثر ما يميز أسلحة الجو عن باقى الاسلحة فاستخدام الطائرات بكثافة وكفاءة ضد القوات البرية تكمن خطورته فى آثاره النفسية أكثر منها فى قوته التدميرية.. وبالإضافة الى

ذلك فإن العقيدة العسكرية الاسرائيلية تعتمد بصورة رئيسية على القوات الجوية فى مختلف مجالات العمل العسكرى.. وحتى فى توجيه وتصحيح ضربات المدفعية تعتمد اسرائيل على الطائرات المروحية أو الهليوكبتر. وبقيت إسرائيل متخلفة كثيرا فى سلاحها البحرى على مدى ربع القرن معتمدة على سلاحها الجوى الذى تستطيع استخدامه ضد الاهداف البحرية وليعوضها عن تفوق القوات البحرية المصرية.

وكان لطبيعة مسرح العمليات المتوقعة أهميته حيث تنحصر أرض القتال فى المناطق الصحراوية من صحراء النقب الى صحراء سيناء وهذا يفتح مجالات العمل المؤثر للأسلحة الجوية خاصة فى مجال تقديم المعاونة للقوات الارضية والعمل ضد قوات مكشوفة فى أرض صحراوية مما يزيد من الآثار التدميرية للأسلحة الجوية ويضاعف من الأثر النفسى وهذا هو الأهم.

ومن هنا نستطيع أن نفهم خطورة الدورالذى قامت به قوات الدفاع الجوى، ثم الأهمية الخاصة لتلك التى أنهت العامل النفسى لعمليات العدو الجوية.. بل واخذت المبادرة وانعكست الآثار النفسية لعملياتها على طيارى العدو الذين لجأوا الى القاء حمولاتهم بعيدا عن الاهداف وفروا من سماء المعركة حتى لا يصابوا.

وإذا كان هذا كله من أبرز ما حققه رجال الدفاع الجوى، فانه فى الواقع ليس كل شيء.. ومن الصعب أن يلم الكاتب بجميع إنجازات قوات الدفاع الجوى التى برزت منذ سنة ١٩٧٠ عندما أقامت حائط الصواريخ وتحركت به من أعماقنا ليمتد حتى خط المواجهة على طول جبهة القناة، وليحقق انتصارا كبيرا للوسائل الارضية على الطائرات الاسرائيلية..

ومنذ الساعة الأولى للعبور - عندما حاول العدو توجيه أول ضرباته الجوية المضادة - أسقط الدفاع الجوى المصرى (١١) احدى عشرة طائرة اسرائيلية وارتفع هذا العدد الى ١٣ طائرة بعد ٤٠ دقيقة مما اضطر الجنرال بنيامين بليد قائد القوات الجوية الاسرائيلية الى اتخاذ قراره بمنع طياريه من الاقتراب

لأقل من ١٥ كيلو مترا شرق قناة السويس الى أن يعرف ما هذا الذى يحدث لطائراته، ووجه القائد الإسرائيلى اشارة لا سلكية الى جميع القواعد والطيارين وتمكنت أجهزتنا من التقاط هذه الإشارة..

وفى الساعة ٢١١٥ من اليوم الأول للمعركة - أى التاسعة والربع مساء كان دفاعنا الجوى قد أسقط للعدو ٢٧ طائرة..

ومنذ سنة ١٩٧٠ بعد إقامة حائط الصواريخ المصرى اكتسبت أجهزة الدفاع الجوى شهرة عالمية عبر عنها أحد الدبلوماسيين الانجليز فى القاهرة بقوله: إن أجهزة الدفاع الجوى المصرى قوية وحساسة ولذلك فإننا نهتم جدا بتوضيح خط سير طائراتنا فى سماء مصر لهذا الجهاز الحساس..

وهذا ما دفع السفارة البريطانية فى القاهرة الى الاتصال بالعسكريين المصريين لتبحث معهم خط سير الطائرة التى تحمل الاميرة الانجليزية مارجريت أثناء زيارتها لمصر.. والقصة يرويها العقيد طيار على زيكو. كان ذلك يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

وقبيل بدء المعركة بلحظات..

.. والمستر بارنيكوت الملحق الجوى البريطانى فى القاهرة قد طلب الاجتماع مع مدير المخابرات الجوية ليدرس معه خريطة تحركات الاميرة مارجريت فى القاهرة، وقيام احدى الطائرات البريطانية برحلة تجريبية الى مصر يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣.

ورأى الملحق البريطانى أنه من الضرورى أن يدرس مع المسئولين خريطة هذه الرحلة التجريبية على الفور قبل قيام الطائرة من روما. واقترح الملحق البريطانى أن يحضر الى مبنى المخابرات الحربية الساعة الواحدة ظهر يوم السبت ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .. ليعرض على المسئولين وعلى مدير المخابرات الجوية خريطة تحركات الطائرات البريطانية التى قامت بالفعل من لندن وهبطت فى روما فى طريقها الى مصر.

وكان الموقف دقيقا.. ووضع الأمر أمام مدير المخابرات الحربية الذى أمر بأن تتم المقابلة فى الموعد المحدد وبحضور الأشخاص المفروض حضورهم، وأن يمنح الملحق البريطانى تصريحا بدخول الطائرة الى الأجواء المصرية (باكر ٧ أكتوبر ١٩٧٣) ما لم تصدر تعليمات أخرى خلال الاجتماع..

وفى الساعة الواحدة - قبل بداية الحرب الرابعة بساعة واحدة - كان الملحق الجوى البريطانى يجلس فى صالون بإدراة المخابرات الحربية ومعه المسئول عن المخابرات الجوية المصرية والمسئول عن الملحقين العسكريين الاجانب بالقاهرة وأمامهم خرائط وخط سير الطائرة البريطانية التى أقلعت من مطار هيثرو فى لندن واتجهت الى روما فى طريقها الى القاهرة لإجراء رحلة تجريبية لرحلة الأميرة مارجريت، وطلب الملحق أن تسمح القوات الجوية المصرية لأحد ممثليها بمرافقة الطائرة فى رحلتها التجريبية داخل مصر الى أماكن هبوطها عبر خط سيرها وتنقلها. وأدخلت بعض التعديلات الفنية لتوفر المزيد من الراحة لسمو الأميرة مارجريت ثم تمت الموافقة على الشكل النهائى للرحلة، وعلى التصريح للطائرة بدخول الأجواء المصرية يوم ٧ أكتوبر..

ثم دق جرى التليفون..

وأجاب عنه مسئول المخابرات الجوية..

وطلب من الملحق البريطانى تأجيل رحلة الطائرة البريطانية لأن أجواء مصر - من الآن - محظور دخولها لجميع الطائرات المدنية والأجنبية حرصا على سلامتها..

وغادر الملحق البريطانى مبنى المخابرات الحربية وقد بدا عليه أنه بدأ يفهم..

وفى الاسماعيلية خلال الاسبوع الأول من القتال التقيت مع عدد من المراسلين الأجانب. ووقفت أستمع الى انطباعات أحدهم وهو من مراسلى مجلة نيوزويك الامريكية. وكانت أهمية انطباعه ترجع الى أنه سيضمنها -

بالضرورة - تقريره الى مجلته. وبالتالى نستطيع أن نعرف ماذا سيقرأ العالم عن معركتنا؟..

وقال مراسل النيوزويك إن النجاح الذى حققته وسائل الدفاع الجوى المصرى انعكست آثاره على جميع الاسلحة والوحدات الأخرى.. وضرب مثلا بالمدفعية المصرية التى تتفوق أساسا على المدفعية الاسرائيلية من حيث عدد البطاريات ومدى المدافع الا أن اسرائيل تقابل ذلك باعتمادها على معاونة الطيران الاسرائيلى فى تقديم المساعدة، وعلى أن طائرات الهجوم الارضى طراز «ميراج» و«سكاى هوك» قادرة على ضرب بطاريات المدفعية المصرية وقال: إن المدفعية الاسرائيلية تعتمد على طائرات الهليوكبتر والطائرات الخفيفة فى رصد ضرباتها وتوجيه نيرانها (أى تصحيح ضربات المدفعية) ولكن الصواريخ المصرية - والكلام لمراسل المجلة الامريكية - استطاعت أن تسقط طائرات الرصد أو تمنعها من الاقتراب مما أدى الى سقوط قذائف المدفعية الاسرائيلية فى مياه القناة بعيدا عن نقطة العبور ومواقع الجسور لما لا يقل عن ٢٠٠ متر أو تزيد.

وعن هذا السلاح قال المراسل الأجنبى:

- ان اسرائيل كانت تتوقع الاصطدام بشبكة الصواريخ المصرية من طراز «سام ٢» و«سام ٣»، وبعض صواريخ «سام ٦»، ولكنها لم تكن قد تعاملت من قبل مع صواريخ «سام ٦» - الحية، ولا تعرف مدى إصابتها.. ولكنها تعتمد على خبرات حرب الاستنزاف وعلى الأجهزة الالكترونية القادرة على تشويش الصواريخ سام ٢، وسام ٣.. ولهذا اندفعت اسرائيل فى البداية لتصطدم طائراتها بالصواريخ الجديدة التى لا تؤثر فيها أجهزة التشويش الاسرائيلية مما أدى إلى سقوط عدد كبير من الطائرات فوق القناة..

ومن خلال ما شاهدته طوال معارك الاحتفاظ بالجسور المصرية - والكلمات مازالت لمراسل المجلة الامريكية - فإنه فى تقديرى أن ثلاث طائرات من كل

خمس طائرات اسرائيلية تسقط فور اقترابها من قناة السويس، وان الطائرات التى لم تسقط اضطرت إلى إلقاء قنابلها بعيدا عن أهدافها.

وقلت لزميلنا الأجنبى إن ذلك له مدلول خاص بالنسبة للمقاتل المصرى وهو ما يهمنا فى رد ما حاول العدو أن يلصقه به.

ان هذه الصواريخ ـ أو تلك الحية ـ يوجهها ويطلقها فرد.. أو مقاتل واحد، ويقف ويواجه الطائرة بهذا الصاروخ الصغير مستخدما ومستعينا بأحدث الوسائل التكنولوجية المتطورة والمعقدة، وها هو يحقق ما تراه وتشهد به.. أنه الرجل خلف السلاح، والسلاح بدون الرجل لا يصنع شيئا..

وبعد أن انتهى حديثى مع مراسل المجلة الأمريكية.. ترددت فى أذنى كلمات كنت لا أعرف اننى أذكرها أو أحفظها.. انها كلمات قالها أنور السادات قبل المعركة بشهور طويلة عن تفوق العدو فى الأجهزة الالكترونية، ويومها قال: «قبل ما أحارب لازم ادى المقاتل المصرى الالكترون فى ايده». ورغم ما فى هذا التعبير من بساطة الا أنه يتضمن معانى عميقة جدا.. شعرت بها عندما رأيتها تحمل وتنطلق.. وشعرت أننى أرى بالفعل الالكترون فى يد المقاتل المصرى..

واذا كان المقاتل المصرى باستيعابه للأسلحة المتطورة قد حطم طائرات العدو، فإنه ـ وهذا هو الأهم والأخطر ـ حطم جدار الخوف وبلاشت كل الآثار النفسية لاسلحة العدو الجوية.

وهناك قصة تجسد كل هذه الحقائق دارت وقائعها شرق القناة فى موقع «كبريت» الذى هاجمته طائرات العدو بعد أن استولت عليه قواتنا فتصدت لها الصواريخ تدمرها وتدمر معها كل أثر نفسى لغارات العدو المجنونة، مما انعكس بعد ذلك على معنويات الرجال الذين حاصرهم العدو فى الموقع فصمدوا داخل جزيرتهم التى حوصرت.. وبقوا متماسكين إلى أن تم انسحاب العدو من حولهم.

وقصة موقع كبريت يرويها اللواء أحمد بدوى قائد الجيش الثالث الميدانى.

حررت قواتنا موقع كبريت شرق.. وتمركز فيه عدد من رجالنا وخلال المعارك تسربت القوات الاسرائيلية التى دخلت من الثغرة وأحاطت بالموقع من كل جانب حتى أصبح كجزيرة محاطة بالقوات الاسرائيلية. وكانت قواتنا داخل الموقع تضم حوالى ٢٠٠ جندى هاجمتهم القوات الاسرائيلية بأعداد كبيرة مدعمة بحوالى ٤٠ دبابة ونيران المدفعية وضربات شديدة من الطائرات التى كانت تلقى قنابل زنة ألف رطل.

ورفض الرجال أن يفكروا فى الاستسلام. ودافعوا عن الموقع وتصدوا لطائرات العدو وغاراته الجوية. ودمروا عددا من طائراته ودباباته وأنزلوا به خسائر فى أفراده تزيد على خسائرهم.

وعرض العدو على قوات هذا الموقع أن تخرج دون سلاحها وتنضم الى القوات المصرية.. ورفض الرجال. وعاد العدو يعرض عليهم أن يخرجوا من الموقع بأسلحتهم وينضموا الى القوات المصرية دون أن يتعرض لهم أحد.. ورفضوا. وطلب العدو منهم أن يعلنوا الشروط التى يرونها لإخلاء الموقع، فرفض الرجال أن يبحثوا فكرة الانسحاب من موقعهم.. وقال قائدهم المقاتل عبدالتواب: ان هذا الموقع لن يسلم إلا على جثثنا.

وكان أحد الرجال وهو المقاتل عصام، يخرج باللنشات فى رحلة يومية أطلقت عليها اسرائيل اسم «رحلات الموت»، ليقوم بتزويد الموقع بمواد التموين تحت نيران القصف الجوى المعادى.. ورغم صعوبة الظروف تم إمداد هذا الموقع بكل ما كان يحتاج إليه من المؤن والذخيرة ليظل صامداً.. ليبقى المقاتل عصام قائد رحلات الموت.. حيا حتى الآن..

الفصل الثامن

رواد الصواريخ البحرية

هناك علاقة من نوع ما بين رجال البحرية وشهر أكتوبر الذى شهد دائما انتصارات بحرية مصرية سجلها تاريخ الحرب باعتبارها عمليات تتم لأول مرة.

كان رجال الاسطول المصرى هم أول من استخدم الصواريخ البحرية فى العالم وأول من أغرق بها قطعة بحرية كبيرة عندما انطلقت صواريخ البحرية المصرية فى أكتوبر ١٩٦٧ لتصيب وتغرق أكبر قطع الاسطول الاسرائيلى وهى المدمرة إيلات..

وسجلت موسوعات البحرية - منذ يناير ١٩٦٨ - أن تشكيلا مصريا بقيادة المقاتل أحمد شاكر أغرق مدمرة كبيرة بصاروخ بحرى لأول مرة فى التاريخ.

وخلال معارك اكتوبر كان رجال البحرية المصرية هم أبطال أول معركة تصادمية بالصواريخ فى التاريخ، حيث اشتبك نفس تشكيل الصواريخ البحرية الذى أغرق ايلات (فى اكتوبر ٦٧) فى معركة بحرية مع زوارق العدو من طراز «سعر» التى كان العدو يطنطن لها كثيراً..

وكانت هذه المعركة أيضاً فى أكتوبر، ولكن لم يكن تشكيل الصواريخ البحرية هذه المرة بقيادة أحمد شاكر الذى توفى قبل معركة العبور إثر إصابته

بمرض خبيث عجز الطب فى مصر وفى الخارج عن علاجه. وشاء الله أن يموت بطل أول معركة صواريخ بحرية فى العالم وهو على سريره، وليعيد إلى الاذهان كلمات خالد بن الوليد الذى خاض مئات المعارك وأصيب عشرات المرات.. وعندما حضره الموت قال «ها أنا أموت على فراشي.. فلا نامت أعين الجبناء...».

والتقيت ببطل الصواريخ البحرية..

وعلى مكتبه هناك برقية من وزير الحربية كان قد تلقاها خلال المعركة.. وتقول البرقية على لسان الوزير:

«باسم قواتنا المسلحة التى تتقدم على طريق النصر لتحرير أرضنا المغتصبة وباسمى أقدم لك ولكل فرد من أفراد قوة لواء لنشات الصواريخ خالص شكرى وتقديرى للبطولة التى حققتموها فى مواجهة العدو».

ويروى المقاتل توفيق جاد قصة هذه البرقية ليروى معها قصة مهاجمة قاعدة العدو فى «رأس برون» وقصة أول معركة تصادمية بالصواريخ البحرية فى التاريخ.

بدأنا فى التخطيط للعمليات طبقا للمهام التى كلف بها التشكيل من قيادة القوات البحرية، وكانت مهمتنا الرئيسية هى مساندة جانب القوات البرية المتقدمة على الساحل وحماية جانبها الأيسر من ناحية البحر ضد ضربات العدو. وكان علينا أن نواجه وحدات الصواريخ البحرية للعدو، ولنخوض معركة تصادمية نستخدم فيها صواريخنا ويستخدم فيها العدو صواريخه وأساليبه حتى نستطيع أن نتبين قدرتنا وقدرة صواريخنا وتشكيلاتنا على تدمير هذه الوحدات وبالنسبة لكل مهمة كان هناك اسم كودى لها..

وفى العاشر من رمضان، تلقينا الاسم الكودى لاحدى العمليات وكان «صيام» وهذه العملية هى مساندة جانب الجيش فى ساحل البحر الابيض المتوسط وتدمير بعض وحدات العدو فى منطقة «رأس برون» وهى قريبة من مشارف العريش.

وخرجنا بعد غروب يوم ٦ أكتوبر ونحن نسعى خلال عملية تأمين ضرب الساحل إلى إدخال (أوجر) العدو فى معركة بحرية لم يكن مستعدا لها، ووصلنا بعد منتصف الليل الى قرب مشارف العريش. عندما بدأ قذف الصواريخ على الساحل لم تمكن العدو من اكتشافنا وتمكنا من تحقيق مهمة قذف الساحل بكفاءة تامة ورأينا التدمير الذى حدث نتيجة قدف الصواريخ وتمكن العدو بعد العودة من اكتشافنا نتيجة قيامنا بضرب ساحل سيناء وبدأ يحول النهار الى ظلام ويرمى المشاعل المضيئة،

وبدأت القاذفات المقاتلة والهليوكبتر تهاجم وحدات التشكيل، وتمكن أحد المقاتلين من رؤية احدى طائرات الهليكوبتر وهى تحاول الاقتراب من الوحدة وتصيبها بصواريخها، فقام تلقائيا بتوجيه مدفعه وتدمير هذه الطائرة، وكان أن انسحبت باقى الطائرات على الفور.

وبدأت القاذفات المقاتلة فى مهاجمة الوحدات بالقنابل والرشاشات، ولكن بفضل الكفاءة التى كان يتمتع بها القادة على كافة المستويات، تمكنوا فعلا من تفادى الهجوم الجوى، وتفادى القنابل التى كانت تسقط على مسافة أمتار من الوحدات.. ومن المعروف أن سقوط القنبلة على مسافة أمتار من اللنش ـ أى لنش ـ يتسبب فى تمزيق جسم اللنش وهو ما يعرف باسم «البدن» مما يؤدى الى اغراق اللنش فى دقائق..

ولكن والحمد لله لم تسقط قنابل العدو عند المسافة التى تؤثر فيها على البدن أو تمزقه، وكان ذلك بالطبع نتيجة تصدى الأسلحة المضادة للطائرات فوق اللنش لهذا الهجوم المعادى، وإسقاط إحدى طائرات العدو مما أجبر الطائرات المعادية على القاء حمولاتها على مسافة بعيدة نسبيا عن الوحدات..

ولكن.. ونتيجة الكفاءة العالية لأطقم اللنشات فقد تمكنوا فى دقائق معدودة من إصلاح الأعطال التى نتجت عن قصف طائرات العدو.. ليواصلوا المعركة بكفاءة تامة..

ورأينا بعض قادة الوحدات وضباطها يتسلقون أعلى صارى اللنش ليشتركوا فى اعادة تشغيل الاجهزة المعطلة.. رغم أن ظروف البحر يومها لم تكن تسمح بذلك، واستطاعت جميع الوحدات أن تعود الى القاعدة الرئيسية فى الاسكندرية بسلام بعد أن حققت مهمتها الأولى بنجاح تام..

وتلقت هذه الوحدات معلومات من وحدات الاستطلاع، وبناء على هذه المعلومات خرجت لنشات الصواريخ من بور سعيد حيث رصدت الاهداف المعادية وفاجأتها بتوجيه ضربات صاروخية إليها.. وتم تدمير احدى وحدات العدو وأجبرت باقى الوحدات على الانسحاب.

وحاول العدو فى هذا اليوم أن يتدخل، ولكنه لم يتمكن من اكتشاف مكان وحداتنا وذلك بفضل كفاءة قائد التشكيل الذى استطاع أن يدخل بسرعة الى داخل نطاق الصواريخ المضادة للطائرات والتى تعمل فى قطاع بورسعيد، مما منع طائرات العدو من الاقتراب أو الوصول الى هدفها.

وبذلك تكون المعركة الثانية لهذا اللواء هى معركة بور سعيد البحرية فى ٧ أكتوبر ١٩٧٣.

وبالنسبة للمعركة الصاروخية الأولى فى التاريخ.. وهى المعركة التصادمية بين وحدات الصواريخ المصرية ووحدات الصواريخ المعادية.. فقد تمت ٨ ـ ٩ أكتوبر ١٩٧٣.

كانت كل الشواهد تدل على أن العدو يخطط لعملية هجومية على سواحل بورسعيد، حيث قام بتركيز ضرباته الجوية على بورسعيد بالاضافة الى تركيزه الشديد على قطع طريق بور سعيد - دمياط.

وقررت القوات البحرية بناء على ذلك ـ وبناء على مصادر المعلومات الأخرى ـ أن هناك عملية معادية ستتم على ساحل بورسعيد، وكان المتوقع أن تشترك فيها وحدات الصواريخ المعادية.

وكـان لنا بعض وحـدات فى الاسكندرية، ووحـدات أخرى فى بورسـعيد. ولكننا لم نكن نعتمد كل الاعتماد على استخدام القواعد الثابتة، بل كانت هناك فكرة الانطلاق الى عملياتنا من مركـز الحركـة.. أى من وسط البـحـر حـيث نتمركز هناك وحداتنا وسط مياه المتوسط.

وبصرف النظر عن وجود العدو فى المنطقة، أو توافر معلومات عن قطعه ووحداته، فقد كـانت وحداتنا تنطلق الى البحر لتكون قريبـة جدا من مسرح العمليات، وهذا المسرح يمتد من دمياط الى بور سعيد ـ البرلس وحتى رشيد ـ وتظل وحداتنا هناك.. وبمجرد أن تتلقى الأوامر لاسلكياً عن وجود العدو، فى منطقة معينة، تنطلق هذه الوحدات لتخوض المعركـة على الفور، طبقا للهدف المكلفة به.

وفى ذلك اليوم انطلقنا الى خارج البحر بناء على تقديرات أولية عن قيام العدو بعملية هجومية ضد بور سعيد. وقامت وحداتنا الصاروخيـة بالوجود فى المنطقة من رشيد حتى البرلس، فى انتظار صدور الأوامر بوجود أى وحدات معادية.

وكانت تتوالى التوجيهات من قيادة القوات البحرية الى التشكيل وتلقينا أوامـر بالعودة الى الاسكندرية.. وفـى هذه اللحظة.. وخلال دقـائق اكـتـشـفنا وجود العدو فى المنطقة. ولم يكن من الممكن أن تعود وحداتنا بعد أن اكتشفت وجود العدو. ومهما كان مقدار ذلك الحشد الذى أعده.

وتمكنا من رصد أهداف العدو ومعرفة عددها ومعرفة تشكيلها ولم تمض دقائق حتى تلقينا الاوامر بتوجيه الصواريخ الى وحدات العدو.. وكانت الأوامر تحدد لكل صاروخ هدفه..

وفى دقائق..

انطلقت الصـواريخ من كل الوحـدات فى وقت واحـد.. وتمكن التـشكيل المصرى من تدمير خمس وحدات للعدو بالكامل وإغراقها، وعرفنا بعد ذلك أن

العدو عندما حاول الانسحاب من المنطقة وأخطر قيادته بطلبه الانسحاب بسرعة، أخطرته قيادته بأن التعزيزات فى طريقها اليه، وصعب عليها أن تفقد فى معركة واحدة وخلال دقائق معدودة خمس لنشات من ذلك الطراز الذى أحاطته الدعاية الاسرائيلية بهالة كبيرة وهو طراز «سعر».

وعرفنا بعد دقائق أن هذه التدعيمات التى وعد بها العدو وحداته كانت الطائرات.

وبعد قيامنا بمهمتنا، ونجاحنا فى تدمير وحدات العدو، واتجهنا الى الخروج من منطقة العمليات حتى لا نعطى العدو فرصة مهاجمة وحداتنا أو تعرضها لغاراته الجوية..

ولكننا فوجئنا بالصواريخ تطلقها طائرات العدو أمام لنشات تشكيلنا.. وكان خلف كل لنش من لنشاتنا طائرة هليوكبتر وقد حاولنا بالفعل ان نوجه اسلحتنا إلى طائرات العدو ولكن انطلقت الصواريخ من طائراته بغزارة بحيث لم تعط فرصة لأى وحدة من وحداتنا أن تنطلق بسرعتها الكاملة.

وحاولنا أن نتفادى صواريخ الهليوكبتر بصرف النظر عن سرعة الخروج من المنطقة.. وبالفعل تمكنت جميع وحداتنا من تفادى صواريخ العدو، ولم تتمكن طائراته الهليوكبتر من تدمير أى وحدة لنا.. ولكن بالطبع أصيبت بعض الوحدات بصواريخ الهليوكبتر، وهنا تظهر لمحات انسانية لافراد اطقم الصواريخ البحرية التى لا تفرق بين الفرد والضابط.. بل يشكل جميع أفراد الطاقم وحدة واحدة متكاملة.

ولأن الإصابة تقع دائما على الوحدة كلها وتترك أثرها على الجميع.. فى عرض البحر، لذلك نجد صورة رائعة للترابط بين جميع أفراد الأطقم لا تتكرر فى أى وحدة غير بحرية بهذه الصورة الفريدة.

فالوحدة البحرية تتمتع بميزة الترابط الكامل بين جميع الأفراد.

وهذه القصة تصور هذا المعنى..

فعندما أصيبت بعض وحداتنا غادرها أفرادها حتى يتم وصول وحدة لسحبها إلى الميناء.. ولاحظ ضابط الوحدة المصابة أن أحد جنوده غادر اللنش دون حزام النجاة الخاص به.. ولاحظ أن هذا الفرد مجهد.. وضعيف البنية نسبيا، فما كان من القائد الا أن خلع حزام النجاة من حول جسمه ليتركه لهذا الفرد وظل يعاونه حتى وصل إلى وحدة الانقاذ.

وكانت لمحة انسانية من بين لمحات عديدة تدل على أن تشكيلنا أعطى المثل على روعة التلاحم بين الضابط والفرد.

وهكذا انتهت أول معركة تصادمية بالصواريخ البحرية فى التاريخ وتمكنا فيها من تحقيق الهدف وإحراز النصر..

وهناك ملحمة أخرى من ملاحم لواء الصواريخ جرت يوم ١٥ ـ ١٦ أكتوبر، وتمكنا خلال ذلك اليوم من اعداد كمين لوحدات العدو التى اقتربت من منطقة البرلس ـ رشيد، كانت وحداتنا قد تمكنت من الخروج من الميناء فى تشكيل سير بطيء لتبدو كأنها وحدات صيد صغيرة.. ثم فوجيء العدو بالصواريخ المصرية تنطبق لتصيب وحداته.. وكان إطلاق الصواريخ بسرعة مفاجأة حالت دون نجاح العدو فى الانسحاب من المنطقة واستطعنا أن نصيب يومها وحدتين للعدو تم إغراقهما، كما أصبنا وحدة ثالثة للعدو لم تتمكن من الحركة الى أن قامت قواتنا الجوية بعد ذلك بضربها جوا وإغراقها دون أن يتمكن العدو من سحبها.

وفى ذلك اليوم أصيبت وحدة مصرية عندما كانت تطلق صواريخها على العدو، مما أدى الى اشتعال النيران فى اللنش عند انطلاق أول صاروخ منه، ولكن.. ونتيجة إصرار قائد الوحدة، ونتيجة كفاءة أفراد الطاقم واصرارهم على تحقيق هدفهم رغم كل إصابة فقد أصدر قائد الوحدة أوامره بإصلاح الأعطال وإطفاء النيران على الفور، ليعود مرة أخرى إلى إطلاق صواريخه رغم ما فى

ذلك من خطورة بالغة.. واستطاع الرجال أن يسيطروا على الحريق وأن ينقذوا وحدتهم، بل ويطلقوا صواريخهم على العدو.. كما تمكنوا من العودة الى القاعدة بمظهر مشرف يعتز به كل الرجال..

وبفضل كفاءة وحدات الاصلاح بالقوات البحرية.. التى أعطاها الحماس طاقة تفوق كل وصف، تمكن الرجال من إصلاح الأعطال بهذه الوحدة واستعادة كفاءتها فى وقت قياسى رغم أن جزءا منها كان قد دمر.

ويروى البطل حسين قصة معركة بورسعيد البحرية يوم ٧ أكتوبر.. كانت أجهزة الاستطلاع فى قاعدة بورسعيد قد رصدت نشاطا غير عادى للعدو البحرى فى المنطقة خلال هذا اليوم، وكانت هناك وحدات للعدو تقترب من المنطقة شمال بور سعيد بهدف امداد النقطة الحصينة للعدو على الساحل الشمالى لسيناء.. شرق بور فؤاد.

وكلفت كقائد للتشكيل بالخروج والمرور والاكتشاف.. وتدمير أى وحدات للعدو تقترب من هذه النقط..

وبمجرد خروجنا اكتشفنا وحدات للعدو تقترب من اتجاه الشمال الشرقى لقاعدة بورسعيد.. ورفعنا درجة الاستعداد.. وبأسرع ما يمكن كنا نتجه نحو العدو كل فرد منا فى شوق بالغ للقائه.

وشعر العدو أننا اكتشفنا وجوده.. فبدأ يقوم بمحاولات للمناورة على أمل أن يجرنا إلى كمين خارج دفاعات القاعدة البحرية ببور سعيد وليعطى الفرصة لتدخل طيرانه المعادى.. ولكننا استطعنا أن نوجه ضرباتنا إليه بالصواريخ. واستطعنا أن ندمر إحدى وحداته بينما اتجهت باقى وحداته للهروب دون أن تتمكن أى وحدة من إمداد النقطة الحصينة التى سقطت بعد ذلك فى أيدى قواتنا البرية.

وفى ذلك اليوم حاول العدو الجوى أن يتدخل ضدنا بالطائرات.. ولكننا بسبب حسن استخدامنا لعنصر المفاجأة.. وبسبب حلول الظلام فقد اتجهنا نحو

القاعدة قبل أن يكتشفنا.. ورغم محاولات العدو المتكررة فى استخدام المشاعل المضيئة لتساعده على اكتشاف أماكن وحداتنا الا أننا استطعنا أن ندخل فى نطاق الدفاعات الجوية للقاعدة.. ولم يتمكن الطيران المعادى من مهاجمتنا..

وتسبب ذلك فى اصرار العدو على مهاجمة القاعدة البحرية نفسها..

وبدأ يوجه طيرانه بكثافة نحو القاعدة. ونحو بورسعيد بصفة عامة.. وفى الوقت نفسه دفع العدو ببعض وحدات ضفادعه البشرية لمهاجمة القاعدة من البحر.. ولم ينجح العدو فى النيل من وحداتنا البحرية.. وتمكنت قاعدة بورسعيد من اصابة ضفادعه البشرية. وتم انتشال جثثهم من مياه الميناء..

واستطاعت أجهزة التنصت فى القاعدة أن تسجل المحادثات اللاسلكية بين الطيارين الاسرائيليين والتى ظهر منها أنهم يهدفون بالدرجة الأولى الى تدمير وحدات تشكيل الصواريخ البحرية فى القاعدة، ولكن غاراته الكثيفة التى تركزت على القاعدة لم تستطع أن تنال منا والحمد لله..

ويروى المقاتل رضا قصة معركة ١٦ أكتوبر، عندما عين قائد التشكيل الذى كلف بمهمة محددة فى البحر الأبيض.. ويقول قائد هذا التشكيل البحرى..

قمنا باختيار الأفراد الذين سيشتركون معى فى العملية الهجومية التى كلف بها التشكيل.. وفى اليوم المحدد أخذنا التلقين النهائى للعملية من السيد/ قائد القوات البحرية.. وقمنا بدراسة المهمة دراسة كاملة.. وانطلقنا لتحقيق المهمة التى كانت تتلخص فى مهاجمة وحدات العدو التى تحاول الاعتداء على سواحلنا الشمالية، واعداد كمائن لها وتدميرها، والعودة بأسرع ما يمكن قبل أن يتمكن الطيران المعادى من التدخل فى محاولة لتغيير سير المعركة لصالح قواته البحرية..

ولم تكن المهمة سهلة.. كانت مهمة دقيقة.. بل وصعبة فقد واجهنا عدوا ماكراً وشرساً، ومدربا تدريبا جيدا، وكان واجبنا هو خداع العدو ومواجهة مكره

بمكر يتفوق عليه، ودهاء أشد من دهائه، مع إصرار بالغ على تحقيق المهمة..

وخرجنا الى عرض البحر..

واتخذ تشكيلنا خط سير خداعيا للتمويه.. وأثناء سيرنا فى خط السير الخداعى تلقى التشكيل اشارة من القاعدة تفيد وجود وحدات للعدو فى المنطقة تحاول الاعتداء على ساحلنا الشمالى..

وأصدرت الأوامر بتجهيز الوحدات واعداد صواريخها للانطلاق تمهيدا لمهاجمة العدو وتدميره..

وبدأ العدو فى الاقتراب..

وكان اقترابه فى البداية بواسطة طائرات الهليوكبتر التى كانت تسبق وحداته البحرية.. واستطعنا أن نخدع العدو ونوهمه بعدم وجود وحدات بحرية لنا فى هذه المنطقة التى قام بتفتيشها ورغم ذلك لم يتنبه لوجودنا، فأصدر توجيهاته لوحداته البحرية بالتقدم وضرب الاهداف الساحلية التى كان يهدف الى تدميرها.

وعندما اقتربت وحداته البحرية تمكنا من رصدها والتعرف عليها وتقدير قوتها بدقة.. وأصدرت تعليماتى باتخاذ تشكيل قتال ومهاجمة وحدات العدو وتدميرها..

وكانت وحدات العدو البحرية تضم أربع وحدات من لنشات الصواريخ تقوم بحمايتها من مسافة بعيدة أربع وحدات أخرى.. وكان تشكيلنا يضم ربع هذه القوة المعادية..

كان إصرارنا على تدمير العدو.. وعلى مهاجمة وحداته مهما كانت الظروف هو أكبر دافع دفعنى إلى اطلاق أول صاروخ على العدو من لنش القيادة.. وأصاب إحدى وحداته إصابة مباشرة..

وكانت طائرات العدو مازالت فى المنطقة..

وبدأت طائرات العدو فى مهاجمتنا بادئة بمهاجمة لنش القيادة، واستطاعت طائرات العدو أن تصيب لنش القيادة - حيث كنت - وكانت الاصابة فى الواقع اصابة بالغة.. ولكننى أصدرت أوامرى بالاستمرار فى الهجوم، والتصدى لوحدات العدو واتمام المهمة..

وكلفت قائد اللنش بحصر الإصابة، ومكافحة النيران والاستمرار فى الهجوم.. ونجحنا فى اطلاق الصاروخ الثانى الذى أصاب العدو.

وعند اطلاق الصاروخ الثالث حدث تكذيب فى اطلاق الصاروخ (أى أنه لم ينطلق بسبب الاصابة) وكانت وحدات العدو تقترب منا بسرعة عالية، بينما مازال الصاروخ (المكذب) لا ينطلق، وازداد الموقف دقة.. بل أصبحنا نواجه موقفا حرجا نتيجة اقتراب العدو منا دون أن نتمكن من الاشتباك معه، ودون أن ينطلق الصاروخ الموجه اليه..

واستمر الطيران المعادى فى مهاجمتنا دون هوادة ولكننا رغم كل ذلك استطعنا تحت هذه الظروف الصعبة - بل بالغة الصعوبة - أن نصلح العطل لينطلق الصاروخ الثالث.. ثم الصاروخ الرابع..

ونجحنا فى تدمير العدو.

وفى هذه اللحظة أصابتنى طائرات العدو بالاصابة الثانية.. وكانت هذه المرة اصابة أكثر عنفا وأشد خطرا..

ونشب فى لنش القيادة حريق هائل.. وقام الرجال فى استماتة بالغة بمواجهة الحريق والسيطرة عليه، وبفضل الروح الفدائية التى طغت على الرجال تمكنوا من إنقاذ اللنش بصعوبة.

وأصدرت الأوامر الى اللنش الآخر الذى كان يقوده المقاتل شرين بالعودة فورا بعد أن تمكنا من تدمير وحدات العدو البحرية، لنتجنب أى خسائر أخرى نتيجة مهاجمة الطيران لنا.

ويلتقط المقاتل شرين خيط الحديث قائلا:

.. خلال مرحلة اكتشاف الأهداف المعادية واطلاق صواريخنا عليها، فوجئت بلنش القيادة وقد أصيب بصواريخ طائرات العدو، واشتعلت فيه النيران، واتجهت بوحدتى اليه فى محاولة لإنقاذه إلا أن المقاتل رضا طلب منى الخروج من المنطقة حتى لا تصيبنى الطائرات المعادية.

ولكننى بقيت فى منطقة العمليات، وواصلت إطلاق صواريخى على العدو حتى تم تدمير وحداته البحرية، والى أن تمت السيطرة على النيران فى لنش القيادة ثم اطفائها..

وفى هذه الأثناء أصابتنى طائرات العدو.. ورغم ذلك استطعنا أن نخرج من المنطقة.. وأن نتجه الى القاعدة لنرسو على رصيف الميناء دون أن نفقد أى وحدة من وحداتنا والحمد لله..

الفصل التاسع

الذراع الطويلة

في منتصف نوفمبر..

بينما تشن حرب الاستنزاف على القوات الإسرائيلية التى تمركزت فى بعض مناطق غرب القناة عبر ثغرة الدفرسوار.

وبينما اجتماعات الفصل بين القوات قد بدأت عند الكيلو ١٠١ بعد أن توقفت اجتماعات جنيف.

كانت الأنظار تتجه بعيداً إلى أقصى جنوب البحر الأحمر حيث الأسطول المصرى يغلق مضيق باب المندب فى وجه الملاحة الإسرائيلية.. بينما الوفد الإسرائيلى فى اجتماعات الفصل بين القوات عند الكيلو ١٠١ يثير هذا الموضوع، ويحاول أن يساوم عليه بينما الوفد المصرى يتجاهل هذا الأمر كلية.

وكان لابد أن أطير هناك لألتقى بأبطال البحرية الذين حققوا لمصر اليد الطويلة والذراع الممتدة التى وصلت إلى ما يزيد على ١٥٠٠ كيلو متر من جبهة القتال.

وقطعت من أجل ذلك ما يقرب من ٩٠٠٠ كيلو متر من الطيران، وأكثر من ٧٠٠ كيلو متر بالسيارات، ومسافة أخرى أقل من ذلك أبحرت خلالها فى

مياه البحر، وبقيت على مدى ستة أيام لا أستطيع أن أقضى ليلتين متتاليتين فى مكان واحد.

والتقيت هناك بعشرات الشخصيات العربية كان أبرزها رئيس جمهورية اليمن والممثل الشخصى للرئيس السادات وقائد الأسطول وغيرهم.. كان ذلك من أجل أن أنقل صورة عمل فذ تدور أحداثه التاريخية عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر عند باب المندب.

وفى باب المندب وجدت ثلاثة أعلام عربية تلتقى فوق مياه المضيق ومن حوله. وتجتمع الأعلام العربية الثلاثة حول شعار واحد هو «إسرائيل لن تمر».

وفى وسط الممر المائى الضيق الذى يشكل المدخل الجنوبى للبحر الأحمر لم تكن ترى شيئاً يعترض الطريق بصورة مباشرة، بل ان هناك فوق جزيرة «بريم» فنارين يرشدان السفن إلى طريقها.. ولكن كانت هناك الدوريات البحرية حول المدخل وفى خليج عدن والذى يحده من الجنوب والغرب لسان من الأرض يمتد فى مياه المحيط وهو الذى يعرف باسم القرن الافريقى.

واتيح لى خلال زيارة هذه المنطقة الاستراتيجية المهمة أن أحلق بالطائرة فوق باب المندب وفوق الجزيرة التى تعترض الطريق المائى المتجه إلى البحر الأحمر.

ومن داخل الطائرة كانت الحركة تبدو هادئة عند المضيق بينما الصورة من الأرض كانت تبدو مختلفة.

فمن الجو كنت ترى الأرض الآسيوية تقترب من القارة الإفريقية ليبلغ مضيق باب المندب أقل اتساع له عند النقطة التى تعرف باسم «الشيخ سعيد». فعند هذه النقطة تلتقى حدود شطرى اليمن بالبحر، حيث شمال الشيخ سعيد تمتد أرض الجمهورية العربية اليمنية، وتأتى شرقه جمهورية اليمن الديمقراطية، بينما مياه البحر الأحمر تلتقى بمياه المحيط الهندى. وخليج عدن - من حول «الشيخ سعيد» لتشكل حديه الغربى والجنوبى. أما نقطة «الشيخ سعيد»

نفسها فهى تدخل ضمن أراضى الجمهورية العربية اليمنية (لواء تعز) لتكون آخر صخرة فى الحدود اليمنية. وفى هذه النقطة تضيق المسافة بين قارتى آسيا وأفريقيا لتصبح فقط ١٨ ميلاً من المياه هى عرض مضيق «باب المندب» الذى تعترضه جزيرة «بريم» والتى تعرف أيضاً باسم جزيرة «ميون». وإذا كانت أرض «الشيخ سعيد» تابعة للجمهورية العربية اليمنية، ويمر عندها خط الحدود الفاصل بين شطرى اليمن، فإن جزيرة بريم تتبع جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. وهنا يصبح للممر المائى الضيق فى باب المندب شعبتان تفصل بينهما هذه الجزيرة الصخرية ذات القيمة الاستراتيجية الفريدة.

وتستطيع من الجو أن تلاحظ اقتراب الجزيرة من الأرض العربية لجنوب غرب آسيا إلى أن تصبح المسافة بين أرض اليمن والجزيرة حوالى ميلين من المياه، وبينما الشعبة الأخرى للمضيق غرب الجزيرة تصل إلى حوالى ١٢ ميلاً، ويبلغ اتساع المضيق كله عند هذه النقطة المهمة ١٨ ميلاً فقط.

وإذا كانت صورة مضيق باب المندب من الجو تبدو هادئة، فإن ملامح الصورة تزداد وضوحاً كلما اقتربنا من الأرض أو بدقة أكثر كلما اقتربنا من سطح البحر.

وحول منطقة المضيق فى خليج عدن - حيث مياه المحيط الهندى - وحتى ميناء عدن صادفتنى فوق البحر دوريات بحرية تكاد تكون منتظمة، بالإضافة إلى وسائل عربية متعددة لرصد واستطلاع حركة السفن فى المنطقة.

وبينما كنت هناك حلقت طائرة استطلاع أجنبية فوق منطقة المضيق.. وعن ذلك تحدث أحد المسئولين فى جمهورية اليمن الشعبية، وقال: إن تحليق هذه الطائرة يدخل ضمن برنامج رحلات استطلاعية تقوم بها الطائرات الامريكية فى هذه المنطقة.. وطبقا لهذا البرنامج تحلق بين حين وآخر طائرات الاستطلاع وتكون فى معظم الاحيان على ارتفاع شاهق جدا.

ويستطرد محدثى فى وصف الخريطة العسكرية للمنطقة قائلا: إن هناك الآن أربع قواعد أمريكية أقيمت فوق الأرض الافريقية فى اريتريا بعد أن كانت من قبل قاعدة واحدة فى كانيو.

وأهم واحدة من هذه القواعد الاربع فى مصوع حيث هناك قاعدة بحرية وقاعدة جوية، كما تعتبر مصوع فى الوقت نفسه المرفأ الأخير لرحلات قطع الاسطول السابع فى مياه جنوب آسيا.

واذا كانت العيون العربية تراقب وتتابع حركة القطع البحرية فى المنطقة فإن التركيز مستمر ودائم بالنسبة للسفن الاسرائيلية حيث أصبح شعارنا فى هذه المنطقة هو أن اسرائيل لن تمر مادامت لم تنسحب من الارض العربية.

والتقيت بشخصية عسكرية عربية يقوم صاحبها من الناحية العلمية والعملية والفعلية بمسئوليات قائد الاسطول العربى فى المنطقة.. انه واحد من أبطال اكتوبر.

وداخل مبنى من طابق واحد يطل على مياه المحيط الهندى كان الحديث يدور حول الاحداث التاريخية التى شهدتها تلك المنطقة من العالم.

وقال لى «قائد الاسطول»: إن إغلاق المضيق فى وجه العدو تنعكس أهميته بصورة خاصة على البترول. إن إمدادات العدو من البترول ليس لها سوى طريق واحد يمر من هنا. حيث العدو الاسرائيلى يتلقى عبر باب المندب شحنات من البترول تنقل بحرا وتبلغ الواحدة ما بين ٨٠ و ١٢٠ ألف طن. ويمر هذا البترول إلى أرض العدو عبر طريق بحرى يمتد من ايران حتى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ثم يتجه الى خليج العقبة ليتم تفريغه فى ميناء إيلات.. وعن هذا الطريق يتلقى العدو سنويا حوالى ٤٠ مليون طن من البترول. كان هذا هو نفس الرقم الذى يشير الى ما تم تفريغه من البترول. وكان فى ميناء ايلات خلال عام ١٩٧٢ . أما فى عام ١٩٧٣ فقد انخفض مجموع ما تلقاه العدو من البترول الى ٢٦ مليون طن بينما كانت الخطة

الاسرائيلية تهدف إلى الارتفاع بهذه الارقام لتصل الى ٦٠ مليون طن من البترول سنويا.

وتقوم اسرايل بنقل شحنات البترول التى يتم تفريغها فى إيلات عبر الأنابيب الى أسدود أو حيفا حيث يتم تصدير معظمه.

ويبلغ استهلاك اسرائيل المحلى من هذا البترول حوالى ٦٠٠ الف طن شهريا أما باقى الشحنات فتنقلها الأنابيب الى البحر الأبيض حيث يتم شحنها من هناك وتصديرها.

وتحتفظ اسرائيل بكميات احتياطية من البترول يبلغ مخزونها مليونا ونصف مليون طن وهو ما يكفى متوسط الاستهلاك المحلى الإسرائيلى المعتاد لمدة شهرين وبضعة أيام.. وبالطبع يرتفع الاستهلاك كثيرا فى ظروف الحرب وخلال القتال مما يؤكد أن المخزون الاسرائيلى من احتياطى البترول تضاءل، بالإضافة إلى تأثير عمليات تفريغ ونقل البترول الذى كانت اسرائيل تنقله بالانابيب لتصديره من البحر الأبيض.

ومن هنا تبرز الأهمية الخطيرة لمنع العدو الاسرائيلى من المرور فى البحر الأحمر.. وهذا يفسر لنا الانزعاج الذى سيطر على العدو نتيجة ذلك.

وانطلاقا من هذه الحقائق يرى خبراء الاستراتيجية أن العدو الاسرائيلى لا يستطيع تحمل استمرار الحصار البحرى العربى له، والذى يشكل بالفعل عنصرا مهما وخطيرا فى المعركة مع اسرائيل.

وفى نهاية حديثى مع قائد الأسطول قال: ان القوة العربية - وربما لأول مرة - استطاعت أن تحقق عملا استراتيجيا باهرا، وأن ذلك العمل تم بصورة ناجحة ضاعف من نجاحها قدرتنا الاكيدة على الاستمرار.

ومن الشخصيات التى التقيت بها أيضا فى عدن الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس أنور السادات (سفير مصر فى عدن الآن).

وكان لقائى معه داخل المقر السابق لقائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط والذى خصصته الحكومة بعد الاستقلال لإقامة كبار الزوار. وكان الدكتور حسن صبرى الخولى قد وصل الى عدن وقتها ضمن جولة سريعة فى المنطقة. وكان قادما من شمال اليمن حيث اجتمع هناك مع القاضى عبدالرحمن الاريانى وسلمه رسالة من الرئيس أنور السادات.

وكان موعدى معه عقب زيارته للرئيس سالم ربيع رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، والتى سبقها اجتماعه مع على ناصر رئيس الوزراء ووزير الدفاع.

وبقيت مع الدكتور الخولى يومها الى ما بعد منتصف الليل حيث كانت طائرته تغادر عدن فى السابعة صباحا. وكان الحديث الذى يفرضه تطور الأحداث بالمنطقة يدور حول الحصار العربى الإسرائيل.

وقال لى الدكتور حسن صبرى الخولى: ان البحر الأحمر على مدى التاريخ هو بحر عربى قد تم حشده للمعركة ضد العدو الاسرائيلى، وعلى العرب جميعاً أن يتحملوا مسئولياتهم التاريخية ..، وقد تحملوها، .

وعن إغلاق مضيق باب المندب أمام العدو الاسرائيلى قال الدكتو الخولى: إنه يشبه إسرائيل فى هذا الموقف بسجين حبس داخل زنزانة ضيقة، وعندما حاول أن يخرج من هذه الزنزانة اصطدم بأسوار السجن العالية التى تحيط به من كل مكان وتبقيه داخل سجنه. ولهذا كان للعمل العربى أهميته الحاسمة فى المعركة.

والعمل العربى ليس فى الواقع مقصورا على سلاح البترول الذى هو سلاح ماض وحاسم ـ ولكن هناك أيضا أسلحة عربية أخرى لا تقل خطورة عن سلاح البترول. وكان لى سؤال:

اذا كان فرض الحصار على العدو تنصب أهميته بالدرجة الأولى على حرمان العدو من مصدره الرئيسى للبترول، فما هى احتمالات حصول العدو

على شحنات بترولية عن طريق البحر الابيض تعوضه عن جزء مما كان يحصل عليه عن طريق البحر الأحمر.

وكان رد الدكتور الخولى بأن ذلك مستحيل.. ان طريق البترول الى اسرائيل يمر عن طريق البحر الأحمر ويأتى من مصدر واحد، بل إن اسرائيل تشكل معبرا لشحنات من البترول قادمة إلى ميناء إيلات ومتجهة الى البحر الابيض، ولذلك فان ساحل اسرائيل على البحر الابيض يعد منطقة تصدير بترولى فكيف يمكن أن يتحول فى يوم وليلة الى منطقة استيراد بترولى؟ كما أن اسرائيل تطل من البحر الابيض على مناطق استهلاك ضخمة للبترول، ليس لدى دولها أصلا أى فائض تقدمه لإسرائيل فما بالك وهذه المناطق تعانى الآن نقصا كبيرا فى المواد البترولية.

واذا أضفنا الى ذلك تقليل الضخ العربى مع وجود ضمانات كبيرة تضمن عدم اعادة تصدير البترول من أوربا - والذى هو مستحيل أصلا - يصبح من غير المعقول وجود هذا الافتراض أساسا.

وقد وضعت الدول العربية المنتجة للبترول ضمانات كبيرة لمنع نقل البترول الى الدول التى شملها الحظر التام مثل هولندا، كما تطبق بدقة نظم «شهادة المنشأ»، ومراقبة الناقلات، وبهذا يصبح من المؤكد استحالة حصول اسرائيل على نقطة بترول واحدة من غير طريق البحر الأحمر.

وتركت الدكتور الخولى لاجتماعات أخرى مع «رجال مصر».. لألتقى بأحد رجال القوات اليمنية فى عدن.. قال لى: انه تتبع تصريحات متحدث أمريكى قال: ان قطعا بحرية أمريكية توجهت الى المحيط الهندى لتعزيز الوجود البحرى الأمريكى هناك، وأنه يرى فى مثل هذه التصريحات ما يؤكد أهمية الأحداث الجارية فى المنطقة والتى تشد بالفعل اهتمام العالم كله.. وهذا يوضح أسباب الرحلات الجوية الاستطلاعية التى تتكرر فى المنطقة، ولكنه أيضا لا يقلل من حماسنا بل يضاعف منه، خاصة أن العدو عانى كثيرا من

العمل العربى وليس أدل على ذلك مما جاء على لسان يوسف تيكواه قال فى نيويورك أثناء النقاش الذى سبق قرار وقف إطلاق النار: إن إسرائيل توافق على تنفيذ قرار وقف إطلاق النار شريطة أن تقبله مصر وسوريا واليمن التى تحاصر مضيق باب المندب.

وفى حديث لى مع مسئول فى حكومة جمهورية اليمن الديمقراطية قال إن الوحدات البحرية تقوم بدورياتها فى منطقة خليج عدن وإنها تتابع كل تحركات السفن فى المنطقة، وانه لم تحاول أى سفينة اسرائيلية. أو ناقلة متجهة الى اسرائيل عبور باب المندب الى البحر الأحمر منذ معركة العبور فى ٦ اكتوبر.

وحتى تكتمل جوانب الصورة من حول باب المندب كان على أن أترك جمهورية اليمن الديمقراطية متجها شمالا الى «الحديدة» القاعدة البحرية للجمهورية العربية اليمنية فى البحر الأحمر.

ونقلتنى الطائرة من عدن الى تعز ومن هناك شقت السيارة طريقها الصعب نحو ساحل البحر.

وفى الحديدة التقيت بالرئيس الاريانى وبقائد البحرية اليمنية ثم رافقت دورية يمنية فى مهمتها وسط البحر..

وسبق ذلك كله لقاء مع أحد رجال اليمن البارزين وهو الشيخ سنان أبو لحوم يشغل الآن منصب محافظ لواء الحديدة..

وقال لى الشيخ سنان أبو لحوم إن الحديدة الآن - وكما ترى بنفسك - هى القاعدة البحرية التجارية والاستراتيجية الأولى فى المنطقة، وان كان ذلك قد تم على حساب ميناء عدن. وقال إن ميناء الحديدة قد أعد وجهز بحيث يستطيع أن يؤدى دورا كبيرا خلال الحرب والسلم معا، وأنه لذلك قد تم تنفيذ مشروعات توسعية طورت الحديدة وضاعفت من إمكانياتها.

وفى السابعة صباحا كان موعدى مع القاضى عبدالرحمن الإريانى رئيس مجلس الرئاسة بالجمهورية العربية اليمنية، ومع قهوة الصباح جلس القاضى الاريانى فى القصر الجمهورى بالحديدة يستمع إلى أسئلتى ويجيب عنها..

ومنذ أول يوم وعندما أطلقت الرصاصة الأولى من الحرب أعلنت أن اليمن بكل امكانياتها البشرية والمادية والاستراتيجية مسخرة لخدمة المعركة.. وهكذا كان ردنا على الاجانب أن اليمن جزء من الامة العربية وبطبيعة الحال أن الجزء لا يمكن أن ينفصل عن الكل.

ولقد كان لذلك أهمية..

وأبرز أهمية فى هذا الموقف تبدو من اهتمام اسرائيل منذ أول يوم لمشروع وقف اطلاق بالحصول على موافقة البلاد العربية بما فى ذلك اليمن، وذلك بسبب موقفه فى باب المندب لأن له أهميته الكبيرة فى المعركة.

إن اليمن عليها دين لم ترد بعضا منه حتى الآن، ولهذا فإنها تشعر أن لها دورها أكثر من غيرها.. ولكن ربما كما يقولون «العين بصيرة واليد قصيرة».

قلت: ولكن تبدو الآن طويلة.. فاليد العربية أصبحت تمتد بطول البحر الأحمر كله..

وعندما انتهت مقابلتى مع الإريانى كان لقائى بقائد القوات البحرية الذى صحبنى فى زيارة لقواته.

واتجهنا الى معسكر الشهيد صالح الأهجرى حيث شهدت اجتماعا عسكريا لقادة الوحدات البحرية هناك، واستمعت إلى شرح طويل للموقف - فى ذلك الوقت - عند جنوب البحر الأحمر، كما تناول أحد الضباط آخر تطورات النشاط البحرى فى منطقة الشيخ سعيد وجزيرة ميون (باب المندب).

وقال لى قائد البحرية انه إذا كانت طبيعة الأرض فى باب المندب تجعل من السهل جدا القيام بأعمال المراقبة والرصد عند المدخل الجنوبى للبحر

الاحمر وعند التقاء مياهه بمياه المحيط الهندى فى خليج عدن.. فإن الأمر يظل كذلك سهلا شمال باب المندب حيث يمتد الشاطئ اليمنى من الشيخ سعيد جنوبا وحتى حدود السعودية شمالا.

واذا حاولنا تقسيم المنطقة الى قطاعين فاننا نجد القطاع الأول يمتد من البحر الاحمر شمال جزيرة بريم، بينما يمتد القطاع الثانى جنوبها فى مياه الخليج وتظل الجزيرة معترضة عنق الزجاجة الضيق بين «الشيخ سعيد» والشاطئ الافريقى.. والذى يمكن أن نطلق عليه من أجل التبسيط اسم «الباب نفسه».

وبالنسبة للقطاع الجنوبى نجد أن جميع السفن المتجهة إلى البحر الأحمر مهما كان اتجاه قدومها فان الطريق يضيق بها حتى يختنق عند جزيرة بريم. وعندما تتجه السفينة ـ أى سفينة ـ شمالا الى مياه البحر الأحمر فان عليها أن تمر فى أحد الممرين الملاحيين أولهما بين «الشيخ سعيد» وجزيرة «بريم» وعرضه لا يزيد فى أكثر مناطقه اتساعا عن ميلين فقط.

والممر الثانى بين جزيرة «بريم» والشاطئ الافريقى حيث التقاء حدود اريتريا مع جيبوتى ـ أو الصومال الفرنسى، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الممر ١٥ ميلا ويضيق عند ذلك كثيرا فى بعض نقطه.

وبينما يضيق الطريق بالسفينة المتجهة الى البحر الأحمر ويظل يضيق الى أن يؤدى بها للمدخل الضيق عند الجزيرة يصبح فى متناول أى قوة هناك أن ترصد السفينة وتبقيها تحت العين.. وبالتالى اذا كانت القوة الساحلية على الشاطئ فى الشيخ سعيد أو على الجزيرة فى بريم كافية لتحقيق الهدف المطلوب أو المهمة التى تكلف بها فان الدوريات البحرية جنوب البحر تساهم فى اكمال العمل أو التمهيد له ونفس الشيء تماما شمال المضيق. فعندما تعبر السفينة المضيق متجهة شمالا فانها تأتى بالضرورة من نقطة محددة وضيقة سواء كانت هذه النقطة محصورة بين أرض«الشيخ سعيد» شرقا وأرض جزيرة «بريم» غربا، أو محصورة بين أرض الجزيرة شرقا وأرض الساحل الافريقى

غربا، ولهذا فان عمل الدوريات البحرية شمال المضيق يصبح عملا ميسرا وسهلا حيث يمكن لهذه الدوريات أن ترصد كل حركة فى الماء وتبقيها تحت العين لان هذه الحركة - حركة الإبحار - تنبع من نقطة صغيرة.

بالنسبة لهذا القطاع وهو القطاع الممتد من جزيرة بريم جنوبا وحتى الشمال - تلعب الطبيعة دورها وتساهم فى توفير ضمانات المراقبة الدقيقة.. ان الجزر اليمنية فى هذه المنطقة تنتشر وسط البحر وتتوسطه بينما لا تتجه الخطوط الملاحية المباشرة بعيدا عنها لناحية الغرب حيث ان الجزر الاريترية هناك متقاربة وكثيرة مما يحعل الخط الملاحى على تفاديها نحو الشرق ويبقى بذلك قريبا من الساحل اليمنى.

ويحد الخط الملاحى غربا أكثر من ١٢٠ جزيرة بركانية التكوين معظمها غير مأهول وأهمها الجزر المعروفة باسم «دهلك».

أما الجزر اليمنية فهى عديدة ومنتشرة وسط مياه البحر ومن أهمها جزيرة جبل زبير وجزيرة طير وجزيرة ذو قار وجانش كبير وجانش صغير وكمران. ومهما كان خط الابحار الذى تستخدمه السفينة فانها لابد بالضرورة أن تمر بأكثر من جزيرة من هذه الجزر اليمنية أو - على الأقل - بالقرب منها.

وقال: إن من الواجبات العادية للوحدات البحرية هنا - وفى كل الظروف الطبيعية أو الاستثنائية - القيام بأعمال الدوريات البحرية فى هذه المناطق.

وفى قاعدة الحديدة البحرية التقيت برئيس أركان القوات البحرية الذى اصطحبنى الى أحد أرصفة القاعدة حيث تركنا مع أكثر من وحدة بحرية الى عرض البحر.. وكانت هذه هى دورية الصباح..

وعلى سطح زورق القيادة اجتمع الضباط حول خريطة المنطقة حيث تم عليها تحديد خطوط وتوقيتات التحرك لهذا اليوم.

وتحركت وحدات الدورية الى عرض البحر حيث كنا فوق زورق القيادة، وانطلق بنا فى اتجاه احدى الجزر اليمنية قرب المدخل الجنوبى للبحر الأحمر،

واتخذت الوحدات (تشكيل سير) ثم كان اتصالها بوحدة تابعة للقيادة البحرية فى احدى الجزر.. وجرى الاتصال الذى يطلق عليه العسكريون اسم «التمامات». وترددت فوق زورق القيادة كلمة «تمام» أكثر من مرة.

وغير زورقنا اتجاهه حيث اتخذت الوحدات تشكيلا آخر يسمى «تشكيل قتال». وكان هذ هو جزءا من البرنامج التدريبى لافراد القوات البحرية والمعد من قبل.

وخلال هذه العملية التدريبية قام الرجال بعدة «مناورات ابحار» كما كلفت أطقم الاسلحة المضادة للطائرات برصد الاهداف الجوية ومتابعتها. بينما كانت هناك أطقم أخرى تتدرب على عمليات رصد ومحاصرة الاهداف البحرية وتحديد أماكنها واتجاهاتها وسرعة تحركها والابلاغ عن ذلك وعن كل تغيير فيه. كما كان افراد الطوربيد يقومون بمهمتهم التدريبية.

وعادت الوحدات تتخذ (تشكيل سير) فى طريق عودتها الى القاعدة.. وقال لى رئيس الأركان الذى كان يتتبع مراحل العملية التدريبية لرجاله.. «إن هؤلاء الرجال يعرفون هذه المنطقة مثلما يعرفون أولادهم... وان كل نقطة فى هذه المنطقة هى بالتالى فى متناول أيديهم. لقد عاشوا عمرهم فى هذه المنطقة الجنوبية من البحر الأحمر ولا يستطيعون سوى أن يحيوا هنا بين الامواج».

وينتهى حديث رئيس الأركان بينما الحديث عن باب المندب لا ينتهى..

الفصل العاشر

ثمن بلا مجد..

عقب معارك أكتوبر زار القاهرة الجنرال الفرنسى بوفر الذى كان قائدا للقوات الفرنسية التى هاجمت مصر سنة ١٩٥٦ . وتنقل بوفر بين أرض المعارك شرق وغرب القناة، ثم قال قولته الخالدة.. «ان عملية الثغرة والاختراق الاسرائيلى الى غرب القناة هو من نوع العمليات التليفزيونية..» وهذا هو التعبير الذى يستخدم فى وصف الحركات البهلوانية التى يقوم بها لاعب الكرة - دون داع - للاستعراض أمام عدسات التليفزيون التى تنقل المباريات.. مما يجعل هذا التعبير قريبا وواضحا فى ذهن القارئ المصرى..

وهذه الكلمات رغم بساطتها فإنها تعبير عميق ملىء بالمعانى خاصة ان صاحبه معلق عسكرى محايد، وعلى جانب عظيم من الخبرة والعلم العسكرى.

ولكن ما قصة هذه العملية التليفزيونية كما يسميها بوفر؟

ومع أحاديث الرجال الذين صنعوا قصة ١٢ يوما من البطولة تمتد من بحيرة التمساح شمالا حتى الأدبية فى الجنوب، ونتتبع قصة الثغرة التى انتهت بانسحاب العدو إلى عمق سيناء.

واذا كان النصر قد بدأ شرق القناة بعبور قواتنا الضاربة الى سيناء واقتحامها خط بارليف. فان النصر قد اكتمل غرب القناة بصمود وتماسك الرجال الذين

خاضوا غرب القناة معارك طويلة حولت الأرض من حول العدو الى جحيم..
ولم تكن أبدا عملية الاختراق بالنسبة للعدو تلك «النزهة العسكرية» التى كان يصورها لرجاله. ولا يمكن للتاريخ أن يهون من العمليات العظيمة التى واجهت بها قواتنا المسلحة عملية الاختراق حيث دفع العدو ثمنا باهظا جدا لانتصار تكتيكى محدود انتهى به إلى الانسحاب.

ولنبدأ القصة من أولها ..

كان الموقف العسكرى صباح يوم الثلاثاء ١٥ اكتوبر سنة ١٩٧٣. يتلخص فى نجاح كامل للقوات المصرية التى احتلت خط بارليف شرق القناة وحطمت احتياطى العدو التكتيكى، واستدرجت مدرعاته الى أرض القتال المحصورة بين القوات المصرية غربا ومضايق الممرات شرقا، حيث بدأت اسرائيل تعانى نزيف الدبابات الذى لا يتوقف والذى لم يعد الامداد الامريكى قادرا على ملاحقته.

وبدأ العدو يعى ما يحدث وبدأ يستوعب المفاجأة، وإن لم تمكنه الأحداث المتلاحقة من التقاط أنفاسه، وكان على قادته المستدعين الى الخدمة أن يشاركوا فى وضع خطة جديدة لمواجهة الموقف، تساندها وسائل الاستطلاع الامريكى ومصدر معلوماتها. وتمدها الترسانة الامريكية بأحدث الدبابات والصواريخ والمعدات الالكترونية.

وخططت اسرائيل لعملية هجومية خارج منطقة معارك الدبابات فى سيناء، والتى لم يعد أمام اسرائيل أى أمل فى نتائجها.

وكان المطلوب أن تحول هذه الخطة الموقف الاسرائيلى من الدفاع الى الهجوم.. وبأى ثمن.. لأن قوتها غير معدة وغير قادرة على الدفاع، ولكنها تجيد عمليات مفاجئة سريعة تقوم خلالها بدور المهاجم.

ولم تنجح كثيرا خطة الدفاع الهجومى التى اتبعتها إسرائيل فى معارك سيناء حيث كان القتال مستمرا ليل نهار. وقد ازدحمت أرض المعركة بحوالى

١٥٠٠ دبابة من الجانبين بينما سير المعركة يؤكد استحالة خروج اسرائيل منها بأى نتائج عسكرية أو سياسية أو حتى دعائية.

وكان على الخطة الاسرائيلية أن تتجنب بقدر الامكان مواجهة جديدة مع قوات مصر.. وكانت هناك عدة بدائل تبدأ بفكرة احتلال بور سعيد فى أقصى شمال الجبهة. وتنتهى بالتسلل بالمدرعات من البحر الأحمر إلى الصعيد لقطع طريق اسوان ـ القاهرة.

وبدأت محاولات تحقيق الفكرة الأولى بشن غارات جوية مجنونة على بورسعيد للفت الانظار اليها بينما استقر الرأى على تحقيق الاختراق من منطقة البحيرات فى محاولة لتطويق القوات المصرية وقطع طرق امدادها.

وكلف الجنرال الاسرائيلى اريل شارون بقيادة قوات الاختراق وعبور البحيرات المرة اعتمادا على عدة نقط: ـ

الجنرال شارون يمثل نوعا «خاصا» من الفكر العسكرى يتماشى تماما مع العقيدة العسكرية الاسرائيلية وهى تطابق العقيدة النازية وتعتمد على تحقيق عمليات ذات بريق لامع ـ يزيد كثيرا عن حقيقة معدنه ـ ويهدف إلى إرباك القيادة التى تواجهه وتعتمد على الآثار المترتبة على هذا الارباك أكثر مما يعتمد على كفاءة وأعمال وحداته نفسها. مما يسهل الأمر أمامها ويعيد إلى أذهان اسرائيل اسطورة «النزعات العسكرية».

●خط تحرك القوات الاسرائيلية ـ طبقا لهذه الخطة ـ لا تعترضه قوات مصرية كبيرة أو وحدات ضارية مما يتماشى تماما مع الحرص الاسرائيلى على عدم مواجهة القوات المصرية فى معارك متكافئة.

●الخطة بأكملها تشكل مغامرة خطرة بما يجعلها غير متوقعة فيوفر لها المفاجأة المطلوبة.

●نجاح العملية يترتب عليه تحرك القوات الاسرائيلية فى أرض مفتوحة يمكنها من الانتشار فى محاولة لتهديد أكثر من هدف وأكثر من طريق مما يساعد على عمليات التضليل المطلوبة.

وبدأ تنفيذ المغامرة بعبور بعض دبابات برمائية البحيرات ووصولها الى الضفة الغربية، بينما رصد الاستطلاع المصرى تحرك بعض معابر تابعة لقوات حلف الاطلنطى فى اتجاه البحيرات.

ومنذ البداية بدأت مواجهة التسلل الاسرائيلى وفى ذهن القيادةالمصرية مبدأ أساسى وهو تجنب أى ارتباك يهدف به العدو الى اجبار القيادة المصرية على سحب قوات ضاربة من سيناء الى غرب القناة.. أو التورط فى قرارات عصبية تهدى نصرا رخيصا للعدو وتكون تكرارا لأحداث ٦٧ ـ وأكدت الأيام بعد ذلك حكمة هذا القرار السليم.

وأصبح على عاتق الجماعات الصغيرة فى هذه المنطقة مواجهة الهجوم الاسرائيلى مع إمدادها بدعم مناسب.. وبدأت هذه المنطقة تشهد أروع قصص البطولة والاستبسال.

واتجه العدو الى تدمير قواعد الصواريخ المصرية غرب البحيرات، ولكن كانت الأغلبية العظمى من هذه القواعد فى حقيقتها قواعد هيكلية «غير حقيقية»، وبقيت معظم القواعد الاخرى بعيدة عن متناول يد العدو الذى ظل يطلب المزيد من النجدات.

وشهد يوم الجمعة ١٨ اكتوبر بداية الهجمات المصرية المضادة.. والتى ازدادت عنفا وشراسة.

وبدأ العدو فى استخدام طائرات الهليوكبتر لنقل النجدات الى المنطقة بينما دفع بأعداد كبيرة من دباباته عبر شمال البحيرات فى اتجاه الغرب وفى نفس الوقت كانت المدفعية المصرية تدك رأس الجسر الاسرائيلى وطلعات الطيران المصرى مستمرة فوق المنطقة التى تحولت أمام العدو الاسرائيلى الى بحر من النيران.

وطوال الليل توالت غارات الطائرات المصرية على المنطقة لتعود مع الفجر موجات الهجوم المصرى المضاد. وبدأ العدو يواجه القوات المصرية التى حاول

جاهدا أن يتحاشى أى مواجهة معها.. وارتفعت خسائر القوات الاسرائيلية الى أعداد خيالية بحوالى ربع القوة المهاجمة.

وبدأ العدو يفكر فى إلغاء الخطة.. وظهر سؤال خطير فى القيادة الإسرائيلية.. ما هو البديل؟ ما هى الخطة التى يمكن أن نواجه بها الانتصار المصرى الساحق؟

ولم يكن هناك بديل، كما أن التورط فى عملية غرب القناة كان قد تم بالفعل. وقررت القيادة الاسرائيلية الاستمرار فى المغامرة ودعمها بكل قوة ممكنة لتتحول الى مقامرة بكل الرصيد.

وخصصت القيادة الاسرائيلية ١٢ ألف رجل و ٣٠٠ دبابة لاكمال مغامرة غرب القناة.، بينما خصصت ٦٠٠ دبابة أخرى لحماية الممر الاسرائيلى شرق القناة والذى يؤمن طريق المواصلات الى قوات الثغرة..

واستمرت بذلك «المغامرة» التى تحولت الى «مقامرة» بهدف التحرك غرب البحيرات على شكل مروحة على ان يتجه المجهود الرئيسى شمالا نحو الاسماعيلية لقطع طرق إمداد الجيش الثانى، والحد من عملياته الناجحة شرق القناة، خاصة أن دبابات الجيش الثانى تمكنت أكثر من مرة من ضرب الممر الاسرائيلى شرق القناة، ومنع مرور الدعم الى القوات الاسرائيلية غرب البحيرات..

وخرجت الدبابات الاسرائيلية من وسط ستار الأشجار التى كانت تختبئ وراءه متجهة شمالا نحو طريق الاسماعيلية. وقبل أن تقطع الدبابات كيلو مترا واحدا اصطدمت بستارة الأسلحة (م/ د) المضادة للدبابات وتحولت الارض من حولها الى مقبرة للدبابات الإسرائيلية التى رقدت بقاياها فوق رمال صحراء الاسماعيلية وقرب بحيرة التمساح.. وارتفع خط الخسائر الاسرائيلية بجنون..

واندفعت الدبابات الامريكية الجديدة من العريش الى الدفرسوار فى محاولة لإنقاذ الموقف.. وظهرت أعداد ضخمة من الأسلحة الامريكية الجديدة من

بينهـا صواريخ لم يسبق استـخدامهـا حتى فى الحرب الامـريكيـة فى فيـتنام ومخصصة لضرب محطات الرادار مسترشدة بالأشعة الرادارية نفسها.

وظهـرت طائرات جـديدة تحمل عـلامة اتحـاد جنوب افـريقيـا العنصـرى. كـانت ضـمن الدعم السـريع الذى أرسل لانـقـاذ الموقف العـسكرى الاسـرائيلى المنهار.

ورغم ذلك صمدت القـوات المدافعة عن الاسماعيلية وتضـاعفت خسائر العدو وتوقفت نهائيا عن التقدم شمالاً، وأصبح عليه أن يتجه جنوبا..

وفى الوقت نفسه قـررت اسـرائيل أن تبدأ بقبـول وقف إطلاق النار لأنهـا كـانت على شفا هزيمة مـؤكـدة الى جـانب أنـه كان يوفـر لها عنصـر تأمين فى مغامرتها المليئة بالمخاطر والتى تـهدف الى سرقة النصـر من العرب، وتحـقيق كسب معنوى تغطى بعد آثار الاعمـال الحـربية المجيـدة التى قامت بها القوات المصرية.

ولهـذا أعلن العدو قبوله قرار وقف إطلاق النار، وبيت النية على الاستمرار فى محاولة الوصول الى السويس.

وتوالت غـارات الطائرات الاسـرائيلية بـجنون على طـول الخط الممـتد غـرب القناة من البحيرات إلى السويس، ولـم تعد الطائرات تفرق بين أهداف مـدنية أو وحـدات عـسكرية.. وكـان على هذه الطائرات أن تمهـد الطريق أمـام التـسلل الاسرائيلى الى السويس، بينما عاود العدو محاولات التسلل بعناصـر صغيرة فى اتجاه الجنوب إلا أن قوات الجيش الثالث الميدانى تصدت له ببسالة وصدت كل محاولاته، ودمرت قواته التى حاولت الانتشار صوب مؤخرتها، وردت ما بقى منها على قيد الحياة صوب الشمال.

وكان كل ما حـققه العدو حتى الساعة ١٨٥٢ يوم ٢٢ اكتوبر هو تدمير عدد من الصواريخ المضادة للطائرات وهذا مادفع القيـادة المصرية الى سحب باقى الصواريخ المنتشرة فى المنطقة الملاصقة للجزء الجنوبى من قناة السويس حتى

لا تتعرض للتدمير. وأدى ذلك الى كشف الغطاء الجوى بالصواريخ عن قوات الجيش الثالث شرق القناة. مما أتاح للعدو فرصة مهاجمتها بالقوات الجوية بتركيز شديد. وكانت طائرات العدو فى هذه المنطقة تشكل «ساقية» متحركة حيث تأتى طائرات جديدةقبل أن تنسحب الطائرات الاولى ليتم إعادة ملئها فى القاعدة ولتعود الى منطقة الثغرة فى طلعات جديدة لتبقى حركة الساقية الجوية مستمرة..

وتمكن اللواء الإيمن لفرقة المشاة المصرية السادسة عشرة من شن الهجوم المضاد الذى استعاد على أثره بعض مواقعه التى كان قد اضطر لإخلائها.. وفشل العدو فى تصفية رأس كوبرى هذا اللواء منذ أن بدأ يضغط عليه فى الخامس عشر من أكتوبر وحتى انتهت أعمال القتال فى ذلك القطاع يوم ٢٥ اكتوبر.

وأصبح الموقف يوم ٢٢ اكتوبر يتلخص فى:

● فشلت القوات الاسرائيلية فى تحقيق هدفها الرئيسى بقطع طرق الاسماعيلية التى تمتد الى وحدات الجيش الثانى شرق القناة.

● بلغت خسائر العدو فى العمليات خمسة آلاف قتيل وجريح و١٢٤ طائرة وحوالى ٨٠٠ دبابة طبقا لتقديرات أجهزة المخابرات الغربية.

● لم تنجح عمليات الامداد السريع بالأسلحة الحديثة والجديدة فى تحويل مسار الحرب لصالح إسرائيل، وإن استطاعت أن تحقق بعض النجاح «التكتيكى» المحدود فى منطقة الثغرة.

● ظلت القوات الاسرائيلية محصورة فى منطقة الثغرة ولم تتمكن من تحقيق تقدم حقيقى ضمن خطة الانتشار المروحى غرب القناة.

● القوات المصرية تحيط بالقوات الاسرائيلية من غرب وشرق القناة. وتهدد الممر الممتد من سيناء الى غرب البحيرات.

لم يعد من المتوقع تحقيق نجاح استراتيجى، مما يحتم العمل سريعا من أجل تحقيق نصر دعائى ونفسى.

وكان الهدف هذه المرة مدينة السويس نفسها، وتم وقف اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر بينما الدبابات الاسرائيلية تتسلل بأعداد قليلة وفى اتجاهات مختلفة لتتجنب مواجهة أى قوة مصرية ولمحاولة إرباك القيادة المصرية.

وخلال يومى ٢٣ و٢٤ اكتوبر استمرت قوات العدو تنتشر جنوبا نحو مدينة السويس وطريق الامداد والمواصلات الرئيسى الذى يربطها بالقاهرة.

وحاول العدو اقتحام المدينة أول مرة من يوم ٢٣ اكتوبر ليعوض بذلك الفشل الذى صادفه فى الاسماعيلية، ولكنه لم يكن أوفر حظا فى هذه المرة أيضا، واستبسلت المدينة جيشا وشعبا..

وتابع العدو الانتشار صوب الجنوب.. وتسللت بعض عناصره الى منطقة الادبية التى لم يكن بها سوى عناصر إدارية قليلة للقوات البحرية. وحاول العدو اقتحام الادبية.. واستماتت رجال الأدبية فى الدفاع عنها بالتعاون مع بعض أفراد حرس الحدود..

ولدخول العدو الاسرائيلى ميناء الأدبية قصة يرويها شاهد عيان من ابطال أكتوبر..

كانت الساعة ٧٠٠ عندما هدأ إطلاق النيران وتوقفت دبابات العدو بلا حراك أمام الادبية وتظاهر العدو بحبس نيرانه، ثم اندفع فجأة الى داخل الأدبية بمجرد أن رأى مراقبى الأمم المتحدة يقتربون من المنطقة فى الساعة ٩٥٥، حتى يثبت وجوده المسبق هناك.

واستمرت بعض العناصر الصغيرة من قواتنا تتمسك بجزء من منطقة الأدبية قرب الساحل خلف قوات العدو لمدة سبعة أيام بعد وقف إطلاق النار الأخير.. حتى أمكنهم اقناع المراقبين الدوليين بوجودهم هناك.

وأعاد العدو محاولته اقتحام مدينة السويس يوم ٢٤ اكتوبر، ولم تكن تلك المحاولة مفاجئة للقوات المصرية التى اعتادت الغدر وكانت هناك عناصر قوية من أطقم اقتناص الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات، وتصدت قوات المدينة الصامدة للعدو، فدمرت له عددا كبيرا من الدبابات، واستمر القتال بالسلاح الابيض.. وآثر العدو الانسحاب وترك وراءه العديد من الدبابات المحترقة.

ولم ييأس العدو.. وتوالت المحاولات.. فهاجم مدينة السويس مرة ثالثة صباح يوم ٢٥ اكتوبر.. ودار قتال عنيف استمر حتى ارتدت بقايا العدو لتقف عند مشارف المدينة.

ثم كانت محاولته الأخيرة صباح يوم ٢٨ اكتوبر.. وتحطمت تلك المحاولة على صخرة الصمود العظيم وبفضل الكمائن المضادة للدبابات، وأطقم اقتناص الدبابات، التى دفعتها الفرقة ١٩ المشاة لتأمين مداخل المدينة، بالاضافة الى القوات الاخرى التى تؤمن المدينة ذاتها، من الدفاع الشعبى والشرطة والاهالى.

ووصلت قوات الطوارئ الدولية واتخذت مراكزها بين القوات المتحاربة عند مشارف المدينة فى الساعة ١٢٣٠ يوم ٢٨ أكتوبر.. وهدأت النيران..

وهكذا تمكنت القوات الاسرائيلية من توسيع الجيب الاسرائيلى غرب القناة فى حمى قرار وقف اطلاق النار.. واستطاعت بالخديعة أن تزيد من مكاسبها فى الارض بمقدار يزيد على ضعف ما كانت تحتله عندما سرى قرار وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

ولكن هذا العمل وضع تلك القوات فى موقف شاذ، إذا أصبحت تلك القوات ذاتها تشكل جيبا هشا عديم الفاعلية والتأثير.، كما أجبر العدو على استمرار تعبئة قواته لمدة طويلة بعد ذلك، رغم ما فى هذا الإجراء من أضرار لا يستطيع الاقتصاد الاسرائيلى احتمالها، وتعانى منها الحياة اليومية فى إسرائيل

على وجه الخصوص.، بالاضافة الى أن القيادة العسكرية تكون بذلك قد زجت بقوات كبيرة الى مسرح حرب طويلة الأمد على عكس العقيدة التى تعتنقها منذ أن أنشأت جيش الدفاع..

ولكن ما هى النتائج العسكرية للاختراق؟..

لم تستطع اسرائيل تحقيق نجاح عسكرى حقيقى فهى لم تتمكن من تطهير القوات المصرية فى المنطقة وبقيت المواقع متداخلة الى حد أن موقع خط بارليف فى كبريت - على بعد ٤٠ كيلو مترا شمال السويس - ظلت تسيطر عليه قوة مصرية دون أن تتمكن القوات الاسرائيلية من اقتحامه مدة ١٢٠ يوما أو اكثر وظل صامدا حتى انسحاب القوات الاسرائيلية من حوله.

لم تنجح القوات الاسرائيلية من تطويق القوة المصرية شرق القناة، وبالتالى فإنها لم تضطرها قط الى نقل مجهودها الرئيسى الى الاتجاه المعاكس وظلت قوات الجيش الثالث شرق وغرب القناة مستمرة فى تحسين مواقعها وفى كسب مواقع جديدة.

لم تستطع القوات الاسرائيلية رغم كل ما توافر لها من امكانيات غير محدودة وغير متوقعة من قطع طرق امداد القوات المصرية شرق القناة.. وظل طريق الامدادات الى الجيش الثالث مفتوحا برا وبحرا وجواء وظلت له معابر سليمة فى القطاع الجنوبى من جبهة القناة.

ولكن.. لماذا استخدمت القوات المصرية طريق القاهرة - السويس الذى تقطعه القوات الاسرائيلية من أكثر من نقطة فى ارسال المياه والاطعمة والادوية بواسطة قوات الطوارئ الدولية، بينما طرق الإمداد الأخرى مفتوحة؟

والإجابة ببساطة تبدو فى صورة سؤال آخر..

لماذا لا نستخدم هذا الطريق - ولنا كل الحق فى استخدامه - لننقل عليه الطعام والماء والدواء ونترك الطرق الأخرى لنقل العتاد والسلاح؟ ولماذا نعطى

العدو فرصة الاستفادة من قطع طريق وصل اليه متسللا بعد وقف إطلاق النار؟ وببساطة أكثر.. انه ليس هناك ما يمنع من الاستفادة بنقل المزيد عبر هذا الطريق.

ومن الانصاف ان نسجل هنا بطولة الرجال الذين تولوا مسئولية نقل الامدادات الى قواتنا بعد أن كانت خطوط تحركاتهم فى ذلك الوقت داخل نطاق السرية.

لقد كانت اسراب طائرات الهليوكبتر المصرية تقوم برحلات يومية إلى مواقع الجيش الثالث شرق القناة صانعة بذلك جسرا جويا تدفقت عبره الاسلحة والذخائر الى ابناء مصر فى سيناء.

وصنعت زوارق القوات المصرية جسرا بحريا الى هذه القوات لم يستطع نشاط العدو الجوى وقتها ان ينال منه.

كما كانت هناك قوافل برية - استخدم بعضها الجمال - تخترق الارض التى ادعى العدو السيطرة عليها، لتنقل الى وحدات الجيش الثالث كل ما كان يلزمه من وقود وذخيرة وامداد.. بل وأكثر مما كان يلزمه.

وحطم الأبطال بذلك كل محاولات عزل قواتنا الضاربة فى الشرق.. وهكذا لم يتمكن العدو من تحقيق أى نصر عسكرى حقيقى.

وعندما حاول العدو أن يحقق نصرا دعائيا ونفسيا باحتلال السويس، فشل فى اقتحام المدينة التى صنعت ملحمة عسكرية شعبية ودمرت عند مدخلها كتيبة دبابات إسرائيلية كاملة.

وكان على العدو أن يقدم على الانسحاب الذى يحتمه موقفه العسكرى، ويأتى هنا السؤال الذى أثير وقتها حول رفض اسرائيل الانسحاب الى خطوط ٢٢ اكتوبر وهى المواقع التى وجدت فيها القوات الإسرائيلية ساعة وقف إطلاق النار، بينما موقفها يحتم عليها الانسحاب.

وتجيب كلمات الجنرال بارليف رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية.. على هذا السؤال عندما قال: إن انسحاب القوات الاسرائيلية إلى منطقة الثغرة فى الدفرسوار يعنى ببساطة دخول القوات الاسرائيلية فى مصيدة وقبول الحكم عليها بالإعدام.. وإن الافضل لها الانسحاب إلى عمق سيناء.

وشنت مصر حرب استنزاف غير معلنة على قوات العدو غرب القناة - وهنا أقف لحظة لأسجل الدور التاريخى الذى قامت به القوات الخاصة وقوات الابرار الجوى (المظلات) فى هذه المعارك التى جعلت اسم قوات المظلات المصرية مسبوقا دائما بكلمة «أبطال». ولم يكن ينقضى يوم واحد دون ان يسقط لاسرائيل قتلى وجرحى فى الزيتية وجبل عتاقة وعند بحيرة التمساح.

وكان ذلك عنصرا ضاغطا فى مباحثات الفصل بين القوات والتى انتهت بقبول العدو الانسحاب - ليس إلى منطقة ثغرة الدفرسوار - بل الى عمق سيناء.

وانتهت بذلك قصة أفشل عملية عسكرية إسرائيلية، لم تحقق سوى نصر تكتيكى محدود دفعت ثمنه عددا غير محدود من الخسائر، خاصة فى الافراد. وعرف العدو مرارة الهزيمة لأول مرة..

الفصل الحادى عشر

أسرار القتال الصامت

توقفت البيانات العسكرية المصرية بعد يوم ٢٤ اكتوبر ١٩٧٣ .. ولكن القتال لم يتوقف..

واستمرت الاشتباكات والمعارك ـ بدون بيانات عسكرية ـ وبصورة دائمة متواصلة لمدة ٨٣ يوما ـ من ٨٦ يوما فى الفترة بين ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى اتفاقية الفصل بين القوات فى ١٨ يناير ١٩٧٤ .. ولم يتوقف القتال طوال هذه الفترة ـ سوى ثلاثة أيام ـ وإن توقفت بيانات القتال. ولهذا يمكن أن نطلق على هذه المعارك اسم «القتال الصامت».

وفترة القتال الصامت على مدى اثنى عشر أسبوعا فترة مليئة بالاحداث والخفايا التى لم تذع تفاصيلها نتيجة توقف البيانات العسكرية، وليس نتيجة أنها كانت معارك واشتباكات صغيرة كما قد يتصور البعض.. لقد شهدت هذه الفترة اشتباكات عديدة يصل عددها الى حوالى ١٥٠٠ اشتباك. ثلثها تقريبا اشتباكات كبيرة وقتال طويل وشرس بالأسلحة البرية والجوية. وكان للقوات الخاصة وقوات الابرار الجوى (المظلات) دور كبير فى معارك هذه الفترة التى دارت غرب قناة السويس، بينما خاضت «قوات بدر» معارك حقيقية مع العدو فى سيناء.

وسألت صاحب الحديث:

.. ولكن من هى بالضبط قوات بدر؟

هى النسق الأول للجيش الثالث المتمركزة شرق السويس. ومن المعروف أن نطاق عمل الجيش الثانى هو القطاع الشمالى من الجبهة والذى يمتد جنوب قطاع بورسعيد وحتى قرب منطقة فايد عند البحيرات المرة. أما الجيش الثالث فيمتد قطاع عمله جنوبا من هذه المنطقة وحتى خليج السويس.. ومنذ اليوم الاول للمعركة عبرت قوات النسق الأول لهذا الجيش القناة لتخوض أشرف معارك سيناء وأكثرها شراسة..

ثم كانت العمليات الاستعراضية لقوات العدو التى انتهت بخسائر جسيمة فى صفوف قواته دفعها ثمنا لوجوده غرب القناة على أمل أن يطوق قوات الجيش الثالث الموجودة شرق القناة..

وكانت هناك الفرقتان السابعة مشاة والتاسعة عشرة مشاة.. وتم توحيد الفرقتين تحت قيادة واحدة واطلق عليها اسم «قوات بدر» وعين العميد أركان الحرب أحمد بدوى سيد أحمد قائدا لقوات بدر ورقى إلى رتبة «اللواء»..

وفى سيناء قامت «قوات بدر» بتعديل أوضاعها التكتيكية والتقدم الى مواقع جديدة بينما كانت القوات العامة الاسرائيلية تركز على مواصلة ضرب قوات الجيش الثالث بالطيران وبكثافة عالية جدا على أمل تحقيق نصر عسكرى كبير بحصار قوات بدر واجبارها على الاستسلام تحت ضغط الضربات الجوية المركزة والعنيفة والتى استمرت تنهال عليها عدة أيام بكثافة شديدة جدا..

ولم يكن هذا الهدف العسكرى يأتى بالنسبة للعدو فى الدرجة الأولى. بل كان الهدف السياسى والمعنوى يأتى قبل ذلك لأنه يغطى على الموقف الاستراتيجى السيئ الذى كان العدو يعانى منه نتيجة ما ترتب على دفعه قوات كبيرة غرب القناة وكانت القيادة الاسرائيلية ترى أن تحقيق هذا الكسب

السياسى المعنوى يمكن أن يتم باحتلال مدينة السويس التى يرتبط اسمها بالقناة والتى لها بالتالى رنين خاص وشهرة عالمية..

وفشلت اسرائيل فى تحقيق هذا الهدف بفشلها فى احتلال السويس.. كما فشلت فى تحقيق الهدف العسكرى حيث ظلت قوات بدر صامدة متماسكة بل وأسقطت دفاعاتها المضادة للطائرات ٧ طائرات للعدو خلال الغارات الجوية المجنونة التى كانت تشنها الطائرات الإسرائيلية على قوات الجيش الثالث - شرق القناة.

وتحت هذه الظروف كان «القتال الصامت» يدور على ضفتى القناة ليشكل حرب استنزاف حقيقية عانى منها العدو كثيرا..

وعن الموقف الاستراتيجى لقوات العدو فى هذه الفترة يصف أحد أبطال اكتوبر وهو اللواء طه المجدوب الظروف التى أحاطت بقوات العدو غرب القناة..

كانت إسرائيل تخشى دائما أن تتورط فى عمل عسكرى غرب القناة - رغم أنها درسته طويلا وأعدت له خططها - لأن مثل هذه العمل تحف به مخاطر عديدة، منها ما ستعانيه قواتها نتيجة الامتداد البعيد بأكثر مما يتحمله الجيش الاسرائيلى، والاقتراب من الكثافة السكانية، واثارة الرأى العام العالمى..

ولكن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية أقدمت - ولأسباب عديدة ومعروفة - ونتيجة الهزائم القاسية التى منيت بها - على القيام بتلك المغامرة التى نجحت لاسباب مختلفة لم ترد أصلا على مخيلة من خططوها، ولم يحمها من الإبادة الإقرار إيقاف النار.

وبعد قرار وقف اطلاق النار أصبح وضع القوات الاسرائيلية فى الثغرة خطرا يهددها بكارثة حيث حشر فيها المغامر الاسرائيلى أرييل شارون سبعة ألوية كاملة، وصفها رئيس الأركان العامة الاسرائيلية الاسبق حاييم بارليف بأنها مجرد رهينة يسهل أسرها بهجوم مركز من القوات المصرية عندما يتم

حشد قوات جديدة تضم المشاة والمدرعات والمدفعية لتحكم بها الحصار حول قوات الثغرة الاسرائيلية، التى يزيد موقفها سوءا امتداد خطوط مواصلاتها امتدادا كبيرا من غرب القناة الى قواعد اسرائيل بينما معابرها على القناة تقع بين الجيشين المصريين الثانى والثالث.

وبهذا التوزيع الشاذ للقوات الإسرائيلية ـ وبعد ما تكلفته من خسائر بالغة فى معارك سيناء وفى مغامرة فتح الثغرة ـ ازداد الموقف الاستراتيجى للقوات الاسرائيلية سوءا. لقد أصبحت هذه القوات عرضة لخطر الانشطاروالعزل، مع وجودها فى موقف يتسم باختلال الاتزان الاستراتيجى، بالاضافة الى الامتداد الكبير لخطوط المواصلات الاسرائيلية المعرضة والمكشوفة، مع نجاح القوات المصرية غرب القناة فى احتواء الجيب الاسرائيلى بعملية الحشد السريعة والمكثفة التى أنجزتها، والتى وضعت بها القوات الاسرائيلية فى حصار داخل الحشد وبالتالى فى موقف شديد الحرج والخطر، وبقى شريان الحياة الوحيد للقوات الاسرائيلية غرب القناة هو عنق الزجاجة عند ثغرة الدفرسوار، فاذا ما انقطع أو أغلق امتنعت عنها أسباب الحياة وانحصرت هذه القوات غرب القناة..

وأدركت القيادة الاسرائيلية هذه المخاطر، والتى لم تستطع تجنبها فى البداية أمام اندفاع الجنرال أرييل شارون، فاضطرت الى تركيز جهودها وما تحت يدها من امكانيات وقدرات، بل وكل وسائل الدعم الامريكى، لتحمى وتؤمن قواتها المعرضة للابادة.

وكما ساء الموقف الاستراتيجى للعدو، أصبحت قواته غرب القناة فى حالة عدم اتزان تعبوى وتكتيكى نتيجة دفع التدعيمات فى منطقة الثغرة حيث عززت القيادة الاسرائيلية قوات الثغرة حتى بلغ حجمها سبعة ألوية وذلك خوفا من الضغط المصرى المتوقع ولمواجهة اشتباكات الاستنزاف.

ثم خصص العدو خمسة ألوية أخرى كل مهمتها توفير حماية المداخل الى الثغرة، كما أبقى عشرة ألوية فى مواجهة رءوس كبارى الجيشين المصريين

الثانى والثالث، وكان على القيادة الاسرائيلية أيضا أن تبقى جميع الاحتياطى الاستراتيجى فى اقصى درجات التعبئة والاستعداد طوال الوقت وهذا يتعارض تماما مع النظرية العسكرية الاسرائيلية ويؤدى الى ارتباك الاقتصاد الاسرائيلى نتيجة تعبئة حوالى ٣٠ لواء اسرائيليا فى سيناء..وفى هذه الظروف بدأت الاشتباكات بين القوات المصريةو الاسرائيلية وازدادت مع الأيام حدة وعنفا. وتابعت القوات المصرية طوال شهر نوفمبر تعديل أوضاعها التكتيكية لإتمام حصار العدو غرب القناة واحتلال نقطة حاكمة ومسيطرة ذات قيمة تكتيكية أفضل، وخلال ذلك اشتبكت قواتنا مع العدو ٩٣ مرة بالدبابات والمدفعية والأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات، وشهد شهر ديسمبر والنصف الأول من يناير نشاطا معاديا حاولت به القوات الاسرائيلية توفير الاستقرار لموقفها غير المتزن بإقامة تجهيزات هندسية، وتصدت النيران المصرية لهذا النشاط ومنعت العدو من اقامة هذه التجهيزات، واستنزفت قواته وأوقعت خسائر كبيرة نسبية فى أسلحته ومعداته.. وأفراده.. وهذا هو العنصر المؤثر فى معارك الاستنزاف..

وأثناء هذه الفترة شملت الاشتباكات نيران الأسلحة الصغيرة والقصف بالمدفعية والهاونات ونيران الدبابات وبلغ عددها ٣٤٦ اشتباكا منها ٢١٣ اشتباكا فى شهر ديسمبر..

وظلت القوات المصرية رغم خسائرها متماسكة تماما شرق وغرب قناة السويس قادرة على مواصلة القتال العنيف، خاصة بعد أن برزت صورة المقاتل المصرى الكفء القادر على استخدام الأسلحة والمعدات بمهارة وكفاءة أنهت ادعاءات اسرائيل وأكاذيبها.. وكانت «قوات بدر» شرق القناة - والتى تضم تحت قيادة واحدة الفرقتين ٧ و١٩ مشاة صامدة متماسكة وعلى درجة قتالية عالية أتاحت لها القدرة على التقدم لمواقع جديدة.

وينقلنا حديث بطل آخر من أبطال اكتوبر إلى غرب القناة حيث معارك الاستنزاف التى يروى لنا المقاتل طلعت دورها فى منطقة جنوب غرب السويس، وميناء الادبية.

ومع كلمات الابطال الذين يتحدثون فى تواضع عن عملياتهم البطولية تبرز قصة كتيبة جبل عتاقة التى صنعت من فوق صخور الجبل قصة بطولة خالدة.

كان الوصول الى المنطقة الجبلية هو أول مشكلة تواجه كتيبة المظلات التى كلفت بالتمركز فى جبل عتاقة وشن عمليات الاستنزاف من هناك ضد القوات الاسرائيلية فى المنطقة. وكان اختيار كتيبة مظلات بالذات يأتى بسبب امكانية وصولها الى المنطقة بوسائل غير متاحة للقوات التقليدية، وكانت الوسيلة المفترضة لنقل هذه الكتيبة بوصفها من قوات الإبرار الجوى هى الطيران، حيث إن قوات الإبرار الجوى تسقط بالمظلات أو تنقل بطائرات الهليوكبتر. ولكنها اختارت هذه المرة أصعب وسيلة،، وتقرر أن تشق طريقها برا إلى قمة الجبل.

وكان الاستطلاع الجوى للعدو قد أكد أن جبل عتاقة مانع طبيعى يحمى ظهر الوحدات الاسرائيلية فى المنطقة.. ولكن الذين عبروا القناة وخط بارليف عبروا الجبل واخترقوا ووصلوا الى قمة عتاقة «ليركبوا» العدو الذى أصبح تحتهم..

ولم يكن هناك طريق الى قمة الجبل .. ولكنهم صنعوا الطريق ولم يكن من الممكن استخدام الوسائل الميكانيكية نظرا لوعورة الجبل فاستخدموا أيديهم فى شق وتمهيد الطريق الذى بلغ طوله ١٢ كيلو مترا.. واحتلوا القمم دون أن يشعر العدو بهم، وبدأت عمليات نقل الأسلحة والذخيرة. وكان من المستحيل استخدام اى نوع من السيارات فى عملية النقل. وبدأ على الفور فك المعدات والأسلحة والمدافع ونقلها على أجزاء الى مواقع الكتيبة فوق صخور الجبل الوعر.

واستخدمت القوات هناك قوافل الدواب فى نقل المعدات والاسلحة والذخيرة.. وظلت قوافل البغال والجمال هى الوسيلة الوحيدة لإمداد الرجال فوق الجبل.

وفى هذه الفترة عادت مجموعات الاستطلاع التى كانت قوات المظلات قد أرسلتها لاستطلاع العدو فى المنطقة وجمع المعلومات عنه، والتى عاشت

وسط قوات العدو ٥ أيام دون أن يشعر بها، ولتعود بمجموعة ضخمة من الصور الفوتوغرافية شمل جميع مواقع العدو ومراكز نيرانه.. وبخرائط تفصيلية مجسمة لتوزيعات قواته فى المنطقة.

وبدأ على الفور الإعداد لمعركة استنزاف طويلة.. ووزعت القوات فوق الجبل وأعدت مواقع المدفعية والهاونات ونقط انطلاق الصواريخ.. وبدأت المعركة. وفوجئ العدو بالنيران تأتى من بين الصخور وكأن جبل عتاقة كله يلفظ الجحيم..

واتجهت أنظار العدو - لأول مرة - نحو الجبل الذى كان قد اطمأن إليه من قبل. ورصد مواقعنا فوق أعلى قممه وبدأ يوجه إليها النيران..

ولكنه بقى - وحتى الآن - لا يعرف لماذا لم تنل ضرباته من قوات عتاقة.. وكان وراء ذلك سر من أسرار خطط الخداع التى وقع العدو ضحية لها.

لم تكن مواقعنا التى وجه العدو نيرانه إليها إلا مواقع هيكلية صنعت من صخور الجبل.. أما المواقع الحقيقية فكانت وسط الجبل بعيدا عن المواقع الهيكلية.

وكان بعض أفراد الكتيبة يتجهون بعد أول ضوء وقبيل آخر ضوء الى هذه المواقع الهيكلية يحملون معهم «حمالات التعيين» - أى الطعام - ويقومون بتمثيل عمليات توزيع «التعيين» الوهمى على الافراد الذين لم يكونوا سوى كتل متراصة من الاحجار تبدو فوقها خوذ الصلب مطلة من الخنادق الوهمية!

وبعد كل اشتباك كان بعض الافراد يتجهون إلى المواقع الوهمية ويتحركون هناك ويحملون «نقالات الاسعاف» وكأنهم يقومون باخلاء أحد الجرحى!!

وظل العدو يوجه نيرانه إلى هذه المواقع الهيكلية تاركا مواقعنا الحقيقية متفرغة لضرب مصادر نيرانه. وكان توجيه العدو نيرانه نحو المواقع الهيكلية

يكشف بسهولة عن مصادرها أمام مدفعيتنا وصواريخنا الخارقة للدروع، ويسهل كثيرا واجبها الذى ظلت تؤديه ليل نهار أكثر من شهر ونصف الشهر استغرقتها اشتباكات عتاقة.

وكان هناك أكثر من خديعة أخرى..

لقد جهزت عبوات متفجرة وزعها أفرادنا على أماكن متفرقة وسط الجبل، وتم توصيلها بأسلاك التفجير لاستخدامها فى خداع العدو.. وعندما زادت حدة الاشتباكات بدأ العدو فى ضرب الجبل بالمدفعية عيار ١٢٥ ملليمترا، ومع طلقات مدفعية العدو كان يتم تفجير بعض هذه العبوات. ويرصدها العدو من بعيد ويتصورها نتيجة ضربات مدفعيته وقد جاءت بعيدا عن الاهداف. ويعود العدو الى تصحيح ضربات مدفعيته لتعود طلقاته أكثر بعدا من الأولى.. وترتبك وحدات مدفعية العدو.. وتتوقف عن الانطلاق.. ومع عودة الاشتباكات يكتشف العدو أنه لم ينل شيئا من قوات عتاقة.

وتعود الجمال تحمل المزيد من الدعم والذخيرة لقوات عتاقة، وتظل قوافل الدواب تنقل الحمولات من نهاية الطريق - الذى مهده الرجال وسط الجبل لمسافة ١٢ كيلو مترا - لتوصيلها الى مواقع الرجال وسط صخور الجبل.. وفكر العدو فى أن يقوم بإنزال قواته أعلى الجبل بالطائرات الهليوكبتر، وهى لعبة يعرفها العدو وسبق أن استخدمها، ويطلق عليها اسم «الاقتحام الرأسى». وكان هناك المقاتل المصرى على صواريخ سام التكتيكية المضادة للطائرات والتى اكتسبت شهرتها العالمية من معارك اكتوبر فى الجبهتين المصرية والسورية. وعندما حاول العدو استخدام طائراته فى تصحيح ضربات مدفعيته تولت الصواريخ إخراج طيرانه من المعركة.

ولم يجد العدو أمامه سوى تقديم الشكاوى إلى قوات الأمم المتحدة والتى بلغت ٢٧ شكوى ضد «كوماندوز» عتاقة قدم بعضها إلى مراقبى الأمم المتحدة

القائد الاسرائيلى نفسه الذى كان يعرض عليهم يده المصابة باحدى شظايا نيران عتاقة..

وعندما فشل العدو فى استخدام الهيلوكبتر، وانعدمت قدرته على الحركة لجأ إلى إعادة تجميع القوات فى المنطقة. وأصبحت الأهداف الجديدة تشكل صيدا دسما لقوات عتاقة التى بدأت فى استخدام سلاح جديد على المنطقة نقلته البغال إلى أعلى الجبل، وكان هذا السلاح الجديد هو الصواريخ التى اشتركت فى العمليات منذ المراحل الأولى للعبور.. والأسلحة المضادة للدبابات والتى يصعب استخدامها من أعلى الى أسفل. ولكن مع قليل من التطوير والتجهيز تنطلق من أعلى الجبل لتصيب مدرعات العدو ودباباته التى أعاد تجميعها فى المنطقة.

وأمام إلحاح العدو فى طلب النجدات.. دفعت القيادة الاسرائيلية وحدات مظلات الى المنطقة فى محاولة لاقتحام الجبل بعملية هجومية تجذب بها قوات عتاقة الى عمليات دفاعية بدلا من مهاجمة الدبابات الإسرائيلية ومناطق التجمع وبقيت المظلات الإسرائيلية أسفل الجبل فى مواقع دفاعية ضاعفت من خسائر العدو ولم تقلل منها.. وتطورت عمليات الصواريخ لتصيب دبابات العدو وعرباته المجنزرة ونقط ملاحظته وتجهيزاته الهندسية ومراكزه الادارية وتشوينات ذخيرته. ومع كل اشتباك كان العدو يخسر ما بين ٢٠ و٢٥ فردا وما بين ٢ و٣ دبابات أو عربات، حتى المخندق منها (داخل خنادق). وتولى قناصة المظلات صيد الأفراد خلال كل اشتباك.. رغم ذلك ظلت المعركة مستمرة ٤٥ يوما تستنزف العدو وتشكل عنصرا ضاغطا فى مباحثات الفصل بين القوات. وقدرت خسائر العدو فى المنطقة بحوال ٤٥٠ فردا بين قتيل وجريح.. وعندما قدمت الكتيبة كشف خسائرها فى هذه الاشتباكات كان الكشف يضم سطرا واحدا يسجل أن كل خسائرها طوال ٦ أسابيع من الاشتباكات هو جمل واحد.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٦٩٩ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6456 - 9



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩

٢٠٠ قرش

